أحمد خالد توفيق

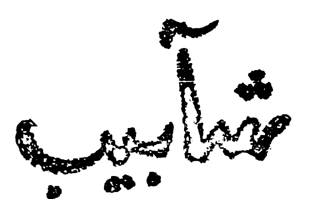
شآبيب

رواية

دار الشروق


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

أحمد خالد توفيق



دار الشروق

شكر

ينبغي أن أتوجه بالشكر لدار الشروق التي أفسحت لي المجال لنشر هذه الرواية، كما أتوجه بالشكر على مراجعة النص لصديقيَّ الحميمين على المستوى الشخصي والفكري: د. أيمن الجندي، ود. رائف وصفي، وقد استرشدت برأيهما كثيرًا؛ كما أفعلُ في كل رواياتي في الواقع. وفي النهاية أتوجه بالشكر لأول مَن أُقدر رأيه وأهتم به، وأجاهد كي أكسب رضاه من دون أن أتملقه: القارئ.

شآبيب: جمع شُؤبوب.

الشُّؤبوب: الدُّفعة من المطر ـ الشّدة من كل شيء.

شآبيب المطر: القطرات الأولى من المطر.

أنزل الله عليه شآبيب رحمته: غمره بعفوه.

على الساحل

الحين حين تأمل وشرود الإبحار في عباب الذكريات ولحظات محاسبة الذات القاسية. هناك على الساحل الاستوائي الحار، يمكنك أن تجد جذع شجرة عتيقًا دب فيه العفن وغزته الطحالب. ليس بخير مقعد يمكن أن تجده، لكنه يصلح على كل حال. هو ليس في حال تسمح له بأن يفترش الرمال الساخنة. ثم إن الجلوس يتيح له ما كان يشتهيه من غوص في لجة الذكريات. لسبب ما بدا له أن استعادة الذكريات في وضع واقف أمر مهين بعض الشيء. ابتسامة شقت طريقها بعسر شديد عبر جلد وجهه المدبوغ، حتى إنه أوشك على التمزق. تذكر قصة قديمة لـ«دستويفسكي» جعلته كريمة يقرؤها.. ثمة عاشق ضئيل الحجم يحمله صديقه مازحًا من ياقة سترته ويحاول جعله يعترف بقصة حبه، لكن العاشق يأبى.. يشعر أن كلامه عن قصة حبه في هذا الوضع شأن مخجل يفسد الأمر برمته.

يجلس ويمسك بعصا صغيرة يحاول أن يحفر بها دروبًا وقنوات على الرمال البليلة، وهو سلوك حتمي لكل من يجلس أمام الرمال وفي يده غصن شجرة.

رائحة الدخان تزكم الأنوف.. ثاني أكسيد الكبريت الذي يهيج أغشية الأنف والعينين. هو جرّب رائحة غاز الدموع في مونروفيا، ويعرف أن الرائحة لا تختلف عن هذا كثيرًا. لكن الغاز في هذه المرة كثيف لا يتوقف ولا يضعف.

من بعيد يتصاعد الدخان من بركان جاواتامي. حوت عملاق ضخم ينعس في الأفق وتنبعث من ظهره نافورة مياه سوداء كثيفة

شيطانية الرائحة. يمكنك أن تقضي حتفك لو كنت مريضًا بالربو أو فرط تحسس الشعب الهوائية.

يحفر على الأرض بلا توقف.

كريمة...

الاسم كريمة.

ثم مد قدمه الحافية بأظفارها المتسخة فمسح الاسم.. الرمال ساخنة.. يعرف معنى هذا.. الأرض تحترق بجنينها الثائر الغاضب.

بطرف العصا بدأ يحفر اسم أمينة.

من المُحير أن أهم امرأتين في حياته لاسميهما وزن «فعيلة» وهو ما ذكّره بنساء المغرب: سميرة.. حبيبة.. سهيلة...

برغم رائحة ثاني أكسيد الكبريت اللعينة يشعر بحاجة للفافة تبغ. يعبث في صدر القميص الممزق، إلى أن يجد قطعة قماش لف فيها ثلاث لفافات. بحذر يستخرج لفافة منها اصطنعها من ورق الموز والتبغ. هناك قداحة ما زالت معه منذ أيام مونروفيا.. يشعل اللفافة ويتمنى ألا يكون العرق قد أتلفها. سحابة الدخان البيضاء عطرة الرائحة تتصاعد مبشرة بدقائق ممتعة.

سعل مرة ومرتين.

نظر إلى البحر حيث تقف السفن في الانتظار.

مهرجان من السفن بعضها يحمل العلم الأمريكي أو البريطاني.. بعضها يحمل العلم الأسترالي. وبعضها بلا علم على الإطلاق.

الصخب.. ومن حين لآخر ترتفع طائرة هليوكوبتر من مكان ما، وثمة صوت يتكلم بلغة ما من مكبر صوت فلا يفهمه أحد. ثم تذهب لمكان ما فتتوارى.

ينظر إلى الشط فيبصر الطابور الطويل الذي يتقدم كأفعى.. أقدام

تغوص في الرمال وتحاول النماسك.. نساء.. أطفال.. شيوخ.. رجال يحاولون أن يبدوا شديدي المرح.

كذا كان يتخيل في طفولته مشهد الحساب في يوم القيامة. البشر الذين خرجوا من قبورهم على صوت النفير يمشون متعثرين خائفين في طابور طويل بدايته مولد البشرية ونهايته آخر طفل ولد قبل قيام الساعة. وكما سيحدث يوم الحساب ترى الكل ذاهلاً لا يبالي ولا يتذكر من حوله.

أما المشهد في البحر فيُذكره بعشرات القصص التي قرأها عن يوم الإنزال الأكبر على سواحل نورماندي في الحرب العالمية الثانية.. فوضى السفن والزحام والدنو من قلب الجحيم. لكن الوضع يختلف هذه المرة لأنه لن يكون هناك إنزال، بل أضخم عملية ركوب في التاريخ.

نفث المزيد من دخان لفافة التبغ وسعل.

أمينة في مكان ما وسط هذه الجموع.

لو مضت الأمور كما كان يجب أن تمضي فلربما كانت كريمة بينهم.. لكن كريمة في عالم آخر رحيم.

«بوم! تهوي الهراوة بالسرعة البطيئة على.. على رأس كريمة. نافورة دم تناثرت بالسرعة البطيئة، وقالت بالعربية شيئًا لم يفهمه أحد ثم سقطت على الأرض.. كان الصوت والمنظر يدلان بلا شك على ما حدث. لن تحتاج لطبيب».

ارتجف.

لو كان بوسع المرء أن يغرس الخنجر في مخه ليقتطع الجزء الذي يحمل ذكريات معينة، لغدت الحياة جنة. وما تعلمه من خبراته

أنك مهما دخنت من أعشاب مخدرة وانغمست في خمر ولهو، فالذكريات القذرة تظل هناك.. لا يمكن أن تخفي رائحتها كأنها القيء على تنجيد سيارة.

الأرض ترتج.

لعلها المرة الرابعة في هذا اليوم.

الغمام يزداد كثافة، وذلك الشعور بأن الليل يدنو برغم أن الساعة لم تتجاوز العاشرة صباحًا. هذا الشعور الذي كان يمقته ويخشاه في طفولته عندما تقترب العاصفة. لم يفشل هذا الشعور قط في جعل أمعائه تتقلص، ولربما أطلقت بعض ما احتبس فيها من غازات. لكن الأمر هذه المرة لا يتعلق بظلام مبكر، بل هو يتعلق بنهاية الكون ذاته.

نظر إلى الغمام. غريب أنك لا تشعر بأنه غمام، وإنما هو يتكون من نقاط سود عملاقة متجاورة، كأنه سرب من ذباب سارتري عملاق. لكن الذباب الحقيقي قد أدرك الهول القادم فكان أول ما اختفى. هذه أرض استوائية بلا ذباب. لكنه الغبار البركاني الذي قتل «بليني» الأكبر المؤرخ والفيلسوف الروماني وفتك بمدينة بومبي الإيطالية يومًا ما. في البداية رفض الناس الفرار فاختنقوا بالأبخرة، ثم فاضت الحمم (اللافا) لتغمر كل شيء، وتسرب الكالسيوم إلى البقايا فحولها إلى تماثيل. تماثيل يحمل كل منها انفعال وبشاعة اللحظة التي توفي فيها؛ ومنها امرأة كانت تركض ثم انكفأت على وجهها.. كلب مات وهو يعض السلسلة.

من أين تأتي هذه الصواعق؟

بركان جاواتامي قرر أن يكون قذرًا ككل البراكين الأخرى، لكنه لم يخدع أحدًا.. قد أعطى فترة إنذار لا بأس بها. عندما ينفجر سيكون

الجميع قد فروا.. سيكونون في قلب المحيط الهادي عندما يدوي الانفجار الأعظم وتتحول شآبيب إلى كتلة من الحمم.

شآبيب سوف تفنى.. لكنها ستظل ذكرى خالدة. لقد صنعوا تاريخًا، وغدًا سيأتي من يحكي عنها وعن سليم والآخرين.

«سليم على الأرض يرى كل شيء بالمقلوب.. يرى رأس ماله الشحيح يتبعثر، ويرى متجره يتحول لخراب.. في الخارج يقف بعض السود يراقبون المشهد ولا يجسرون على التدخل».

ينفث المزيد من دخان لفافة التبغ شاعرًا بالحسرة لأنها توشك على الانتهاء. صحيح أن الهواء شحيح وأن امتزاج التبغ بغازات البركان وصفة كريهة، إلا أنه لا يجد مفرًّا.

سوف يجد بين البحارة مَن يعيره علبة تبغ وعلبة ثقاب.

شآبيب!

وجد نفسه يخط الاسم على الرمال.. وارتجف.

الطريق إلى شأبيب


أوسلو

١

وأبداً تتبعثر أشلاؤك في بقاع الأرض، لكنها ما دامت تتذكر أنها أشلاؤك فسوف تحتشد ثانية مثل جثمان أوزيريس.

سمير الشيخ

* * *

أمينة واقفة أمام التلاميذ في الصف، ممسكة بكتاب صغير. هذه صيغة مبسطة لمسرحية «إبسن» (بيت الدمية). وهي تعرف أن الفتيان غير مهتمين والفتيات غير مباليات. هناك ستار كثيف من الهرمونات الشبقة والملل يغلف العيون والآذان، فلا يعبأ أحدهم بمصير نورا. لكنها ـ أمينة ـ تؤدي عملها في تفانٍ لا داعي له.

تقول لهم بلكنة ممتازة:

ـ «نورا كما اختار لها «إبسن» تتحول من دمية لطيفة بحاجة إلى الحماية إلى شخصية حازمة تدعو إلى الحرية الفردية».

أمينة ـ كما يوحي الاسم ـ ذات ملامح عربية قوية، سمراء، لها أنف أقنى، وفي ظروف أخرى يمكن أن تعتبرها جميلة. وهي تلبس الحجاب. حجاب أنيق عصري هو، لكنه يبدو مستغربًا وسط هذا الصف. إنهم مجموعة من الطلبة الغربيين بشعورهم الشقر وعيونهم الملونة ولا مبالاتهم. اللغة المستخدمة هي النرويجية، فلا بد أن أسماء الطلبة من عينة إينار وثور... إلخ.

عندما لم يكن هناك تعليم، كانت سفن هؤلاء تجوب بحر الشمال،

وكانوا مقاتلين لا يُشق لهم غبار، مجردين من أي رحمة. الفانكنج.. هذه هي الكلمة السحرية.

بعض النظرات عدائية بلا شك، لكنها لا تخصها بالذات. معظم المراهقين لديهم قدر وافر من العدوانية وقلة الأدب ضد الجميع، وكل معلم يعرف هذا ويتوقعه ويتقبله ويتحايل عليه.

ما كانت تخشاه بحق هو عالم الكبار في الخارج. هؤلاء يعرفون ما يقولون وينقلون جراثيم المقت لهؤلاء. التلاميذ لا يكرهونها، لكن هناك مدرسة أخرى تنتظرهم في البيت.. في الشارع.. في وسائل الإعلام.. تُعلمهم أن المجد للمقت وطوبى لمن تعلّم أن يكره.

سألتهم:

- «هل استمتعتم بهذه المسرحية؟؟».

صمت بعضهم وأخفى البعض ابتسامته، بينما هز البعض الآخر رأسه نفيًا. أحد الطلبة يُدعى «أولاف».. له شعر منكوش ثائر، وله سالفان كثان يشيان بنمو مبكر جدًا لهرموناته في سن مبكرة. وكان يرتدي سترة جلدية رُسم عليها تنين فبدا كأنه من الهيبز.

«أولاف» طلب الإذن، فسمحت له. نهض وقال:

- «هذه رسالة مباشرة أكثر من اللازم.. المسرحية كُتبت بمنطق دعائي فظ كأنها موعظة دينية».

- «كانت لدى «إبسن» رسالة يريد توصيلها».

- «هي طريقة تخلق موعظة دينية لا عملًا فنيًّا».

كان رأيًا لا يخلو من ذكاء، وقد منحته سرًّا شهادة بالقدرة على النقد الجدلي، لكنها في الوقت نفسه استنكرت أن تتم محاسبة «إبسن» هنا على يد هؤلاء المراهقين.

قالت متظاهرة بالحياد العقلاني كأنها قاضية:

ـ «هذه آراء متضاربة تثري الحوار بلا مراء. من أحب النص ومن لم يحبه أضاف شيئا جديدا».

أو لاف يحبيها بعنف. تعرف هذا جيدًا. متلازمة التلميذ المراهق الذي يهيم حبًا بمعلمته ويراها الهة الأنوثة الكاملة. المعلمات يعرفن أشياء كهذه بالفطرة، والحكمة هي أن تطفئ نيران المراهق من دون أن تبصق عليها. دعه يتعذب فهو عذاب يكسبه نضجًا، لكن لا تقترب منه أكثر من اللازم ولا تسنح الوعود أو الآمال الزائفة. لا تبتعد بغلظة فتشرخ نقاء روحه.

قلبت صفحة جديدة وهتفت:

ـ «يجب أن نرى في مشهد النهاية...».

رنننننننننن!

جرس نهاية الدرس، هزت رأسها في استسلام كما نخضع نحن بروح رياضية للموت عندما يباغتنا في لحظة حافلة من حياتنا، وسرعان ما كان الطلاب يغادرون مقاعدهم. الفتيات يحملن أنوثتهن والفتيان يحملون فحولتهم مغادرين المكان الذي يُعذبون فيه.

وقفتُ للحظات ترمق الغرفة الخالية، ثم خطر لها أن مثانتها مليئة.. مليئة منذ نصف ساعة، ولكنها تجاهلتها، أما الآن فقد صار الألم لا يطاق بعدما زال التثبيط العصبي.

غادرت الصف الخانق إلى ممر ضيق. شرفة طويلة جدًّا تطل على حديقة غَناء. مساحة ساحرة من الخضرة تناثرت فيها زهيرات رائعة الجمال. أوسلو عندما تنزع عن نفسها كساء الثلج الثقيل وتكشف عن سحرها العاري الخلاب. الطقس ما زال باردًا لكنه يعطي لسعة محببة للنفس.

دست يديها في المعطف واتجهت نحو الحمّام.

كانت مثانتها مليئة حقًّا. أفرغتها شاعرة بتلك النشوة المعهودة. ثم وقفت تمارس النشاط الطبيعي لأي امرأة ترى مرآة: أن تغازل نفسها عبر سطح اللجين. غسلت يديها بالماء الدافئ والصابون المعطر، ثم راحت تتأمل وجهها العربي القسيم. ثم أصلحت من وضع الحجاب الأبيض.

تحركت آلام قرحتها.. تعرف أنها تعيش حياة متوترة وأنها تترقب الأسوأ. القلق صار عادة يومية عندها. أن تمشي في ممر طويل بسرعة جنونية ولا تعرف أين ومتى يظهر الجدار الذي يهشمك، أو الحفرة التي ستسقط فيها. لكنك لا تستطيع عمل شيء. لربما يحدث أي شيء غدًا.. لربما لا يوجد غد أصلًا.

العودة لتونس! مستحيل.

لقد انقطعت سبل الحياة بها هناك. خمسة عشر عامًا في النرويج.. لقد صار هذا هو وطنكِ الحالي، وأنتِ تعرفين أن تونس صارت نقطة بعيدة في الأفق أقرب لسراب.

لن تحزم حقيبتها مرة أخرى. لقد انتهى الأمر. ستعيش أو تموت في أوسلو. قرار حازم وجسور، لكن قرحتها تدفع الثمن. لا يقع أحد من جدار معدتها أن يكون جسورًا حمولًا.

غسلت وجهها بحذر حتى لا تفسد كحل العينين، ثم جففته.

المديرة قالت إنها تنتظرها بعد الدرس. بالتأكيد ليس للمرح أو لعب الشطرنج، ولن تطري أداءها. سوف تلومها على شيء ما لا تعرف ما هو. ليكن.

خرجت من الحمّام لتواصل المشي في الممر.

ـ «جو مورن (صباح الخير) يا أمينة».

ـ «كيف الحال يا أمينة؟».

تبعثر التحيات على من يلقاها من الزملاء.. هم ليسوا عنصريين هنا لحسن الحظ، ولكن العالم الخارجي قد جعلها تشعر بحساسية بالغة، حتى إنها لو دخلت مكانًا تشعر بامتنان إذا لم تسمع ضحكة سخرية أو سبة.. سبة لا تتبين صاحبها أبدًا لأنه يتكلم وهو ينظر للجانب الآخر. إن التعصب العنصري فن. إنه يخرج أقذر ما في النفس البشرية لكنه ينتقي الأبرع كذلك.

هذا هو مكتب المديرة.

يقع في نهاية الممر على اليمين. وهو مكتب صغير متواضع وعملي جدًّا. دقت الباب ودخلت. المديرة جالسة وراء مكتب وأمامها لافتة صغيرة كتب عليها «أنيتا ستيجوود».

امرأة رقيقة واهنة ودقيقة جدًّا، لكن عينيها واسعتان ذات تأثير كاسح، كأن هذا الجسد مجرد حامل للعينين لا أكثر. مثل كشافات المسرح العملاقة. عينان زرقاوان باردتان تريان كل شيء وتخمنان الباقي.

جالسة وأمامها كوب ورقي تفوح منه رائحة القهوة الزكية، وهناك بعض "الكرواسان".

ـ «جو مورن.. هل لكِ في بعض الكرواسان يا أمينة؟».

أمينة كانت جائعة، لكنها تفضل أن تعرف سبب الدعوة أولًا. ليس الحين حين الطعام.

ـ «إذن أرجو أن تجلسي».

جلست أمينة ونظرت للغرفة حولها. ضيقة لكنها مريحة، وعلى الجدران علقت عشرات الصور لمفكرين وعلماء نرويجيين، مع بعض الشهادات التي نالتها المدرسة.

قالت المديرة بصوت رفيع غرابي يليق بها:

ـ «ذات الشكوى تتكرر أكثر من مرة.. قد أنذرتك ثلاث مرات، وصدقيني لن تكون ثمة مرة رابعة».

رفعت أمينة حاجبيها في دهشة. تعرف تقريبًا ما سيُقال. لكنها لا تعرف كيف تدافع عن نفسها.

التهمة معروفة.. محاولة التلاعب بالناشئين ودس معلومات غير صحيحة في أذهانهم. عندما تتكلم عن فتح الأندلس الذي قام به العرب وتتحاشى أن تذكر كلمة «احتلال» قبلها، وهو ما يحرص عليه الغربيون، فلهذا معنى خطير.

عندما يسألها الطلاب عما إذا كانت تعتبر هذا احتلالًا فتتحاشى الإجابة، فإنها تلقي بالكثير من ظلال الشك حولها. هي تحاول دومًا ألا تدخل تلك الدهاليز المظلمة مثل الحروب الصليبية وإسرائيل... إلخ، حيث ينتظرها المستنطقون سائلين عما تعتقده، والصمت إجابة. لكن هناك من يجذبها لهناك دومًا. وهي لم تستطع بعد أن ترغم لسانها على قول ما لا تؤمن به. نعم.. الصمت إجابة.

المديرة تنظر لها بعينيها الثاقبتين وتقول:

ـ «تعرفين أنني أحبكِ يا أمينة.. أنتِ مكافحة وجادة ونشطة، وأعتقد أن الطلاب يحبونكِ.. لكني لا أقدر على مواجهة إعصار الغضب من أولياء الأمور».

مُعلمة عربية مسلمة في هذا المناخ النازي الذي يجتاح أوروبا. لا بد أنها تحت المجهر في كل ما تقول وتفعل، ولتكونن لحظة طردها من المدرسة هي أمتع لحظة لدى كثيرين.

ـ «تحملين احترامًا عميقًا لتاريخكِ.. تحملين في عنقكِ تراثًا

ثقيلًا من القناعات وحكايات الأمهات وقصائد الشعر.. لكن هذا التراث بالذات هو الشيء غير المرغوب هنا. نحن نطلب أن تصطبغي بلوننا وتكوني منا».

«قلتِ في الصف منذ شهر إن المسلمين زحفوا على الأندلس ليحرروها.. يحررونها من أي شيء؟». أمينة محتجّة بصوت مبحوح:

- «لم أقل هذا.. قلت إنه كان زحفًا حضاريًّا لا أكثر».

ثم قلبت المديرة بعض التقارير أمامها وقالت:

- «قلتِ إن الحروب الصليبية هي حروب توسعية تنكرت في ثوب حماية الصليب. الطالب في صفنا لا يفهم هذا، ولا يعرف لماذا يجب أن يكون العرب هم حكام أورشليم، كل الأديان تصارعت وذبح بعضها بعضًا في تلك البقعة لأن كل دين يعتقد أصحابه أنهم الأجدر بعطية الرب. لا أحد يقول لمراهقين مسيحيين إن أجدادهم حاربوا بدعوى الدين لكنهم كانوا منافقين».

- «لم أقل هذا يا سيدتي».

- «هناك دائمًا سطور لا نقولها يا صغيرتي لكن الجميع يسمعونها. الصمت قد يكون أبلغ وأعلى صوتًا».

الصمت يتكلم بفصاحة.

ثم واصلت تقليب ملف الاتهام وتوقفت أمام صفحة أخرى:

- «من الواضح تمامًا من آرائك أنكِ تعتبرين أورشليم عربية.. وكان أفضل لها أن تظل مع العرب».

تعرف أمينة أن هذه آراء لا تقال في مدرسة.. ربما يقبلونها في كتاب أو جريدة، لكن من الخطر أن تُقال هنا والآن.

سياسة الاعتذار هي الوسيلة الوحيدة حاليًا.. آسفة يا سيدتي..

لقد جرفني الحماس الوطني والعِرقي، لكني سأعرف كيف أسيطر على نفسي.. لقد تماديت ونسيت أين أنا ومتى.

«التعصب العِرقي لعبة خطرة».

عيناها تحولتا للون الرمادي في ظروف غير مفهومة. عينا هذه المرأة تتحولان من الأزرق إلى الرمادي عندما تكون حازمة أو تهدد، ثم تَسودّان في ظروف أخرى.

«أنا أرى العالم من منظور بانورامي. لهذا أكرر أن هذا تحذيري الأخير».

- «أعدكِ بأن أتبدل يا سيدتي.. طاق!».

يبدو أن كل اللغات الإسكندنافية تقول (طاق) للدلالة على الشكر.

هزت أمينة رأسها المفعم بالهموم والأفكار في أدب وغادرت المكان.

المطر ينهمر بالخارج في لطف.. يبلل أوراق المرج فتكتسي لونًا أخضر براقًا يريح العينين. معزوفة الشجن.

٢

هناك في بنزرت، تستعيد بعض الذكريات. ذكريات جافة محفوظة كأوراق شجر بين صفحات ذاكرتها. صور طيفية مبهمة.

البيت الجميل الأبيض ذو النافذة الزرقاء والأشجار التي تحتضنه.. انسجام الخضرة مع اللوز الأبيض. مذاق الكسكس وزيت الزيتون. والأب الذي يلبس الجلباب التونسي الجميل ويعتمر الطاقية الحمراء. الأم المنحنية دائمًا اللاهثة للأبد.. عندما كان اسم البطيخة هو «الدلاعة» قبل أن يصير «فانميلون» في ظروف غامضة.

لسبب ما لم تكن حياة سعيدة.. هي لا تذكر التفاصيل، لكنها تعرف أنه كانت هناك قوى طرد قوية، وتذكر أباها وهو يحمل مظروفًا سميكًا والعرق يغمر جبينه، ينهي إجراءات الهجرة.

ـ«لم يعد لنا مكان هنا.. أرض الله واسعة».

وكانت كطفلة تتخيل أن الله مالك أرض يملك مساحات هائلة، وهذه المساحات يمنحها للمطرودين من بلادهم. لم تفهم.. أخوها لم يفهم.. لكن الأب كان يعرف.

هذه بلاد جديدة.. بلاد باردة يتكلم أهلها لغة عجيبة. البلاد اسمها النرويج، والمدينة التي أقاموا فيها اسمها أوسلو. كانت طفلة ولم تفهم جيدًا أن هذه كانت آخر فرصة للهجرة، وأن النرويج أغلقت باب الهجرة منذ ذلك الحين. في الواقع فعلت أوروبا كلها ذلك.

عندما مات الأب في المستشفى، كان يعاني السرطان والمرارة والشوق للوطن.. يعاني القلق والذل.. وقال لها إنه يعرف أنهم أقرب لجسم غريب يتم لفظه حيثما كان، سواء زرعوا في تونس أو في شمال أوروبا.. إن النرويج تتحول إلى قوة طرد مُعادية يومًا بعد يوم.

أنت تشيخ عندما تشبه أباك.. أنت تبدأ في الموت عندما يموت أبوك.

وعرفت أمينة أن عليها أن تكمل رحلتها وحيدة مع أخيها في هذا العالم الفضائي الغريب.

* * *

البيت بيت صغير نظيف، تحيط به الأشجار الخضر كأنها تهدهده، والألوان الفريدة التي يمتزج فيها الأبيض الطبشوري بالأزرق في النوافذ والأبواب وخضرة الزروع.

طابع عربي أكيد.. لربما هو تونسي كذلك.. ثمة من احتمل تونس معه إلى هذه الأصقاع.

نفس قواعد اللوبي. مجتمع متكامل مغلق، وفي نهاية الحي سور من القرميد، وثمة باب خشبي صغير من الطراز الذي لا ينغلق ولا ينفتح. مثل أي لوبي في العالم هناك سبيل خلفي للفرار لو ادلهمت الأمور أكثر من اللازم. كل مجتمع مغلق يصاب بعقدة الماسادا اليهودية تلقائيًا.. الرعب من الحصار دون سبيل للهرب فالإبادة..

ـ «أمينة! كيف الحال؟».

ـ «باهي».

ـ «أمينة كيف الحال؟».

ـ «مزيان».

نسوة عربيات سمراوات البشرة من حولها. من جنسيات عربية مختلفة. كثيرات «بارشا».. كثيرات «جدًا».. كثيرات «أوي».. كثيرات «واجد».

أطفال يلعبون بالكرة وملامحهم تنطق بأنهم عرب طبعًا.

[illegible] في عصبية

ـ [illegible] يا عبد الرحمن.. أمس أضناني البحث عنك!».

لشد ما تندهش أمينة في كل مرة من التحول المفاجئ الذي يحدث لـ[illegible] كلما دخلت أو خرجت من هذا اللوبي. وثبة عبر المكان والزمان وطريقة التفكير. خارج هذا السور تفكر كامرأة عاملة نرويجية.. داخل السور تفكر كزوجة وأم عربية.. ليس اختلافًا في الطباع فقط، بل هو اختلاف زمني كذلك.

تشم رائحة العطور العربية ورائحة البخور.. رائحة التوابل العربية. هناك متجر صغير مفتوح يقف فيه رجل لبناني ذو شارب كث يبيع الشاورمة.. متجر صغير آخر مفتوح، وقد رصت أمام عتبته مجموعة من الآنية والأوعية الخزفية.. أكثر من طاجين وأكثر من برام. تماثيل صغيرة.. الجمل المحشو بالقش الذي لعب به كل طفل عربي في التاريخ. يمكنك أن ترى أن المحل يعلق الجلابيب وإيشاربات وحجاب النساء، فلا تستطيع الدخول من دون أن تدس أنفك في قطعة قماش حريرية معلقة.. هناك مجموعة من العصي الخشبية المحفورة بعناية في الأبنوس. هناك شطرنج أنيق من الخشب؛ كل قطعة في حجم قط صغير.

رائحة الطعام والتوابل تمتزج برائحة البخور والعطور والعَرق والأنفاس والأحلام والمخاوف. مزيج فريد يعلن أنك في الحي العربي من المدينة.

مسجد صغير أنيق عند الناصية، أبيض اللون، زخرف بعناية بـ[illegible] الزخرفة العربية المألوفة. ومن الباب برز رجل مُلتحٍ يضع [illegible] على رأسه ويلبس بدلة كاملة. من الواضح أنه من أصل

غربي لأن عينيه زرقاوان وشعره أشقر تمامًا، لكنه يضع كفيه على جانبي رأسه ويؤذن.. هكذا من دون مكبر صوت.

صلاة العصر.. غير أن المسجد لم ينعم بكثيرين من المصلين. الدين عندما يصير رمزًا للانتماء العِرقي أكثر منه طقوسًا سماوية. حتى من لا يؤمنون بالإسلام يشعرون بشيء من الراحة عندما يسمعون صوت الأذان معلنًا أنهم ينتمون للمعسكر ذاته. لم يكن الجميع مسلمين بالطبع، فهناك عدد لا بأس به من المسيحيين في الحي، وهم يمارسون عبادتهم في كنيسة بحجم حانوت ضيق، لأن معظمهم من الأورثوذوكس الذين تختلف عقيدتهم عن عقيدة أهل البلاد.

عامة كانت حياة المهجر والغربة وانتظار الأسوأ، هي العوامل الأهم التي أذابت ما بين الأديان من فوارق.. احترقت الطائفية في نيران القلق المشترك، وبهذا تحقق الحلم الذي راود المفكرين الليبراليين منذ مئات الأعوام، ولكنه تحقق بحكم الضرورة.

اتجهت أمينة للقصاب؛ وهو رجل يمني نحيل يلبس معطفًا أبيض ملوثًا بالدم، ويضع عمامة لا تتسق مع ثيابه ذات الطرز الحديثة، ومعه ابنه المراهق. هناك يجول بين جبال اللحم المعلقة حاملًا السكين والساطور.

بعض حساء الخضراوات وقِطع اللحم، ولربما أعدت بعض الكسكس بسرعة قبل أن يأتي شريف.. إنها تحب دورها كزوجة وأم، وتشعر أنها جمعت الحُسنيين.. تؤدي عملها جيدًا وتشق طريقها في غابة الحياة، وفي الآن ذاته ترعى سبل آل بيتها ولا تأكل خبز الكسل.

قال لها القصاب بصوت يكسوه البلغم:

- «هناك قطعة ممتازة من فخذ الدابة. أرسلها لي التركي اليوم».

- «أريد ثلاث قطع.. ليكن الوزن كيلوجرامًا أو أقل».
حمل السكين العملاقة واتجه نحو الفخذ المعلقة، وبدأ يقتطع شرائح، وفجأة سمعت الغلام المراهق يطقطق بلسانه، فهتف بها القصاب:
- «ادخلي المحل حالًا».
الفرملة العالية كأنها روح ديناصور يتعذب في سَقَر، وصوت صرير العجلات.
مرت السيارة على بعد نصف متر منها، لكنها كانت قد وثبت إلى داخل المحل. تعرف أنها ستراه.. يمضغ اللادن ويضحك في استمتاع.. يضغط على السرينة بكل قوته.
السلسلة التي تشبه الجنزير، والفتاة ذات الوشم الغارقة في عالم المخدرات. يمكنك لربع ثانية أن ترى هذا كله.. السيارة تبحر في الشارع كسمكة قرش، فيتواثب الجميع على البر مذعورين.
الشاب النرويجي طويل الشعر قاسي النظرات باردها، يضغط على أسنانه كمزيج من الاستهتار والجنون والفتاة تصفق في سرور.
عندما يغتذي المرء بذعر الآخرين وكراهيتهم.
غير أن الأمر لا يخلو من مخاطرة، فلو أنه دهم طفلًا فلن يجد الوقت الكافي ليتراجع بالسيارة ويفر.. وعندها هي نهايته قطعًا، والعاقبة؟ لن يفكر أحد في العاقبة وهم ينتزعون حنجرته بأسنانهم.. مزقوه ثم فكروا في الخطوة التالية.
لو تعطلت به السيارة لكانت كارثة أخرى حتى لو لم يدهم أحدًا.
إي ي ي ي! يمكنك سماع رائحة الكاوتشوك المحترق.. يمكن أن تشم الصرير العالي للفرامل.. هذه لحظات لا تدرك فيها الحواس معنى التخصص.

ينطلق حتى مدخل الشارع ثم يدور دورة جديدة، بينما تنهال عليه الشتائم النرويجية. لا جدوى منها.. هذا شخص صار يجد لذة ماسوشية غير مسبوقة في أن يتلقى السباب الغاضب. لا شك أنه يشعر بنشوة شبه جنسية وهو يرى الذعر والمقت.

ثم يدور دورة ثالثة ويخرج ذراعه من السيارة في حركة بذيئة معروفة، ثم تنطلق السيارة مغادِرة الجيتو.

- «هي المرة الثالثة».
- «الرابعة لهذا اليوم».
- «ابن الزانية يتصرف كطفل كبير.. لقد أحب اللعبة».
- «نتصرف كدجاج مذعور وهذا يروق له».
- «لو تعطلت به السيارة لمزقناه إربًا».

وقالت امرأة وهي تلوح بحجر ضخم:

- «في المرة القادمة لنكونن بانتظاره بالحجارة. ولأصوبن هذا الحجر على رأسه أو زجاج السيارة الأمامي. فلنر كيف يضحك بينما رأسه مهشم كبيضة».

لكن أمينة تعرف.

لا أحد سيفعل أي شيء.

إن وضعهم حرج في النرويج هذه الأيام.. حرج في أوروبا كلها.. ولو دهم الصبي عشرة منهم، ثم ضربوه فلن يتحدث العالم إلا عن المتوحشين القادمين من الصحراء ليفتكوا بأبنائنا.

«يا غريب.. كن أديبًا».. كذا كان أبوها يقول، والمعنى أن على الغريب أن يلتزم بأعلى درجات التهذيب والتسامح. لربما لدرجة التخاذل والجبن أحيانا. أبقِ رأسك منخفضًا فلا يطير.

* * *

تصعد بعض الدرجات. في حوض الزرع استزرعت بعض الريحان والنعناع. لماذا؟ لأنها وجدت رقعة خالية من العالم يمكن أن تملأها الخضرة.

قطة رمادية تنظر لها بشك. تصعد أمينة وسط رائحة المطهرات إلى الطابق الثالث حيث تعيش. تولج المفتاح في الباب وتنزع حذاءيها على المدخل كالعادة. لهاث.. منذ فترة اعتادت أن تلهث.

الشقة نظيفة مريحة، وفيها لمسات لا تخفى على أحد: سجادة صلاة مطوية على الأريكة. قطعة من خشب أرابيسك على الحائط.. رائحة بخور. على الجدار صور مقصوصة من مجلات لأم كلثوم وعبد الحليم حافظ. هناك صور عدة لقبة الصخرة التي يعتقد الناس أنها المسجد الأقصى. عندما تكون عربيًا في بلد أجنبي فأنت تصير عربيًا جدًا.. عربيًا أكثر من اللازم.

داعبت المكرمية المعلقة من السقف والتي تذكرها بالمشنقة، فراحت تتطوح.

عليها أن تبدأ بتقطيع الخضر وإعداد الحساء قبل أن تصل سميرة من المدرسة وشريف من العمل. انتابتها رجفة وهي تتذكر عجلات السيارة الشهوانية تعوي كذئب. لو كانت سميرة في الشارع وقتها فمن ستدهمه السيارة إذن؟ هذا محتوم.

شعور الذئب المحاصر.. الذئب الذي طاردته الكلاب حتى وجد نفسه في نقطة لا تراجع فيها عند شاطئ البحر.

الشعور الذي يداهمها يوميًا في ذات الوقت.

شريف.. علينا أن نرحل.. لا حياة لنا هنا. أنتِ تهذين.. لقد امتلكنا بيتًا وعملًا ولنا ابنة في المدرسة.. لقد بدأت الجذور تنمو وتثبت نفسها. لكنكِ بمجرد أن تنمو الجذور تتكلمين عن انتزاعها

والبحث عن موضع آخر. سوف نبقى هنا.. سوف نستمر مهما حدث، وفي النهاية نحن أفضل حالًا من كل التعساء الذين أغلقت أوروبا أبوابها دونهم.

شريف.. صرت مذعورة أرتجف فرقًا. المشي في الشارع يصير مخاطرة، وفي كل يوم أفكر في سميرة.. هل فعلتها اليوم؟ هل ظلت حية ولم تتلق ضربة أو تُمزّق ثيابها أو تُصفع؟ لقد صار خروجها في الشارع كابوسًا يوميًّا، ولو خيرت لربطت كاحلها في رجل الفراش.

شريف.. أنت غارق في عملك ولا تدرك ما أنا فيه من قلق وذعر.

صوت خطوات ثم تسمع المفتاح يولج في الباب.

على الباب تنزع سميرة حذاءيها وهي تلهث. لماذا تكون أقدام المراهقين كريهة الرائحة؟ لعلها الهرمونات. فيما عدا رائحة القدمين فسميرة حسناء صغيرة ناضجة الأنوثة.. ناضجة الأنوثة للأسف. هذا هم آخر يضاف لهموم أمينة. طوبى للآباء الذين تثير سحنات بناتهم نفور الجميع.. طوبى لأهل القبيحات. يمكن لأمينة فهم لماذا كانت الأمهات السوفيتيات يلطخن وجوه بناتهن بالسناج والروث قبل أن يقتحم الألمان بيوتهن.

كانت سميرة تنظر لها بدهشة.

- «ما بالكِ مندهشة يا ماما؟».

إذن لم تكن سميرة هي من ترمقها بدهشة.. هي التي كانت ترمق ابنتها بدهشة. أنت تعرف كيف يبدأ تبادل النظرات.

سميرة ليست سعيدة.. وجهها يشي بالمضايقات والتحرش والمضايقات والسخرية واللدغات والضحكات التحتية. الفتاة العربية الحسناء في الصف في بلد أدرك أنه عنصري فجأة.. كذا

يفعل كل أهل الشمال بأهل الجنوب في كل صوب. النتيجة هي المزيد من الانعزال.

ـ «من الذي ضايقك؟».

ـ «أنسلن.. كريستيان.. كلهم».

تتذكر أمينة كلمات «هتلر» في كتاب كفاحي. قال الدكتاتور العنصري إنه رأى رجلًا يهوديًا ألمانيًا فخطر له أنه ليس ألمانيًا على الإطلاق.. إنه ينتمي لجنس خاص ودولة واحدة هي اليهودية ولها ولاؤه الأول. يمكن القول إن النرويجيين هنا ينظرون للعرب ذات النظرة.

هل العرب هنا كذلك فعلًا؟ هل انتماؤهم للعروبة أقوى من انتمائهم للدول التي يعيشون فيها؟ وهل المتطرفون الغربيون على حق أم هم واهمون؟

السؤال الثاني هو: منذ متى كانت النرويج تفرق بين الجنسيات؟ لقد ذاب العرب في هذه الدول منذ زمن.. لهم تراثهم لكنهم في النهاية مواطنون لهم حقوق وعليهم واجبات.

أنا لا أعرف، على الأرجح أمينة لا تعرف كذلك.

بركان جاواتامي قد بدأ يتدفق بالحمم كأنه خراج مفتوح ينز منه الصديد.. لونه الأحمر جعله أقرب للخراج فعلًا، وكأن يدًا كونية ستمتد لتعتصره أكثر.. تفرغه مما فيه ثم تضمد الجرح وتضع فيه فتيلًا يمتص ما بقي فيه..

بركان جاواتامي يعلن التمرد النهائي.

تقلب الخضر ثم تبدأ في تشويح قطعة اللحم، ثم تخرج للصالة لتجمع ثياب سميرة التي نزعتها في كل مكان كأنها لا تجد الصبر الكافي لانتظار دخول غرفتها. كل المراهقين مهملون مستهترون.

لكنهم أعزاء.. أعزاء جدًا.. ولسوف يكون من الصعب أن تفقدها أو تراها تتعرض للأذى.

بعض من زيت الزيتون فوق الخضر.. باهظ الثمن هنا، لكنه يشبه الأكسجين والماء لكل من يأتي من المغرب العربي. هذا مكون رئيس من مكونات خلاياه.

ـ شريف.. أنت تأخرت.

في هذا المناخ العنصري المخيف، ليس من حقك أن تتأخر. في عصر الخناقين وفرق الفداوية قالوا إن تأخر الرجل في العودة لداره حتى العصر يعني أنه على الأرجح مات، ويمكن لأهله أن يتلقوا العزاء فيه! أنت تأخرت يا شريف.. لكني لن أتلقى العزاء فيك.. ليس بعد.

كأنه سمع نداءها، سمعت من يفتح الباب.

ظهر شريف في معطف جلدي وهو يحمل بعض البقالة.. يلهث وأنفه بارد. يمكنك أن تدرك أن أنفه بارد دون أن تلمسه.. ماذا عن ملامح شريف؟ هو رجل ذو ملامح عربية وكفى، فأنت لن تفيد من معرفة شكل شاربه وسُمك حواجبه والسن الناقصة في الصف العلوي من أسنانه.

وضع ما يحمله على المنضدة ثم هرع نحوها فلثم جبينها.. يقول الكلمة الأبدية:

ـ «أنا أموت جوعًا.. هلا تناولنا الغداء؟».

ثم تشمم الجو وبدت عليه خيبة الأمل:

ـ «قلتِ إنكِ ستعدين بعض الكسكس بالحوت.. لقد اشتريت الحوت بسعر الذهب كما تعرفين. لو تلفَ فلن أسامحك».

وبدأ ينزع ثيابه في المطبخ هذه المرة. الكل ينزع ثيابه في أي مكان. هذه موضة العصر.

- «هل كان يومك طيبًا؟».

قالت في لا مبالاة:

- «رائع.. لوم من المديرة وتهديد بالطرد.. ثم سيارة شباب مستهترين كادت تدهمني، ثم سميرة تشكو من مضايقات.. إنه الروتين المعتاد».

تمطى بفانلته الداخلية فبدا كأنه تقليد كاريكاتوري ساخر لطرزان، وقال ضاحكًا:

- «رأيت أيامًا أسوأ».

جلس إلى المائدة وداعب شعر سميرة.. ثم نقل لطبقه شريحة لحم. وانتظر حتى جلست أمينة ثم راح يأكل بجشع.

- «علينا أن نتحمل ونتماسك.. نحن أقلية في بيئة معادية. وجودنا هش وولاؤنا مشكوك فيه.. ليس هذا أفضل وقت لافتعال مشاكل».

- «لا أدري كيف يكون عدم التحمل».

قال في فخر وهو يلوك قطعة لحم:

- «هم م.. الأمر بسيط.. أنا مثلًا عبقري كمبيوتر في شركتي.. إنهم لا يَقدرون على الاستغناء عني.. المدير يعرف أهميتي جيدًا. أنت معلمة ممتازة.. تصوري أنك تُدرسين النرويجية لطلبة نرويجيين.. نحن متميزون.. نحن نتألق في كل مكان نوضع فيه».

الأقليات تتميز على كل حال، لأنها تحاول أن تخرج أفضل ما فيها وأقوى ما فيها لتواجه المحيط المعادي بالخارج. لماذا كان أكثر علماء القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية يهودًا؟ لماذا سيطر اليهود على السينما الأمريكية؟ لماذا سيطروا على اقتصاد العالم؟

دق جرس الباب فقامت من على مائدة الغداء واتجهت لتفتح.. القادم كان مصطفى.. شاب أسمر في الثلاثين، وهو قصير القامة يضع طاقية بيضاء صغيرة على رأسه ويضحك كاشفًا عن أسنان بيض ناصعة. وجه عربي بشدة.. هو من الوجوه المألوفة الدائمة هنا مع زوجته زهرة.. كأنه كان هناك دومًا.

تنحنح فجاء صوت شريف من على مائدة الطعام يصيح بفم ممتلئ:

ـ «تعال يا مصطفى».

دخل الفتى مترددًا وسرعان ما وجد نفسه يجلس أمام طبق مملوء بالطعام.. إن العادات العربية مستمرة في كل مكان، وما زالت دماء حاتم الطائي تجري في العروق.

ـ «هلم. كُل».

في ارتباك بدأ مصطفى يأكل بينما سأله شريف:

ـ «هل كتبت أغنية جديدة؟».

ـ «لا.. المناخ لا يلائم الشعر ولا الغناء. نحن ندافع عن القيثار ولا نعزف ألحانًا».

قالها مصطفى ثم أبدى ملاحظة سريعة:

ـ «داجفين يتكلم الآن».

بدا الاهتمام على وجه شريف، ثم استدار إلى أمينة ليطلب منها فتح جهاز التلفزيون.

ليس الوقت مناسبًا لهذا الخنزير العنصري، فهو قمين بأن يفسد شهية الجميع، دعك من أن اليوم لم يكن مبهجًا.

فتحت أمينة التلفزيون فظهر «داجفين» يخطب الآن فعلًا.. لمزيد من التوضيح هو رجل نرويجي في الأربعين من العمر يتمتع بكاريزما

هائلة، وله وجه شيطاني لا يبعث الراحة في النفس، يقف على منصة وحوله اللافتات بينما مجموعة من القوم المتعصبين يلوحون بأعلام ولافتات أخرى. كأنه حفل انتخابي.. العينان اللامعتان الآسرتان اللتان تميزان الديماجوج.. لا بد أنه ينوم من حوله مغناطيسيًا. دعك من أن الإنسان بطبعه شرير، ومن السهل أن تنفخ في لهب الكراهية ومقت الآخر.. كافح الأنبياء كي يُعلموا الناس ألا فارق بين رجل وآخر. تخيل الصراع الذي بذله موسى كي يجعل البشر يطبقون الوصايا العشر.. عشر وصايا لا أكثر لكن البشر عجزوا عن تنفيذها عبر التاريخ ومنذ قرون لا حصر لها، لكنهم يلبون أي دعوة للكراهية بسرعة البرق مهللين.

بدا واضحًا أن المكان هو «حديقة فروجنر». تماثيل النحات العظيم «جوستاف فيجلاند» تتناثر حول المحتشدين، ومن الغريب أن هذه التماثيل تصلح لتجريد الأمور إلى حقائق الحياة ذاتها.. القوة. العنف.. الجنس.. السقم.. الوهن.. بدا المتظاهرون كتماثيل لا تتجزأ من هذا المشهد.

اللافتات تتطاير في كل صوب وعليها العبارة المخيفة: «Død til arabere». «الموت للعرب»، وعبارة «أيها العرب.. عودوا لبلادكم».

تنظر لزوجها فتجده يتابع الكلام بلا تعبير على وجهه.. مصطفى أبطأ في سرعة المضغ كناية عن التوتر.. سميرة مذعورة متسعة العينين كأن هذا الحشد جاء من أجلها هي. شمت رائحة غاز بطن فأدركت أن بطن أحد الجالسين الثلاثة لم تتحمل التوتر.. لن تسأل مَن؛ فهذا سخف أطفال.

تعالى التصفيق بينما هذا الخنزير الأربعيني الصفيق الوسيم على الشاشة يصيح على طريقة خطابات «هتلر»:

- «هكذا يتخلل العرب كل شيء هنا، كما يتخلل الصدأ أجزاء المعدن الصقيل الممتاز.. توطئة لأن ينهار كل شيء. تدرس في المدرسة على يد معلم عربي يلوث عقلك.. تشتري الطعام من بقال عربي يُسممك.. تتداوى عند طبيب عربي يقتلك.. الاقتصاد يسيطر عليه العرب. أنا أفتش عن الإسكندنافيين.. غزاة الشمال.. أبناء أودين. فلا أجد.. ذهب «أنفريد» و«جاسبار» و«أولاف» وجاء أحمد ومحمد وكريم. هكذا صارت أوروبا كالصخرة الهشة تنتظر طرقة واحدة تهوي عليها».

توقعت أن يمد يده بعلامة هايل هتلر أو يصيح «ألمانيا فوق الجميع». الحقيقة أنه كان كاريزميًّا ديماجوجيًا كما قلنا، وكان أداؤه يتصاعد بلا توقف.. يسخن كما يقول المسرحيون.. كريشندو..

تعالت الصيحات الغاضبة فصاح بطبقة أعلى:

- «هكذا تتداعى حضارتكم.. وهكذا يدمرون تراثكم.. وهكذا سيأتي اليوم الذي يستعبدون فيه أطفالكم ونساءكم، لأنهم في الحقيقة يتظاهرون بأنهم اندمجوا في المجتمع الغربي.. الحقيقة هي أنهم يكرهونكم ويتحينون اللحظة المناسبة ليفتكوا بكم... إن العربي الجيد الوحيد هو...».

توقعت أن يقول: هو العربي الميت على طريقة رعاة البقر، لكنه كان أذكى من أن يضع نفسه بين أنياب المحامين، لذا قال:

- «هو العربي الذي يحمل حقيبته ويغادر البلاد».

يا لقرحتي التي تتحرك! تبًا! لم يُخلق المضطهدون عنصريًا ليصابوا بالقرحة.

تعالت الصيحات الغاضبة المتحمسة ولوحوا بالأعلام.. وبرغم أنهم تمالكوا أنفسهم نوعًا فقد رأت بوضوح وسمعت لافتة «الموت للعرب».

هذا بلد مقبل على عملية تطهير عرقي بلا مراء.

٣

«العنف لغة الكلام الوحيدة لمن لا عقل له ولا لسان ولا قلب».

ألبير سعادة

* * *

ثمة حادثان يستأهلان التعليق:

تغادر المدرسة وتمشي في الشارع البارد قاصدة محطة الحافلات. المدرسة في حي كامبن الشرقي. على بُعد كيلومتر واحد يوجد متحف إدوارد مونش صاحب لوحة الصرخة الشهيرة الذي لم تزره قط.

رجل مسن ذو معطف يجلس في وضع مسترخٍ على مقعد وهو يطالع جريدة، وقد اكتست كتفاه بطبقة رقيقة من الجليد، وثمة امرأة تدس زجاجة حليب بين شفتَي رضيع لا ترى وجهه لأنه مدثر تمامًا. رجل شرطة يقف على الجانب الآخر وهو يكلم طفلة.. واضح أنه لطيف جدًّا.

دقات جرس كنيسة بعيدة، فينتفض قلبها شاعرًا بنشوة السلام.. لربما هو عالم متوتر لكنه هادئ.

واصلت المشي، هنا رأت خمسة من الشباب يمشون في الاتجاه المعاكس نحوها.. أطرقت برأسها وانتحت جانبًا لتسمح لهم بالعبور وتسمح لنفسها بالشيء ذاته. لكنها فوجئت بأنهم يوزعون أنفسهم بحيث يعترضون طريقها.. عادت تكرر اتجاهًا آخر، لكن خمسة فتيان عدد كافٍ جدًّا كي يغلق الطريق أمام أي شخص.

نظرت للخلف وقررت أن تعود أدراجها لكنها وجدت أن واحدًا منهم صار خلفها.

الآن ترى الوجوه القاسية المتلذذة بالسادية، وتلمح الاحتقار في العيون.

الحجاب! العلامة التي لا تنحخص حتى إن لم تخنها ملامحها العربية.. لهذا طلب منها شريف مرارًا أن تتخلى عن الحجاب. لكنها كانت تدرك أن عينيها السوداوين ووجهها الأسمر هم أعلى صوتًا من ألف حجاب.

كلهم يحملون علامة معينة حول الساعد. يعرفها العرب جيدًا. إنها العقال العربي وقد تم عقده بطريقة تذكرك بالمشنقة. هذه هي وسيلة التعارف بينهم وتشي بما يحلمون به. كل المتعصبين كارهي العرب يحملون هذه العصابة نازية الطابع حول سواعدهم.

هذه المرة لم تواصل الهرب.. وقفت مكانها وهي تنظر للأرض.

هناك من يقف خلفها.. يعبث في أطراف الحجاب ويلهث.. تشعر بأنفاسه.

ثم دنا واحد آخر من الأمام وفتح معطفها ومد كفه المفتوحةَ وراح يجمش. الألم. المهانة!

لكنها تدرك أن الموقف لم يعد يتحمل الغضب وعبارات من نوع: كيف تسمح لنفسك؟ نحن في عملية تحرش علني ولو كان الشارع خاليًا لصارت عملية اغتصاب كاملة. مدت يدها الراجفة وأبعدت أنامله عن ثديها وهمست بشيء على غرار: «من فضلك».

ثم تذكرت.

على الجانب الآخر يقف رجل الشرطة.. لكنه يقف بالمعنى الحرفي للكلمة. يدس يديه في جيبيه ويبتسم ابتسامة غامضة ويتسلى بقراءة لافتة معلقة. يرى كل شيء بلا شك ويفضل التجاهل. أتمنى لكم التوفيق في الحفل يا شباب.

الشيخ ألقى نظرة سريعة ثم واصل قراءة الجريدة، والمرأة واصلت إطعام طفلها. لا تعرف إن كان هذا عن مشاركة فعلية في الجريمة أم عن خوف من سطوة هؤلاء الرعاع. لكنها تعرف يقينًا أن رجل الشرطة متواطئ بالكامل.

الآن كان من يقف خلفها يتحسس ردفيها، وقد أوشك على فك أطراف الحجاب. لو صرخت وركلته وركضت فلسوف يلحقون بها. هذه المرة لن يتورعوا عن تجريدها من الثياب في الشارع.

«من فضلك.. لا».

قالتها بصوت لاهث.. فقال واحد ثالث:

ـ «نساؤهم حارّات الدماء. لا بد أن دمها يغلي. هل ترى تلك النظرة؟».

الموقف كئيب لزج.. لا تدرك كيف ينتهي. كابوس لا تعرف كيف تفيق منه. وفي سرها دعت الله ألا تتعرض سميرة لموقف مماثل. رباه. لو كان ما أمر به ثمنًا حتى لا تمر سميرة بتجربة مماثلة، فليحدث لي أي شيء.

راحت في صمت واستشهاد تقبل ما يفعلون من تحرش، متوقعة أنهم سيفقدون حماستهم ويملون بعد قليل. دعك من أن انعدام المقاومة يفقد الطرف الآخر دافع العنف. سل عن هذا أي متظاهر يعرف أن جلوسه القرفصاء وتغطية وجهه غالبًا ما يطفئان حماسة قوات الشرطة المهاجمة.

لكن الموقف طال.

طال إلى أن سمعت سبابًا. نظرت للخلف فرأت مراهقَين يحملان حفنة من الأحجار وكانا يسددانها ببراعة إلى المهاجمين.. كانا يقذفان على الرءوس بلا تحفظ أو تردد.

- «ابتعد أيها الصبي.. هذا موشح بالغين».

قائل هذا تلقى حجرا جوار جبينه، لكنها لم تعرف إن كان قد أدماه أم لا.

ثم استطاعت أن تفهم أكثر.. هذان هما «أولاف» و«جاسبار» من تلاميذها في الصف. «أولاف» بسالفيه الكثين وشعره المنكوش ونمسة الهيبيز الواضحة. كان وجهه قد تقلص فيما يشبه السعار. وكان يقذف الحجارة كشيطان. وحاول أحد المهاجمين أن يمسكه من سترته، لكنه ألقمه حجرًا في جبهته. «أولاف» يبرهن عن حبه لها بأغرب الطرق.

كاد الموقف يشتعل عندما ظهر رجل الشرطة قادمًا من الجانب الآخر وهو يلوح بهراوته.

«أنتم هناك».

لقد قرر أخيرًا أن يلعب دور رجل الشرطة. في النهاية نحن نتحدث عن مواطنين نرويجيين مراهقين، وقد أدرك أن التجاهل لم يعد ممكنًا. هنا أطلق المتحرشون سيقانهم للريح مبتعدين وهم يطلقون السباب.

نظرت له في عينه وهي تلملم ثيابها المبعثرة، وكرامتها التي تناثرت في كل صوب. الحاجز الرقيق بين هيبة الأنثى وكبريائها وبين هذا المشهد.

- «هل تريدين تحرير محضر؟».

لم ترد.

فقط تبادلت نظرة طويلة مع «أولاف» الذي كان يلهث. لم يبد في عينيه أنه يتوقع منها أي شيء. كان غاضبًا فحسب. وقالت لنفسها

إن لديها نباتات نضرة في الصف بكل تأكيد، لكن كم من الوقت ستتحمل قبل أن ينتقل لها الفيروس المخيف؟

* * *

قصة السيارة والمعتدين لم تكن غريبة. لقد وقعت بسيناريوهات مختلفة في عدة أماكن، لكننا نتحدث عن المشهد من حيث وجهة نظر أمينة. الموت في كل مكان. لكن موتك يختلف حتمًا. لهذا ظلت التجربة عالقة بذهنها طويلاً.

السيارة - كما قلنا - التي دخلت الجيتو بدت كأنها سيارة نقل أثاث.

ولنحفظة نظر العرب في دهشة إلى العربة.. لماذا تتوقف عند مدخل الحي كأنها تتعمد أن تسده؟

ثم رأوا الرجال يثبون منها.

رجال ملثمون هم.. أقوياء البدن من الذين ازدانت سواعدهم بعلامات الوشم. الوشم لا يضخم العضلات لكنه برغم هذا يضخمها بخداع نظري. يحملون الهراوات وبعضهم يحمل جراكن البنزين، وبعضهم يلوح بشيء تبين بعد قليل أنه شعلات. صارت كذلك ببعض أعواد الثقاب.

للرجل الملثم نوع معين من الهيبة والرعب، لأنه يجعل الوجه بلا مشاعر. ليس الأمر لإخفاء الهوية فقط، بل له أثر نفسي أكيد يرهب الخصوم..أنت تواجه عينين وليس كائنًا بشريًا.

صرخ الناس بينما اندفع الملثمون في كل مكان.

كراش.. هوت عصا على نافذة متجر لأزياء المحجبات، ثم اندفعت شعلة إلى الداخل فتصاعد الدخان الأسود مع النار.

عربة تشري انقلبت على الأرض فتكدس الأرز وتلوت المكرونه كالديدان، ولما حاول صاحب العربة الدفاع هوت عليه ضربة قوية من هراوة.. هل هذا دم أم صلصة؟ يصعب أن نقطع يقينًا.. صلصة تتجلط أو دم حريف المذاق هو.

شعلة تهوي فوق مخبز صغير.

الرجال يسكبون البنزين حول المطاعم. ثم يشعلون النار فيتصاعد ستار من اللهب يحرق كل شيء.. جريمة كراهية بكل تفاصيلها. أنت تعرف هذا.

شاب عربي متحمس التقط مشعلًا وجرى ليلقيه داخل سيارة الأثاث، وبالفعل اندلعت النيران من الداخل، لكن أحد المهاجمين أسقطه أرضًا وهوى عليه ركلًا.

العنف.

العنف.

العنف.

عندما تتحرر القوى الشيطانية التي كان كبحها هو ثمن التحضر. عندما تتلف فرامل التقدم وكبح الذات.. عندما يتحرر رجل الكهف الراغب في القتل والذبح. عندها لا فرصة للضعفاء من أي نوع.

طارت شعلة لتسقط في بيت ذي نافذة مفتوحة.

كانت أمينة قد أغلقت باب الشقة عليها مع سميرة. وبرغمها ابتسمت لأنها تذكرت مشهدًا مماثلًا لـ«جودي فوستر» في فيلم صار قديمًا؛ اسمه «غرفة الهلع».

سميرة ترتجف رعبًا وتتمسك بأمها لا تريد تركها. ماما، لماذا يفعلون ذلك؟ خوف ابنتك يخيفك أنت نفسك.. شريف لم يكن هنا.. كان في شركة الكمبيوتر.. من الأفضل ألا يظهر الآن.. لن يمر

الأمر بسلام.. كان سيجد من واجبه أن يلتحم، ولعل هذا كان يعني مصرعه.. فليبق حيث هو.

لحسن الحظ أن الشقة في الدور الثالث.. لن يقتحموها ما دام الباب موصدًا.. لن يصعدوا في الدرج لاقتحام الشقق.. هرعت إلى الهاتف وطلبت الشرطة.. هناك ترد الشرطة على الفور فلا تمضي يومك في محاولات فاشلة. جاء صوت كسول سأل عما هنالك فصرخت:

ـ «هنا شارع هاليدار.. نعم.. الحي العربي. هناك مجموعة من البلطجية يهاجمون ويحرقون كل شيء . أنا أدعى أمينة. نعم.. أمينة بوزيد.. هلم من فضلك قبل أن نموت جميعًا».

ووضعت السماعة وهي تتمنى لو يركبون صواريخ نفاثة لينقذوا الموقف.. بالتأكيد ليس بلاغها هو الوحيد. لكن لعله الأخير.

تسمع صوت الصراخ في الشارع.. تقترب من النافذة وتنظر في حذر فترى سيارات محترقة.. محال محطمة.. أشخاص سقطوا على الأسفلت.

من موضع ما ظهر أحد الجيران. كان يحمل شيئًا في يده.. باو باو!!

هذا مسدس.. يا لك من مجنون! أنت تعطيهم الذريعة الكاملة لذبحنا.

تكوم اثنان من المهاجمين على الأرض يتلويان.. بينما دس العربي المسدس في خصره وانطلق يجري لنهاية الشارع، ومن خلفه انطلق ثلاثة من الملثمين.

كانت سيارة الأثاث تحترق بلا شك.. الفتى العربي آذاها حقًا بتلك الشعلة التي ألقاها فيها، ويبدو أن السائق أدرك أنه لا جدوى

من إطفاء الحريق فاندفع بالسيارة المشتعلة ليقتحم مطعم الشاورمة اللبناني الطابع.. وكان التصادم مروعًا وامتزجت كتلة الحديد المشتعل بالجدران.. وتساقطت الشعلات في كل مكان.. لكن السائق وثب قبل التصادم بالطبع فهو لم يرغب في الانتحار.

يا للنيران! الوحش المفترس الذي تستحيل السيطرة عليه.. يمزق كل الأغلال ويهشم كل الأقفاص.

لا تعرف متى ولا كيف فوجئت بزجاج النافذة يتهشم.

على الأرض سقطت زجاجة مشتعلة لتتحطم.. مولوتوف.. هدية الشيطان لمن يريدون أن يسكروا معه في سقر. الاختراع اللعين الذي يحمل اسم وزير الخارجية السوفيتي على سبيل التهكم، والسائل ينسكب على البساط ليبلله ثم تسري فيه النار خضراء في البداية وترتفع.

خلال لحظة كان الكابوس قد تحقق بالكامل.

غرفة المعيشة تشتعل كلها.

صراخ سميرة يحطم الأعصاب.

جرت لتمسك بيدها ثم جرتها إلى الأرض لتزحف هناك حيث يكون الأكسجين نقيًا، ثم هرعت إلى المطبخ لتحضر علبة السائل الذي يطفئ الحريق.. عادت وصوبته على اللهب.. لا جدوى.. هذه العلبة في حجم علبة المبيد الحشري ولا تصلح بتاتًا لهذا الحجم من الحرائق التي لا تمزح.

هكذا ألقت العلبة في قنوط وركضت إلى باب الشقة وجرت المراهقة الهستيرية من يدها.

لا وقت للهستيريا الآن.. فيما بعد سيكون هناك وقت كافٍ للهستيريا والبكاء، أما الآن فعليها أن تكون حازمة كجنرال في الجيش.

لا تأتِ يا شريف.. لا تكن أحمق أرجوك.

فتحت الباب.. هنا سمعت صوت خطوات على السلم وكلامًا بالنرويجية.

الأوغاد دخلوا البناية.

ألقت نظرة حذرة عبر بئر السلم الحلزوني، هنا سمعت صوت صرخة.. رأت الجسد يهوي من علٍ بسرعة ليرتطم برخام الطابق السفلي.

هذا هو الذي أطلق الرصاص.. لقد هرب إلى هذه البناية لكنهم ظفروا به وألقوا به في بئر السلم. لا بد أن مسدسه خلا من الرصاص.. لقد تلقى عقابه.

لا تأتِ يا شريف.. لا تكن أحمق أرجوك..

المشكلة الآن هي أن الشقة تحترق، وعليها أن تهبط في الدرج.. والأوغاد على نفس الدرج.

لا تأتِ يا شريف.. لا تكن أحمق أرجوك.

لم تعرف ما تفعله فاحتضنت سميرة أكثر وجاء دورها لتبكي.. من خلفها تحترق الشقة ومن أمامها الأوغاد، على طريقة طارق بن زياد الذي أحرق سفنه (وهي قصة لم تثبت صحتها قط).

هنا ارتطمت بكتف رجل فمزقته بأسنانها وأنشبت أظفارها في لحم وجهه.

هنا سمعته يقول:

ـ «لت.. نت... اهدئي».

فلما رفعت وجهها اكتشفت أن هذا رجل شرطة. لقد جاءوا إذن.. وجاءوا بسرعة البرق.. وسمعت صوت سرينة سيارات الإطفاء.. أمامهم عمل كثير بالفعل.

عندما نزلت إلى الشارع ممسكة بكف ابنتها أخيرًا وسط النيران والدماء ومياه الإطفاء التي أغرقت الشارع.. والجثث الملقاة التي تنتظر سيارات الإسعاف.

عندما رأت هذا كله أدركت حجم الكارثة التي حدثت.

لم يسبب المهاجمون هذا كله. سبّبه التعصب الذي خلقه أمثال «داجفين».. الحرب التي ولدت من رحم العدم، لكنها ـ ككل الحروب ـ تبدأ بسهولة وتنتهي بعسر.. لا تنتهي أبدًا.

«داجفين» هو القاتل.. كما أن «هتلر» مسئول عن موت كل روسي وبيلاروسي ويهودي.

عرفت أمينة أن مشكلتها في هذا العالم قريبة جدًّا من مشكلة اليهود في ألمانيا النازية. لن ينصرم وقت طويل قبل أن تأتي ليلة السكاكين الطويلة أو ليلة الزجاج المكسور، وهما ليلتان شهيرتان في تاريخ النازية عندما راحت الجماهير الغاضبة تفترس اليهود... لن يمر وقت طويل قبل أن تُشنق بأسلاك البيانو على عمود نور في الشارع الرئيس. يتدلى جسدها فوق الدخان المتصاعد من كومة كتب عربية.

—

في الولايات

١

«احمل أحلامك وذكرياتك في جعبة خلف ظهرك. امضِ في العالم. اغرسها حيثما أردت.. مرحبًا بك في وطنك الجديد».

راغب شكري
(من كتاب «البحث عن وطن» - الطبعة الرابعة)

* * *

لم يكن «جوناثان إيرهارت» يهوديًّا لو أوحى لك الاسم بهذا.

كان أبوه «آرثر» جنديًّا أمريكيًّا من أسرة ريفية في الجنوب، وكان فخورًا بالعضلات البارزة في صدره وعلى ساعده.. لولا الجيش لما صارت له هذه العضلات.

كان الأب في ذلك الوقت ساذجًا، لم تكتمل نظرته للحياة. أقرب إلى الرغيف المصنوع من العجين الذي يُعدّ ليدخل الفرن.. تنتظره لحظات قاسية بالداخل في ظروف أقرب للجحيم، لكنه سيخرج من الفرن وقد صار رغيفًا ناضجًا شهي الرائحة تتقلص له أمعاء المتخمين.

الفرن الذي كان ينتظره هو معسكر «أوشفيتز».

لقد خاض صراعات مروعة وتعرض للموت ألف مرة، ورأى ألف رفيق أو «بال - Pal» ينزف حتى الموت أو يقول كلمة ثم يتناثر رأسه.. مرت ألف دبابة نازية جوار قدمه.. حلّقت ألف طائرة نازية من طراز ميسير شميت فوق رأسه.

كان قد عقد معاهدة مع الموت: أنت لن تؤذيني.. سوف أعود لأهلي حيًا.. ولن أذكرك بسوء لأحد. لن أصف للناس قذارتك وبشاعتك وساديتك. لقد التزم الموت بجانبه من الصفقة حتى اللحظة، وهو كذلك التزم.

لكنه عندما تم تحرير المعسكر النازي، ورأى صف الجنود الألمان بمعاطفهم المميزة يخرجون وقد وضعوا أيديهم فوق الرءوس، وقد فقدوا خوذاتهم جميعًا، لم يبدوا له خطرين إلى هذا الحد.. هم أقرب إلى صبية اتسخوا بالوحل وخدشوا جلودهم.

مشى بين الصفوف والسيجارة تتدلى على جانب فمه بتلك الطريقة التي اعتادها من الجنود الأشداء. ثم رأى «هاردي» زميله القادم من تكساس.. كان في حال سيئة كأنه مصاب بصدمة عصبية. قال له «هاردي» وهو يرتجف:

ـ «هناك الكثير من القذارة بالداخل.. ادخل وخذ حاجتك».

لم يفهم. اجتاز السلك الشائك ومشى عبر مساحة فسيحة يتصاعد منها الدخان، حتى رأى الأقفاص.

لم يخطر بباله قط أن الإنسان يمكن أن يتدهور لهذا الحد ويظل حيًّا. صحيح أن هؤلاء اليهود لم يكونوا أحياء بالمعنى الدقيق للكلمة، لكن عيونهم اللامعة التي لا تكف عن الحركة في المحجرين كانت كافية.

الرائحة! يا للرائحة! هل هناك وحوش هنا؟

المنامات المخططة بالطول.. الهزال الذي لا يوصف حتى ليوشك ظهرك أن يكون بطنك.. يمكنك أن تتحسس البنكرياس وتلدغه بأناملك. حتى اللحى غير نامية، فقد انتهت الهرمونات في دمهم.. فقط يقفون على الجانب الآخر من السلك يرمقونك بلا فرح ولا حزن ولا اكتراث. لقد قضى الحرمان على عواطفهم.

كان ما رآه مهولًا، والأشنع هو بقايا العظام.. عظام معظمها لأطفال.

ما السبب؟ ما الذي اقترفه هؤلاء؟

هناك جريمة شنعاء تستأهل أعنف العذاب في هذا العالم، وهي جريمة أن تكون مختلفًا. البطة السوداء القبيحة. لم تخطر له الفكرة من قبل لكنه الآن بدأ يفهمها وبدأت تثير هلعه.

راح يردد من خلف السيجارة المتدلية:

ـ «أولاد الزنا. أولاد الزنا».

الإنسان شر.. لا شك في هذا. كل البلهاء معدومي الخبرة الذين يتكلمون عن الجوهر الطيب للإنسان.. فليخرسوا من فضلهم. فليخوضوا حربًا كالتي خاضها ثم يتكلموا عن الجوهر. الإنسان شر، وجوهره ليس سوى قطعة من الغائط كريه الرائحة.

من الصعب أن تصدق أن يفعل إنسان هذا بإنسان آخر.

بعد شهرين حدث تبادل لإطلاق النار مع بعض الألمان. سقط ثلاثة موتى، أما الرابع فقد سقط يتلوى على الأرض. عندما دنا منه في حذر مع صاحبه أدرك أنه تلقى طلقة في حنجرته. كان الألماني يجاهد كي يجد نفَسًا من الهواء عبر حنجرته المغلقة. كان يقبض على الغبار ويركل الأرض عاجزًا عن النهوض.

قال «آرثر» وهو يرمق المشهد عاجزًا:

ـ «لا بد من عمل شيء».

قال صاحبه مزدريًا:

ـ «هذا ألماني.. يستحق كل ألم وكل عذاب.. لذة الموت السريع ترفٌ لا يستحقه. أنت رأيت «أوشفيتز»».

ـ «لكن من قال إنه المسئول عن «أوشفيتز»؟».

كان هذا مجرد صبي أبله امتلأ وجهه بالحبوب ولم تنمُ لحيته بعد. لا يستحق أن يموت مختنقًا بحنجرة مهشمة. مد يده الراجفة إلى مسدسه وصمم على أن يطلق رصاصة على رأس الألماني تنهي عذابه. رفع يده الراجفة، هنا سمع من يقول:

- «ابتعد أنت».

ثم أزاحته يد حازمة، ورأى جنديًّا أمريكيًّا من المسعفين، يهرع فيركع جوار الجندي الألماني. بيد خبيرة رشيقة أخرج نصل السونكي وغرسه في قصبة الجندي الهوائية، ثم هشم قلمًا ليجعل منه أنبوبًا مجوفًا، وغرسه في الثقب الذي صنعه في القصبة الهوائية. تدفق الهواء في جشع إلى صدر الجندي، وخرج وسط الكثير من الرغاوي الدموية. مد الألماني يده يثبت نافذة الحياة هذه في موضعها بيد راجفة وهدأت حركته، وبسرعة قام المسعف بتثبيت القلم ببعض الشريط اللاصق. لقد عاد الوغد يتنفس.. جميل! لم تبقَ سوى مشكلة انتزاع الرصاصة من حنجرته وإصلاح ما تلف!

من الصعب أن تراقب رجلًا يموت مختنقًا لمجرد أنه ألماني، لكن زملاء هذا الرجل أعدموا مئات اليهود والبيلاروس لمجرد أنهم مختلفون.

الحياة شر.. لم يكن قد قرأ «شوبنهاور»، لكنه توصل لقلب فلسفته بهذا الشكل الفطري وهو مجرد جندي غرير.

وكما يحمل المرء ندبة أول طعنة يتلقاها في حياته للأبد، فقد ظلت هذه التجربة تلاحقه طويلًا.. تلاحقه مدى حياته في الواقع، وقد نقل الخبرة كاملة لابنه «جوناثان». لقد قضى «جوناثان» طفولته كلها يسمع هذه الخبرة. وفي سن متأخرة كون نظريته الخاصة عن التعامل مع الوجود.

رحلة طويلة هي قضاها «جوناثان» في درب السياسة، منذ صار ضمن الحزب الديمقراطي وبدأ زحفه البطيء إلى الأمام. لم تكن رحلة نبيلة كلها ولم تكن رحلة شاقة أو سهلة طيلة الوقت. كانت هناك قمم وحفر وجبال ووهاد. لم يكن الصراع مجدًا يرفرف فوق قمم الأوليمب، كما أنه لم يكن مجموعة صفقات قذرة تحت المائدة. كان فيه شيء من كل شيء.. لكن «جوناثان» اعتبر نفسه محظوظًا، فالرحلة لم تكن قاسية لهذا الحد بالنسبة له.

هناك درجة دكتوراه في القانون، وهي الفترة التي قابل فيها مكرم كما سنعرف بعد قليل، وعمل لفترة كمقدم لبرنامج إذاعي في الولاية وترشح مرتين للكونجرس. في النهاية استطاع أن يصل هناك، وأدرك شيئين: هو طموح جدًّا.. والعالم لا يتسع لطموحه. لقد خُلق ليكون سياسيًّا. صار حاكم الولاية عام ٢٠٠١ وحقق نجاحًا لا بأس به حيث رفع التصنيف الائتماني للولاية، وقدم حلولًا لا بأس بها للبطالة.

في هذا الوقت بالضبط قابل بيتي زوجته. وكانت صحفية ديمقراطية ناشطة لا تهمد لحظة، ومن الصعب أن تصدق أنها تقدر على النوم في نهاية اليوم، وهنك وسط الزحام والاحتفالات الصاخبة والألعاب النارية قال لها صارخًا:

- «هل تتزوجينني؟ مستقبلي مفتوح وأعرف أن لديَّ ثغرات سوف تسدينها أنتِ».

قالت له صارخة:

- «أنا لا أحب الأطفال».

- «وأنا كذلك.. إنهم مزعجون وأنوفهم تسيل دائمًا، ثم إن هذا العالم أقسى من أن نمنحه طفلًا يتسلى بتعذيبه. من الخير ألا نلقي بمزيد من اللحم للأسود».

كان الاتفاق تامًا وسرعان ما تم الزواج.

«جوناثان» رجل صارم جاد من الطراز الذي لا يسبب مشاكل أخلاقية ولا يمسك سكرتيراته من أردافهن (وهذا شيء نادر في عالمنا)، وقد وجد الصحفيون أنه ممل كالجحيم، لذا تجاهلوه تمامًا معظم الوقت. سياسي لا يختلس وليس على علاقات مريبة بشركات السلاح ولا يقرص النساء، هو سياسي لا قيمة له إعلاميًا.

حكى لزوجته عدة مرات عن خبرات أبيه المروعة أيام الحرب. سألته في لحظة صفاء:

- «هل تخلصت من هذا الشعور الفادح بعبثية الكون؟».

قال لها:

- «تعلمت أن الإنسان قاسٍ متوحش.. وقد قبلت هذه الحقيقة وتأقلمت معها بمرور الزمن. تعلمت أن التفرقة العنصرية والاضطهاد العِرقي حقيقتان. لو صار كل العالم ذا دين واحد وجنسية واحدة ولون بشرة واحدة، فعلى الأرجح سيبدأ طوال القامة في قتل قصارها.. سيبدأ زرق العينين في اضطهاد سود العينين. هذه هي الحقيقة».

- «وهل ستحاول التغيير يومًا؟».

- «لن أبدل طبيعة البشر، لكني سأكون درعًا يحمي المنبوذين والمختلفين لو استطعت. أما أن أمحو الفكرة ذاتها فلا يقدر على ذلك إلا إله، وأنا كففت عن أن أكون إلهًا منذ سن العشرين».

بعد هذا اختاره الرئيس الأمريكي «هارفي دونالسون» ليكون نائبًا

له. وهي التجربة القاسية التي علمت «جوناثان» أن كل المهن في العالم لها تأثير.. كل الكائنات لها دور ما، ما عدا نائب الرئيس. إنه كائن ممسوخ يتأرجح بين كونه شخصًا عاديًا وكونه رئيسًا مهيض الجناحين.

كما قلنا كانت هناك صداقة مبكرة نسبيًا انعقدت بينه وبين أستاذ الجامعة العربي الشاب ـ وقتها ـ مكرم ميخائيل. كان أستاذ علاقات سياسية في هارفارد، له ملامح عربية يصعب أن تخطئها.

كان مكرم عضوًا ناشطًا في الحزب، وبشكل ما ارتبط مصير الرجلين. أنت تعرف كيف يجلس عازفان من عازفي موسيقى الغرفة، أحدهما يمسك بالكمان والآخر يجلس خلف البيانو ويبدأ العزف المتردد، ثم يتحد العزفان وتتضخم النغمة وتتألق.. يصير العزفان ملحمة واحدة جميلة لا تصدقها ما لم تسمعها.

الحق أن «جوناثان» لم يحب العزف مع واحد آخر سوى مكرم. عزف الأفكار الذي يمارسانه معًا لا بد في النهاية أن يسفر عن مقطوعة متكاملة رائعة.

كان مكرم يضع اللبنة، فيضيف لها جوناثان لبنة أخرى. يضيف مكرم لبنة فيضيف «جوناثان» أخرى.. تمر ساعات وتكتشف أنك شيدت بناء جميلًا شامخًا من الخسارة أن يتهاوى.

والمؤسف كذلك أن الكثير من هذه الصروح المشيدة على الرمال قد زال بمجرد أن يفترق الصديقان. كانا ينسيان ما تم تبادله بينهما من أفكار، والحق أنه لو جلس سكرتير يدون ما يقولان لكانت هذه نواة أكثر من كتاب بالغ الأهمية.

الآن يمكننا أن نجلس مع الرجلين في مناقشة عظيمة الشأن، من الخسارة ألا نصغي لها بدقة.

٣

مشكلة «جوناثان» كانت فقدانه الإيمان بالجنس البشري، وذروة فلسفته هي أن عليك أن تحمي الضعفاء قدر ما تستطيع. الأذى حادث لا محالة.. فلتحاول أن تحجب بعضه بظهر ساعدك.

مشكلة مكرم كانت شهوته العارمة لإصلاح العالم. كان يؤمن أنه الشخص المناسب الذي جاء في الزمن المناسب ليقوم بالمهمة المناسبة.

لم يعرف مكرم لنفسه بيتًا ووطنًا سوى الولايات، وقد منحه هذا البلد كل شيء. الجنة الافتراضية في ذهنه كانت هي البلد الذي يكفيك لتصل للقمة فيه، أن تشقى وتعاني وتتعذب وتسهر..فقط. وهي معادلة مستحيل أن تتحقق في العالم العربي مثلًا. في أمريكا لو لعبت بقواعد اللعبة جيدًا فلن يمنعك شيء من بلوغ القمم. بينما العكس هو ما يحدث غالبًا في العالم العربي.

لكن مكرم كان يعرف جيدًا أنه عربي، وأنه ينتمي لتراث إنساني وثقافي هائل. لهذا ظل جزء من عالمه عربيًا، خاصة بعدما تزوج وأنجب عالية وصفية. وكانت العربية تستخدم في بيته كالإنجليزية بالضبط، كما أن الأطعمة العربية كانت ملمحًا رئيسا في مطبخه.

عربي أنا.. كان يقولها لنفسه، ويتساءل بجدية وهو يتأمل صورة جمال حمدان على غلاف كتابه الموسوعي الشهير، أو يقلب كتاب قصة الحضارة لـ«ويل ديورانت»: كل الدول دخلت لعبة الكراسي الموسيقية هذه.. لعبتها الإمبراطورية الرومانية.. لعبها العرب.. لعبها الفرس.. لعبها البريطانيون.. لعبها الإغريق.. لعبها الفرنسيون. وفي النهاية توقفت الموسيقى فجأة، لكن ظل هناك

مقعد محترم جلست عليه كل دولة. الإمبراطورية الرومانية ما زالت هي إيطاليا، وهي إلى حد ما دولة متقدمة محترمة برغم أنها صغيرة متواضعة الاقتصاد، والإمبراطورية الإغريقية هي اليونان برغم كل شيء.. الإمبراطورية البريطانية صارت هي إنجلترا وهي ما زالت قوة نووية عظمى.

لكن لماذا بربك لم يبقَ أي مقعد للإمبراطورية العربية؟ هي اللاعب الوحيد الذي راح يدور حول الجالسين باحثًا بضحكة بلهاء عن أي موضع.. لعل هناك من ينزاح قليلًا أو يسمح له بطرف مقعد.

كانت مشكلته هي أن العرب ضعاف جدًّا.. متفرقون جدًّا. متخلفون جدًّا.

لقد فاتت لحظة تغيير كل شيء، لكن لحظة الإنقاذ ما زالت موجودة.

ليس بوسعك منع الصبي من السقوط في الماء، لكن بوسعك أن تُلقي له طوق نجاة.

ليس بوسعك أن تمنع الحريق، لكن بوسعك توزيع بدلات الإسبستوس على المحاصرين.

وكان كتاب العربي التائه هو مشروع عمره، وكان يعرف أنه سيخلد اسمه لعدة أجيال.. سوف ينضم ليتخذ موضعًا فخورًا جوار كتب العصيان المدني لـ«ثورو»، والإدراك العام لـ«توم بن»، ورأس المال لـ«ماركس».

لا بد أن سيناريو هذه الجلسة تكرر عشر مرات من قبل، ولا بد أن نفس الكلام قيل مرارًا، فلم يكترث أحد بتدوينه.

في كل مرة يشعل مكرم السيجار المعتاد الذي لا يفارقه، ويجذب شعيرات لحيته القصيرة، ثم يتجه إلى الكتب المتراصة

على الرف فيمرر إصبعه على هوامشها، ثم يتجه لجهاز التلفزيون المعلق ويفتح نشرة «سي إن إن» أو «فوكس نيوز».. دائمًا ما تكون هناك مذبحة ما.

يفكر بعض الوقت ويطلق سحابة دخان كثيفة ثم يقول:

ـ «التطهير العِرقي.. العنصرية. الراديكالية في كل مكان».

يرشف «جوناثان إيرهارت» من كأس الشيري الذي يضعه جواره ويواصل تصفح الكتاب الذي في يده. غالبًا لا يعلق.

«جوناثان» اليوم في الخامسة والخمسين من العمر. خبرات الحياة جعلت له وجهًا قاسيًا خاليًا من التعبير، فلو أن للإمبريالية وجهًا لصار هو وجهه.. الوجه القاسي البارد لأمريكا وهو يختلف بالتأكيد عن وجه «مارلين مونرو» في ملصقات «أندي وارهول»، أو وجه «ميكي ماوس» الضحوك.. دعك من أنه كان من الذين يتأملون محدثهم من فوق الإطار العلوي للنظارة، وهذا يعطيك شعورًا غير مريح بأن هناك من يتفحصك في قسوة وصرامة. لكننا صرنا نعرف الكثير عن «إيرهارت» ونعرف أن هذا قناع زائف لا يدل على أي شيء من جوهره المعذب الذي ملأته الندوب. الروح المخملية التي أحاطت نفسها بالأشواك لأنها لن تتحمل الصدام التالي.

أما عن مكرم فهو قصير القامة، له لحية قصيرة شائبة وجسد ممتلئ، وربطة عنق ذات لون مزعج على شكل بابيون.

يقول مكرم كأنه متضايق من صمت نائب الرئيس:

ـ «مذبحة أخرى في الفلبين.. وبلطجية في النرويج.. وأمس حرق مسجد في لندن».

ثم تنهد في ضيق.

يقول «جوناثان» بصوت عميق قوي النبرات كما في كل مرة:
- «عليك أن تقبل هذا.. إن العرب هم يهود العصر الضائعون في الشتات».
- «ولماذا أقبل هذا بينما لم يقبله اليهود؟».
- «أنت بما تستطيع عمله».
ثم عاد يقرأ الكتاب الذي في يده.
جلس مكرم والسيجار بين أنامله، ووضع ساقًا على ساق ثم قال كأنه يكلم نفسه:
- «ابنتي عالية.. أمس في السوبرماركت. تتسوق.. تتسوق كأي مواطن أمريكي مسالم يحترم نفسه. قل لي ما هو الخطأ هنا؟».
لم يرفع «جوناثان» رأسه وقال وهو يتصفح الكتاب:
- «يصعب القول إننا واجدون أخطاء في هذا الموقف. لا بد أن منظرها كان مستفزًّا للمتحرش لا أكثر».
- «هذا ما أردت قوله.. لماذا افترضت أنها تعرضت لتحرش؟».
- «لأن القصة دائمًا هكذا».
أردف مكرم في شيء من الغل:
- «أمريكي أبيض اندفع نحوها. بعثر مشترياتها على الأرض.. بصق عليها.. وصاح اتركي بلادنا أيتها العاهرة».
- «ورجل الأمن في المول لم يتدخل طبعًا».
- «تواطؤ الشرطة جزء أصيل من قصص الاضطهاد في كل مكان.. دائمًا هناك محاولة التهدئة، أو القول إنه لا يوجد دليل واضح... إلخ.. في النهاية تكتشف الضحية أن عليها أن تصمت قبل أن يتهموها بشيء. لا أعرف ما كان سيحدث لو كنت معها وقتها. تصور أنني أحمد الله على أن الموقف تم بعيدًا عني. لو كنت

موجودًا لكان عليَّ أن أفعل شيئًا، وأنا لا أعرف ما يجب عمله. على الأرجح كنت سأحاول الفتك بهذا الحلوف، وكنت سأبدو مثيرًا للشفقة».

- «ثمة حروب من الخير ألا تحضرها».

كالعادة يكرر «جوناثان» ما قاله ألف مرة:

- «تعلمت طيلة حياتي أن جرائم الكراهية لن تفنى. البشرية لن تنضج أبدًا بحيث تكبر عليها. في النهاية نحن أطفال نتحرش بالطفل البدين حسن الثياب في الصف».

كاد مكرم ينزع لحيته من فرط عصبية وقال:

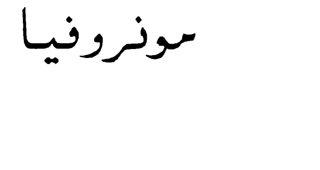
- «ابنتي تتكلم الإنجليزية خيرًا من أي أمريكي آخر.. وليست سوداء البشرة. دعك من أنها مسيحية. كانت تعلق صليبًا ظاهرًا».

- «لكن عينيها عربيتان.. هذه أشياء لا يمكن مداراتها».

* * *

أنا عربي
أنا اسم بلا لقب
أبي من أسرة المحراث
وجدّي كان فلاحًا بلا حسب ولا نسب..

«محمود درويش»


مونروفيا

١

تلك الأعوام التي جاءت بأبيك هنا. الحياة في ليبيا صارت قاسية للغاية، بين معصرة الفقر ومعصرة الاضطهاد السياسي، ومعصرة الاحتراب الذي لا يتوقف. كان جدك يقول وهو يدخن النارجيلة:

- «ثمة قوم لا يريدون الحياة ولا تريدهم الحياة».

بعد هذا تعلمت أنه ثمة قوم لا يريدون بلادهم ولا تريدهم بلادهم. في البداية أنت تقاوم.. تبكي.. تتمسك بثدي البلاد محاولًا أن تظفر بقطرات.. لكنك في كل مرة تتلقى ركلة قاسية، وفي النهاية تتعلم أن تكره أمك. تتعلم كيف لا تطيق وطنك، وكيف يضيق عليك بينما يتسع العالم الخارجي.

في لحظة كهذه تحمل أحلامك وثقافتك وذكرياتك وقصائدك ودينك ولغتك وكبرياءك وقصص المدرسة، ومعها من تستطيع أن تقنعه بالرحيل معك وتغادر البلاد. تغادرها عالمًا أنك لن تعود.

كان هذا هو أباك.. علوي أبو زهرة.

أنت لا تعرف السبب الذي جعل أباك يفكر في ليبيريا. كان هناك ذلك الرجل الذي يعرف ما ينبغي عمله. هناك واحد دائمًا، وعلى الأرجح كان هو الذي أقنع المجموعة التي معه بأنهم سوف ينتظرون على الساحل الغربي الإفريقي سفينة تقلهم إلى الولايات المتحدة عبر الأطلنطي. ربما هو تكرار للقصص القديمة لسفن العبيد.

كان خيالًا طفوليًا.. الولايات المتحدة لم تعد مفتوحة للقادمين، وقد ولى عصر المهاجرين المحتشدين على ظهر السفينة يهللون عند رؤية تمثال الحرية. لكن أباك حسب أن هذا ممكن. والحقيقة كذلك هي أن السود عادوا من أمريكا ليعيشوا في ليبيريا حاسبين أنها ستكون أول ولاية أمريكية في إفريقيا. كانوا يستعملون العَلَم الأمريكي بألوان مختلفة، ولفترة طويلة طبقوا نفس النظام السياسي.

في الواقع كانت ليبيريا هي نهاية المطاف.. هي المهجر.

استغرق أبوك زمنًا طويلًا ليصدق هذا ويستوعبه هو ومن معه من زملاء ليبيين.

* * *

كريمة تلهث.

كَريمة مبللة بالعرق.

الطقس حار رطيب.

كريمة تتوارى خلف أحد هذه الأبواب وتحبس أنفاسها.

لكن بوسعك أن تجدها. لا تعرف كيف. ربما هي الرائحة. ربما هو ذلك الدفء الأنثوي القوي.

طفلة هي وطفل أنت. لكنك لا تستطيع أن تتجاهل ذلك الدفء العجيب.

ولجت الباب فاصطدمت بها. كانت تلهث.

شفتاك الجائعتان تبحثان عن شفتيها في الظلام. تجدها بالحرارة واللهاث والغريزة والجوع.

تم التلامس.. والانفجار المروع الذي زلزل كيانك كأن كل عبيد الأرض قرروا الثورة في داخلك. أصابك الهلع وحسبت أنك

تموت، وحسبت أنك مريض، وحسبت أن الله أرسل صاعقة تفتك بك لما فعلته.

وعندما انتهى كل شيء كنت ساقطًا على الأرض ترتجف غارقًا في العرق.

واهنًا لا تقدر على ثني إصبع واحدة أو التلفظ بربع كلمة.

تسألك والذعر يغمرها:

ـ«هل.. هل أنت بخير؟».

فلا ترد.. فقط تصدر أصواتًا مختنقة من بين شفتيك. لا بد أن لديك موهبة ممتازة في تقليد مرضى الصرع. كنت تريد أن تخبرها أنك منتشٍ وأنك ستغيب عن الوعي، وأنك صرت رجلًا لا تعرف كيف. وما لم تعرفه هو أنك زلزلت كيانها كذلك، لكن النساء يعرفن كيف يخفين مشاعرهن ويبدين طبيعيات باردات بالنسبة لنا.

في هذه اللحظة قال لنفسه إن كريمة ستكون له. سوف يواصلان ما بدآ به، فهذه اللعبة جديرة بأن تستكشف حتى النهاية، فقط لو توقف قلبه عن الخفقان ولو لم يمت.

* * *

لا بد أنكما لعبتما هذه اللعبة عشرات المرات، لكن في كل مرة كانت خبرتك تتزايد وكان أداؤكما يتحسن.

أنت سليم.. ابن علوي التاجر العربي الذي فر من بلاده إلى مونروفيا بحثًا عن الرزق. في الواقع كان يحلم بالولايات لكنه اكتشف أنه كان ساذجًا.. افتتح متجرًا صغيرًا للمواد الغذائية بسعر الجملة، كان يدر دخلًا يكفي لعدم الموت جوعًا لا أكثر.

كريمة.. ابنة العامل ثروت.. ثروت العامل الأمين الذي وثق به

أبوك. رحلة صداقة جمعت بين الرئيس والمرءوس حتى زال الفارق بينهما وصارا كما هما فعلًا صديقين.

هكذا يعلن القدر منذ اللحظة الأولى: سليم زوج كريمة.. لا مجال للمزاح. لا مجال للتنصل.. أرادا أو لم يُردا.. جمع بينهما الحب أو الاشتهاء أو لم يجمع.. لا يهم.. ثمة أمور لها قوة قوانين الفيزياء. الحجر الذي يهوي من علٍ يسقط.. لا مفر.

لم يكن سليم في حاجة لأن يقنع نفسه بالزواج من كريمة، فقد كان الاشتهاء يغمره نحوها، ولئن ظلت عذراء فقد ظل الجانب المظلم من القمر يثير شغفه.. رباه! يريد أن يتمادى... رباه.. يتمنى لو تمادى.

هل الاشتهاء هو الأقدر على حفظ الزواج أم هو الحب؟ لا أعرف يقينًا.. لكنني واثق من أن الانتماء في الغربة هو العامل الأكثر أهمية.

أنت لا تتزوج امرأة ولكن تتزوج الوطن والتاريخ واللغة والأحلام.

هكذا وجد الشابان نفسيهما متزوجين في سن تجعلهما أقرب للأطفال، وسرعان ما رُزقا بطفلين.

هل أنت سعيد؟

لا تجد الوقت ولا البال الرائق لتسأل نفسك أسئلة كهذه. بالتأكيد لست تعسًا، ثم إنك تعرف شهوانيتك المفرطة، وقد كانت كريمة تقدم لك هذا الجانب بسخاء. لكن عليك أن تتروى، فليس من صالح أحد أن يلحق الطفل الثالث بأخويه.. ليكونن هذا حفلًا عظيمًا للبؤس والفاقة.

لحظة موت الأب

كل الآباء يموتون بنفس الطريقة: العرق الغزير.. الصوت الهامس كالفحيح.. جرعة الماء التي لا يفرغون منها أبدًا.. الإضاءة الخافتة.. التنفس الصعب الذي يوشك على أن يزهق روحك نفسها.. الكلمات التي لا تفهمها. التردد بين أن تساعده على نطق الشهادتين، وبين أن يكون هذا تصرفًا فظًّا لأنك تخبره بوضوح أنه يموت.

كل الآباء يموتون بنفس الطريقة. نفس النظرات الزجاجية التي لا تراك ولكن ترى الأبدية بوضوح تام. لقد زالت الغشاوة فبصرهم اليوم حديد وهم يرون السر الحقيقي، لكنهم يعودون من وقت لآخر لينهوا بقايا أعمالهم في هذا العالم.

«المتجر لك».

كأن هذا جديد!

«اعتنِ بثروت وابنته.. هما أمانة في عنقك. أُشهد الله أنه لم يخذلني أو يخنّي أو يكذب علي يومًا ما».

تعده بذلك.

«أنا جلبتكم لمونروفيا حيث لا يوجد غد.. حيث الحياة جافة قاسية.. حيث لا وجود لكلمة ثراء، لكني كذلك رأيت في شبابي ما يكفي من الموت والمذابح في ليبيا، حتى يسعني أن أقول إنني أسديت لكم خدمة».

ثم بدأ الصوت يصير مبحوحًا.

كريمة تستنشق المخاط الذي يسيل من أنفها وتجفف دموعها،

والطبيب الإفريقي النحيل يريد أن ينصرف فلا يوجد ما يفعله. في النهاية هو ذا أبوك يرقد وقد فرغ منه السر الإلهي.. فقط بعد ما نفخه فيك في طفولتك. لقد بدأ موتك في هذه اللحظة.

* * *

الآن يرقد ثروت على فراش الموت.

زوجته تبكي وتسقيه الماء من ملعقة صغيرة.. يبدو أن هذه من طقوس الاحتضار.

كل الآباء يموتون بنفس الطريقة حتى ثروت. الصوت المبحوح والعرق والوجه الشاحب والكلام الغامض. بالطبع لا بد أن يوصيك بأن ترعى ابنته وحفيديه وزوجته. الطبيب الإفريقي النحيل يريد أن ينصرف؛ فلا يوجد ما يفعله.

لم يتكلم ثروت كثيرًا.. فقط طلب بعض الهواء فراحت الزوجة الباكية تهوي على وجهه بالجريدة. ثم إن رأسه مال وغاب في عالم الأبدية.

هذه مونروفيا حيث لا يوجد غد. متجر بلا مستقبل ولا توجد فيه بضائع تقريبًا، لكنها حياتك وعليك أن تعيشها. عش وانعم بحياتك الجنسية لكن حذار. حذار من الطفل الثالث.

* * *

سليم عائد لبيته في تلك الضاحية قرب مونروفيا.

كان يحمل بعض الفاكهة والخضر، ويجتاز الأزقة الضيقة التي امتلأت بماء المجاري الطافحة. يضطر إلى السير فوق قوالب القرميد حتى لا تبتل قدماه.. لقد خربت الحربُ الأهلية البلادَ فلم تعد فيها مرافق صالحة، كما أنها كلفت البلاد ربع مليون قتيل. الآن فقط تحاول التعافي.

سليم اليوم في الخامسة والعشرين من عمره، له قامة فارعة نحيلة لكنها عضلية، وعينان عربيتان رائعتان. أما كريمة فأقرب للبدانة وطيبة القلب.. بطة آدمية يرق لها القلب.

أن تكون لك أسرة في سن صغيرة كهذه لأمر مرهق.. المسئوليات توضع جبلًا فوق كاهلك قبل الأوان، المسئوليات تحرق قصص الحب.. الزواج يدمر قصص الحب.. الفقر يدمر قصص الحب.

يمر وسط جيرانه السود الذين اعتادهم واعتادوه عائدًا إلى متجر البقالة، الذي يتولى أمره منذ توفي أبوه من عامين.

متجر صغير فقير لكنه يصلح ليكفل لهما الحياة.. لافتة بالعربية والحروف الغربية تقول «أبو زهرة».

يشعر بالراحة عندما يشم رائحة الصابون والجبن ومساحيق الغسيل.. يشعر بالراحة عندما يرى وجه كريمة ووجهَي طفليه.

دخل المتجر فألقى ما حمله على مقعد من الخوص، ونادى زوجته.

كان يسكن في الطابق العلوي من البناية فوق المتجر بالذات. هكذا كان الذهاب للعمل يقتضي فقط الهبوط في الدرج.. والعودة من العمل [illegible] فقط الصعود في الدرج.

بحث عن علبة تبغ على الرف، فمزق غلاف السيلوفين المحيط بها وشعر [illegible] يتشف بعض علب المعلبات.

ليبيا بلد فقير مزقته الحروب الأهلية، لكنه لا يعرف لنفسه موضعًا آخر. لم يعد يعرف أي شيء عن بلاد العرب من حيث جاء. يعرف أن أباه جاء من ليبيا منذ أعوام طويلة، لكنه لا يعرف ما يوجد في ليبيا ولا كيف تبدو. فقط صورة ذهنية عن فارس ملثم من فرسان الطوارق في ثوب أزرق زهري، يحمل بندقية ويمتطي جملًا.

يعرف أن للمسلمين ثلاثة أماكن مقدسة في الجزيرة العربية وفي إسرائيل ـ اسمها كان كذلك منذ ولد ـ وللمسيحيين آثار مقدسة في إسرائيل أيضًا. هذا كل ما يعرفه عن العرب.. وبالطبع كان يجيد العربية والإنجليزية. لا تنسَ أن ليبيريا بلد أمريكي أصلًا.

جاءت كريمة وهي تحمل طفلها، وجلست على مقعد في الركن وراحت تُرضعه.

لم يكن هناك غد... الحياة حاضر طويل ممل. ليس له أن يأمل في شيء ولن يتغير شيء. فقط سوف يكبر الطفلان، وفي يوم من الأيام سوف يرثان هذا المتجر ويكرر هو المشهد الممل المعتاد لموت الأب.. هذا هو السيناريو الوحيد للحياة كما يعرفها...لكنها مستقرة وآمنة على الأقل.

كان يعرف أن مناخ الكراهية ينمو من حولهما، لكنه لم يصطدم به قط، وكان يدرك يقينًا أنه لن يصطدم. سوف يسوس الأمور بحكمة.

٣

الصدام الأول مع الرجلين بدأ عندما كان يمشي في السوق.

لم يخطر له أن الموقف قد يتطور. هناك سيارة نصف نقل محملة بأجولة الأرز تقف إلى جانب الطريق، وهو يمر بينها وبين الإفريز الضيق محاولًا ألا يتعثر، وهنا فتح أحمق ما باب السيارة ليضربه في بطنه. سرعان ما وجد نفسه على الأرض الموحلة يتلوى ألمًا.

ترجل السائق ولحق به صاحبه راكب المقعد الجانبي. كانا من الأهالي السود، وكانا ضخمَي الجثة تبدو عليهما الشراسة. يلبس أحدهما قميصًا قصير الكمين، والآخر يمشي بالفانلة الداخلية ويعتمر قبعة من قش.

يتكلمان لغة الميريكو؛ وهي خليط من الإنجليزية الأمريكية ولغة الكيزي.

عرف هذا عندما حاول أن يلومهما.. لماذا لا يكون المرء حذرًا عندما يفتح باب سيارة؟ لكنهما انفجرا في سيل من السباب لأنه ليس حذرًا.

كان سليم حار الدماء؛ لذا لم يتراجع، بل ازداد عصبية.. ومع الكلام الحاد بدأ الدفع بالكف في الكتف ولمس الياقة، وهو لا يطيق من يمس ياقة قميصه.. ازداد جنونًا وكان هناك الكثير من التلويح بالقبضات، وقد دفعه أحد الرجلين بقوة فارتطم بالجدار خلفه.

-«أنتم معشر العرب لا تكتفون بالسطو على وظائفنا وأعمالنا، بل تريدون الشوارع كلها لكم».

معشر العرب! العنصرية تتحرك إذن وتقترب جدًّا.

يمكنه أن يقسم إذن إن فتح الباب كان متعمدًا على سبيل

المضايقة. والحقيقة أنه صار راغبًا في إنهاء الاشتباك، لكن من دون أن يعتذر أو يبدي جبنًا طبعًا. بدا واضحًا أن الرجلين قاداه بالضبط إلى حيث أرادا.

هنا ظهر الأهالي المعتادون المعتدلون وراحوا يفرقون المتشاجرين.

لهجات ولغات لا حصر لها.. يخيل له أحيانًا أن هناك لغة خاصة بكل ليبيري.

تم فك الاشتباك، لكنه رأى العيون الجاحظة ولمسة الحقد الواضحة، وعرف أن الرجلين يرغبان في ارتكاب جريمة.. يحملان طنًّا من الكراهية يريدان أن يفرغاه فوق رأس أول عربي.

مر الموقف في النهاية فلم يترك سوى رائحة شياط قوية في روحه، وحكاه لكريمة عندما سألته عن سر الكدمة في وجنته.. قال لها إنه سعيد لأن السلاح غير متاح، وإلا لفجّر رأسَي الرجلين. إنه من الطراز الذي لا يعبأ بالعواقب عندما يُثار غضبه.

قالت ضاحكة وهي تُلقم أحد الطفلين ثديها:

- «تطلق الرصاص على أول من يتشاجر معك! كان أبي يقول إنني تزوجت مجنونًا».

- «ثروت قال هذا؟».

- «ولم أقله لك».

* * *

قالت كريمة:

- «حميد مريض.. ارتفعت حرارته ظهر اليوم».

هذا خبر مقلق. معنى هذا الكثير من الدولارات الليبيرية لشراء وصفات شعبية لا جدوى منها. ثم إنفاق المزيد من أجل رأي طبيب ومن أجل شراء دواء... الحياة لا تحتمل تغيرات درامية كهذه.

نفث الدخان بعمق وقال:

ـ «جربي الليمون والعسل أولًا».

كان يؤمن مثل أمه يرحمها الله أن الليمون والعسل يشفيان كل شيء، بدءًا بالبرد وانتهاء بسرطان الدم والإيدز.. لكن لحظة.

يرى زبونين يدخلان المحل.. لكنهما ليسا أي زبونين. إنهما بالذات رجلا السيارة.. الرجلان اللذان تشاجر معهما. يبدو واضحًا أنهما جاءا لطلب المزيد من المتاعب. لكنه سيتظاهر بالشجاعة. هناك لحظة أكيدة: ينهال عليهما فيها بالمقرعة ثم يصرخ طالبًا النجدة.

قال الأول وهو ينظر لأرجاء المحل في وقاحة تتجاوز الفضول التجاري العادي:

ـ«هل لديك أسماك مقددة؟».

ابتلع سليم ريقه. رائحة العدوانية والتحرش أقوى بمراحل من رائحة أي أسماك.

ـ«لا أبيع سمكًا مقددًا».

هنا اتجهت نظرات الرجل إلى كريمة.. نظرات أكثر وقاحة.. نظرات من التي تحتاج المرأة للاستحمام بعدها لأنها مخاطية لزجة تلتصق بالجلد، ثم قال:

ـ«هل لديك روم؟».

ـ«لا أبيع الخمر».

قال الرجل الآخر في غضب لا مبرر له:

-«إذن ماذا عندك عليك اللعنة؟».

عرف سليم ما يحدث.. تعرض من قبل لتحرش مماثل، لكنه كان من عصابات الحماية بالقوة.. ادفع لنا لنحميك وإلا كنا نحن الخطر على حياتك.. باختصار بلطجة.

أحد الرجلين التقط زجاجة مياه غازية. تأملها ثم هشمها على الأرض.. كراش ش ش!

لم يكن بوسع سليم أن يظل صامتًا. هتف في غضب:

-«سوف تدفع ثمنها ثم تنصرف».

قال الرجل ذو القبعة وهو يحرك شفتيه بغلظة كأنه يبصق:

-«لم يكن في نيتنا أن نحطمها أيها العربي».

-«لكن هذا في نيتنا هذه المرة!».

من بعيد يتصاعد الدخان من بركان جاواتامي. حوت عملاق ضخم ينعس في الأفق وتنبعث من ظهره نافورة مياه سوداء كثيفة شيطانية الرائحة. يمكنك أن تقضي حتفك لو كنت مريضًا بالربو أو فرط تحسس الشعب الهوائية.

يحفر على الأرض بلا توقف.
كريمة... الاسم كريمة.

وعلى الفور اندفع الرجلان يهشمان صف الزجاجات على الأرض وهما يطلقان صيحات المرح. لا بد أن هذا ممتع جدًا.

وثب سليم واندفع نحوهما ليمنع هذا العبث، وعلى الفور شعر بقبضة ثقيلة تهوي على وجهه.. سقط أرضًا فوجّه أحدهما ركلة قوية في خاصرته.. لا.. هذا لا يحدث لي.

ثم إن الرجلين اندفعا بحملات هراوتين - لا أدري أين كانتا - وراحا يهويان على كل شيء ويسكبان كل شيء.

سليم على الأرض يرى كل شيء بالمقلوب.. يرى رأس ماله الشحيح يتبعثر، ويرى متجره يتحول لخراب.. في الخارج يقف بعض السود يراقبون المشهد ولا يجسرون على التدخل.

برغم رائحة ثاني أكسيد الكبريت اللعينة يشعر بحاجة للفافة تبغ. يعبث في صدر القميص الممزق، إلى أن يجد قطعة قماش لف فيها ثلاث لفافات. بحذر يستخرج لفافة منها اصطنعها من ورق الموز والتبغ. هناك قداحة ما زالت معه منذ أيام مونروفيا.. يُشعل اللفافة ويتمنى ألا يكون العَرق قد أتلفها. سحابة الدخان البيضاء عطرة الرائحة تتصاعد مبشرة بدقائق ممتعة.

بوم! تهوي الهراوة بالسرعة البطيئة على.. على رأس كريمة.

نافورة دم تناثرت بالسرعة البطيئة، وقالت بالعربية شيئًا لم يفهمه أحد ثم سقطت على الأرض.. كان الصوت والمنظر يدلان بلا شك على ما حدث. لن تحتاج لطبيب...

هوى الطفل على الأرض وراح يعوي كالكلب المجنون، فوجه له أحد الرجلين ركلة.

وثبا فوق سليم يبغيان الفرار، فتمسك كالمجنون بقدم أحدهما. لدرجة أنه جره معه.. لن تفلت.. سوف أهشم رأسك الآن وهنا...

لكن الهراوة سقطت على يد سليم فهشمت أنامله وصرخ.

ثم تلاشى الرجلان... وببطء بدأ المتجر يمتلئ بالناس.

«لقد قتلوا المرأة العربية!».

-«يبدو أن الطفلين ماتا كذلك».

كان سليم يسمع هذا بعدة لغات وهو على الأرض وسط الزجاجات المهشمة.. كل شيء ينبض من حوله، وأنامله تتقاص.. ثم إن بقعة سوداء راحت تتسع أمام نظره.. وغاب في الظلام.

لقد نالوا منك.. نالوا منك بأسوأ طريقة ممكنة، لكنك لم تدرك خسارتك بعد. فيما بعد عندما تفيق ستدرك حجم ما فقدته في لحظات. أما الآن فالحين حين صداع وإغماء وقيء. لا تُضيع الفرصة.

مصر

في سجن الكون

في سن الخامسة عشرة اعتاد محمد عدنان أن ينظر للسماء.

هناك ذلك الكتاب عن النجوم، وقد قرأه بعناية أكثر من مرة حتى إنه صار يعرف بالتقريب موضع كل نجم في السماء واسمه.. يمكنه أن يكلمك عن درب التبانة وكوكبة الدجاجة والمكان الذي ترى فيه كوكب الزهرة وكوكب المريخ وهما يتألقان كنجمين في الأفق الشرقي والغربي.

أعطاه صديق لأبيه مرقابًا صغيرًا مخصصًا للهو الأطفال، فراح ينظر به للسماء. لاحظ مع الوقت أن السماء بعيدة جدًا شحيحة جدًا. رقعة ضيقة بين المباني العالية تراها بشكل عشوائي يعتمد على الحظ.

المباني شامخة والأضواء ساطعة جدًا... لا نجوم.

ثم إنه بدأ يجرب أن يصعد لسطح الدار حاملًا المرقاب. وهناك يكتشف أن هناك المزيد من السماء، وأن بوسعه أن ينظر لأعلى ويأخذ شهيقًا قويًا.. ربما تنحشر نجمة هناك في إحدى القصيبات الهوائية.

عندما ينقطع التيار الكهربي - وهذا يحدث كثيرًا مؤخرًا - فإن الرؤية تتحسن، والنجوم الخجول تعلن عن نفسها فيرى وعاء الدب الأكبر والنجم القطبي والشعرى اليمانية.

قضى ليالي طويلة على سطح البناية. يفرش جريدة يجلس عليها

ومعه مفكرة وقلم وأوراق. ومع الوقت صار بوسعه أن ينتظر كل نجم في الموضع الذي يتوقع له أن يكون.

كانت روحه تنمو وتتسع بحجم الكون.

ليس كل شيء في العالم هو المدرسة ومعلم الفيزياء وأباه الخشن الصارم والذهاب للسوق وطابور الخبز. الكون أكبر من هذا وأعظم.

ومع افتتانه بالكون فتنه الدين.. المذاق الكوني الخارق المتجاوز لحدود النفس الضيقة. الدين يتكلم عن عوالم أخرى رحبة تعد بالخلود... الدين يتكلم عن النجوم ويعرفها ويقسم بمواضعها.

يزداد شفافية.. ويشعر أنه يقترب.

الغد له. ليحققن كل أحلامه وليسحرن الجميع وليعلمن الناس كل ما تعلمه، ولتكونن حياته حافلة ناجحة. حياة يتمنى كل من يسمع عنها أن تكون حياته هو.

وعاء الدب الأكبر هو وعائي أنا.. لقد وضعت عليه توقيعي.

لكنه لم يعرف باللحظة القادمة التي ستهوي به إلى الثرى للأبد.

التغير الذي حدث في سن السادسة عشرة هو أنه نزل بالعدسة التلسكوب قليلًا، فامتلأت البؤرة بصورة نوافذ مغلقة أو مواربة.

توقفت العدسة أمام مشهد معين، وابتعدت.. ثم شعر بريقه يجف.. وببطء عاد المرقاب إلى نفس النافذة.

كان هناك عالم وردي. جدران وردية حالمة وستائر شفافة، وخزانة ثياب هي مزيج من لونين أرجواني وأبيض. لقد كان هذا جحر الأرنب.. نداء الساحرة.. لم يكن سبيل للفرار. اللون الوردي يمتص روحه ذاتها.

استطاع أن يرى ظهر فتاة. الشعر الطويل والنعومة المخملية، وأدرك في جزع أنها تنزع ثيابها.

كان هناك وحيدًا على سطح البناية يراقب بالمرقاب مشهدًا لم يخطر له قط أنه ممكن. صحيح أنه رآه على شاشة التلفزيون أو السينما أو المجلات الخلاعية ـ لم تكن هناك إنترنت وقتها ـ لكن رؤية المشهد رأي العين كانت تجربة لا توصف. لا شك أن من يرون شخصًا يموت أو يقتل يمرون بخبرة صادمة مماثلة.

هناك كان يبتلع ريقه.. وهناك كان متصلبًا لا يصدق ما يراه.

المشهد كان قصيرًا جدًّا لكن خياله جعله يستمر عدة قرون، وتكفل خياله بصنع كل شيء حتى إنه يقسم إنه رأى أصابع قدميها.

اسمها عزة.. لا شك في هذا.. تخرجت هذا العام في معهد ما، وهي تعمل في مصلحة ما، وقد بدأ الرجال هناك يحومون حولها.. لا بد أن أكثر من واحد يسألون مدام عواطف زميلة العمل المسنة عنها.

آسف يا شباب.. أنتم تحلمون بعزة لكنني أراها الآن عارية تمامًا.. أنا اقتربت من حافة الغدير ورأيت العذارى يستحممن. لا يمكنكم تصور ما دنوت منه أنا.. سوف تحسدونني لا محالة.

في النهاية انتهى العرض وانطفأ النور في الغرفة.. راح يفتش في النوافذ عن عرض سحري آخر فلم يجد. لكنه أدرك أن هذه الخبرة ستغير حياته للأبد.. لم يشعر بشعور كهذا وهو يرصد النجوم، ولم تستطع المجرة كلها أن تُحدث هذا الإعصار في روحه وجسده.

إذن فهذه هي المرأة! قنبلة ذرية تمشي على قدمين، لكنها تخفي هذا تحت ثيابها. المفاعل المحاط بالرصاص حتى لا يحرق إشعاعه جلود البشر.

هكذا توطدت علاقة الفتى بالسطح وازداد التزامًا بموعد الليل، لكنه لم يوجّه المرقاب للسماء قط من حينها. كانت مهمته هي مراقبة نافذة عزة.. بالتأكيد اسمها عزة.. لن يسمح لها باسم آخر.

لقد ماتت النجوم ولم يبق سوى هذا الجسد.

شعور قاسٍ دامٍ من المرارة والشهوة والخطيئة يغمره وهو يمارس هذا النشاط الحقير: التلصص. لكنه كذلك أدرك أن هناك لذة خفية فيه ربما تفوق ما كان سيجده لو كان مع عزة في نفس الغرفة.. هذا شيء ليس لي وقد أخذته.. فيما بعد قرأ عن الكلبتومانيا (جنون السرقة) وأدرك بخبرته أنها لذة لا توصف.

ظفر عدة مرات بمكافأة تعوضه عن السهر والبرد والانتظار المحموم.

لكن الخزي كان يغمره لأنه تخلى عن الكون لدى أول اختبار حقيقي.. الشهوات في كفة والكون بأسراره في كفة أخرى. لم يحتج لوقت طويل كي يختار. فلتذهب المجرات والكواركات والثقوب السوداء إلى الجحيم. وبعد شهرين أو أكثر أثار هلعه أنه فعلًا لم يعد يتذكر المكان الذي يجد فيه موضع سديم رأس الفرس. مشروع الفلكي الشاب قد دفن دفنًا تحت طبقات الدانتيلا والساتان والحرير.

نظر للسماء وأخذ شهيقًا عميقًا.. مهما كان الكون بلا نهاية فهو سجن.. وجودنا المادي يجعل الكون سجنًا. لعل الأرواح هي الشيء الوحيد الذي لا يشعر بقيود الكون.

ملايين الأسئلة تكبلنا.. وطاقة الزنزانة لا تكشف شيئًا ذا بال.

بالواقع لا ترى شيئا من طاقة الزنزانة سوى فتاة ـ اسمها عزة على الأرجح ـ تنزع ثيابها. فلعل هذه هي الحقيقة الوحيدة المؤكدة!

في سجن الوطن

صورة جيفارا على الجدار، وقد تم طبعها بالسيلك سكرين، بحيث صارت مزيجًا من اللون الأحمر والدموي. هناك أرفف ساذجة بلهاء تم صنعها من سلك ملتف بين رءوس مسامير مغروسة في الجدار النخر، ويمكنك أن ترى كعوب الكتب. معظمها منشورات فلسطينية من فتح، وبعضها أشعار للوركا ونيرودا.

ينفث مختار الدخان بكثافة، ثم يفتح جهاز الكاسيت لينبعث صوت الشيخ إمام.

خطر لمحمد أن هذه مجموعة تأتي كلها جملة واحدة. لا يوجد سبيل للتفكيك كأن تأخذ الشيخ إمام وتترك جيفارا مثلًا. يناوله مختار لفافة تبغ ويشعلها له ثم يرشف رشفة من الشاي الثقيل.

مختار ماركسي ويصر على أن يكون ملحدًا كذلك برغم أن الماركسية والإلحاد ليسا مترادفين، وما زال محمد يرتجف كلما تذكر المرة التي زاره فيها مختار في نهار رمضان.. محمد يصوم رمضان ويصلي من حين لآخر، لذا أصيب بالهلع عندما غادر الغرفة فسمع مختار ينادي بصوت عالٍ:

- «لا تنس الماء البارد يا محمد».

وعلى الفور تصاعدت الرائحة. رائحة التبغ.. شمها أخوه وشمتها الحاجّة طبعًا حيث جلست متربعة على سجادة الصلاة في الصالة.

شعر محمد وقتها أنه يريد أن تنشق الأرض وتبلعه. يبدو أن مصادقة الملحدين لها سعر باهظ، لكن لم يكن هذا أعلى ثمن يجب دفعه.

تجلس عزة في طرف الغرفة تطالع مجلة ما في عصبية لا شك فيها.

يخرج مختار ورقة تمت طباعتها بماكينة الرنيو، ويقول:

- «هذا هو المنشور الذي بدأنا توزيعه في المحلة الكبرى. لا بد أن يكون في يد كل عامل. أريد أن تأخذ منه مجموعة يا محمد لتوزعها في الجامعة».

أراد أن يقول إن هذا خطر جدًّا.. أسهل شيء في العالم أن تعتقل الشخص الذي يوزع منشورًا. نصف من سيأخذون المنشور سوف يسلمونه لأمن الدولة في نفس اليوم. لكنه لم يجرؤ أمام هذا الحماس كله أن يكون صريحًا.

قال مختار:

- «التغيير.. العمال هم البذرة الأولى دائمًا، والشرارة الأولى تخرج من صفوفهم. إضرابات العمال سلاح خطر دائمًا يزلزل الدولة».

ثم أضاف وهو يلقي لفافة التبغ ويطؤها:

- «الجامعة كذلك قلب بركان قلق.. تنفجر بسهولة بالغة».

الحقيقة أن الأمور لم تعد كما كانت، ومحمد يعرف هذا.. هذه لغة مضى عهدها، والمشكلة هي أن مختار ما زال يعيش في أجواء سبعينيات القرن العشرين، بينما تغيرت الخارطة تمامًا.

لا شيء يحرك الجامعة حاليًّا إلا الأسباب الدينية، خاصة ما يتعلق بالحجاب والنقاب.

لديه أصدقاء كثيرون ينتمون للتيار الإسلامي، وهو يعرف أن

الحقيقة الوحيدة في مصر هي وجود قوتين: الجيش والإسلاميين. لا توجد قوة ثالثة. محاولات تزييف قوة ثالثة ذات طبيعة يسارية أو مدنية تفشل دائمًا. إما أن تهلل للجيش والضباط وإما أن تدعو لدولة الخلافة.. لكن لو تكلمت عن دكتاتورية الطبقة العاملة فلسوف يضربونك بالحذاء.

طيلة الوقت يشعر محمد بتأنيب ضمير.

مع الإسلاميين يشعر أنه فاسق لم يتملك منه الإيمان بما يكفي.

مع اليساريين يشعر بأنه جبان ممن يعرقلون الثورات.. رجعي برجوازي.

تدخلت عزة في الحوار.. قالت:

- «هل تعطيهم موعدًا لبدء الإضراب؟».

- «سيكون هذا هو اليوم الثاني من مايو بعد عطلة عيد العمال. عندما ينجح إضراب المحلة سننقل نشاطنا لكفر الدوار. سيجد أمن الدولة بؤرة في كل مكان».

المجد لليسار.

يدرك محمد أن هذا كله وهم.. لكنه لا يجد الشجاعة في نفسه كي يبدو جبانًا. خطر له أن الجبناء الذين يعلنون أنهم جبناء شجعان جدًا... البطل هو الذي يرفض الانضمام لأصحابه الثوار الذين لا يؤمن بقضيتهم.. أحيانًا يحتاج الخوف إلى شجاعة هائلة كي تعترف به. يخيل له أن معظم بطولات التاريخ قام بها أشخاص خشوا اتهامهم بالتخاذل والضعف.

نظر مختار لساعته ثم قال:

- «العاشرة مساء.. سوف يحضر بعض الرفاق بعد قليل. لا أحب

أن يأتوا وأنتما هنا. الزحام يلفت نظر الأمن. وأنا على يقين من كوني مراقبًا.. أقترح أن ترحلا الآن».

المطر ينهمر في خفة، لا تكفي لأن تشعر بالبرد أو تضغط على أسنانك، لكنه يكفي لتشعر بالوحدة والوحشة وأن أحزانك الشخصية تنزف.

كان محمد يعرف يقينًا أن الأمور بلغت درجة خطرة، وأن الوطن أسير في يد سلطة لا تعي ما تفعله (أو تعي). مستقبل الأجيال القادمة أسود ولسوف يتساءلون عن سبب خنوع آبائهم وهم يرون الخطر قادمًا، لهذا كان يشعر بأن واجبه أن يفعل شيئًا، لكنه لم يجد الوسيلة بعد. فقط كان يدرك أن الكلام عن البروليتاريا ودكتاتورية الطبقة العاملة ونقابات العمال أمور مضى عهدها.

الإسلاميون أكثر تنظيمًا وأكثر واقعية، وتواجدهم في الشارع لا شك فيه، لكن تم سحقهم مؤخرًا لأن الحكومة رأت ما رآه هو، وأدركت أنهم القوة الوحيدة القادرة على الإزعاج .. لم يعد منهم سوى قطاعات حذرة صموت تفضل أن تسمع ولا تقول شيئًا.

كان يعرف ما سيفعله.. سيحرق هذه المنشورات [illegible] العودة للبيت ويزعم أنه قام بتوزيعها. كيف يمكن أن تثبت العكس؟

عزة تلصق جسدها به وهما يمشيان.. يعتصر يدها.

عزة جارته التي صارت أقرب الناس له.. لقاؤهما قصة لا تستحق السرد الآن. ربما في مناسبة أخرى.

السؤال الذي لم يجسر قط على توجيهه لها هو: هل كنتِ أنتِ؟ هل كان هذا جسدكِ؟

ليالي المراهقة على سطح البناية والمرقاب وغليان الشهوات.. كانت أكبر منه بأربعة أعوام، وهذا يجعلها صالحة جدًّا لتكون نفس

الفتاة.. لاحظ أنه لم ير وجهها بوضوح قط. كانت تعيش في بناية من تلك البنايات البعيدة التي يراها بالمرقاب من سطح داره، لكنه لم يجرؤ كذلك قط على أن يتأكد.. لو امتلك الشجاعة لطلب منها أن تقف في نافذة غرفة نومها وتلوح. كان يعرف منذ وقف على السطح في الظلام أن اسمها عزة.. لو كانت هي حقًا، فتلك أغرب مصادفة في التاريخ. كنت تتلصص على فتاتك قبل أن تصير فتاتك بسبعة أعوام.

لم يحاول أن يهدم هذا الوهم أو يؤكده. فقط كان ذلك الانجذاب الشهواني الكاسح، كأن عزة قد لخصت في جسدها كل رغبات مراهقته المحبطة.

لقد جعل منها صنمًا.. وصار عاجزًا عن الاقتراب من هذا الصنم ليستوثق إن كان من حجر حقًا.

كانت خريجة كلية الآداب، وكانت ثائرة ذات ميول ماركسية واضحة.. وكان التلاقي.

لعل عزة سبب آخر من أسباب امتناعه عن الفرار من مستنقع اليساريين. لا يريد ترك هذه المجموعة أبدًا.

* * *

كانت أمه غافية، وأخوه خارج البيت، وأبوه ميتًا كالعادة.

عندما دخل إلى المطبخ ليعد لنفسه بيضة مقلية وقام بتسخين رغيف خبز على الموقد. كوب شاي ولفافة تبغ أخيرة ثم النوم. لن يحاول أن يدرس شيئًا هذه الليلة.. يمقت كلية التجارة كالجحيم.

خرج بالمقلاة إلى الصالة حيث مائدة الطعام، ووضعها على قطعة من الخشب حتى لا تحرق الشرشف، ثم دس اللقمة في المادة الصفراء الشهية.

طرقات على الباب.

قلبه ينتفض مع كل ضربة.

نهض مسرعًا بفم ملوث بالبيض، وقد نهضت أمه مذعورة تبسمل وتحوقل.. الطرقات عنيفة واثقة وقحة. لهذا توقع ما سيجده عندما يفتح الباب.. هذه يد «داخلية» مميزة.. يعرفها بمجرد السمع. يد رجل غاضب يريد أن ينقذ نظام الحكم قبل الأوان.

هناك رجلان ضخمان بالمعاطف.. هناك ضابط.. هناك رجل يتأرجح بين ضابط ومخبر لا تعرف من هو.

ـ «محمد عدنان الفقي؟».

ولم ينتظروا الإجابة، بل اندفع الرجلان إلى الداخل.. وكان يعرف أن عليه أن يطلب منهما إذن النيابة لكن الكلمات انحشرت في حلقه.

التفتيش.. كتبه تسقط على الأرض، وتدوسها الأقدام.. أحذية ثقيلة كاسحة. لو كانت الحاجّة في حال طبيعية لأمرتهم بخلع أحذيتهم على مدخل الشقة حتى لا تتسخ السجادة والكليم.

ثم رزمة المنشورات في يد الضابط.. كان يجب أن يحرقها فورًا، لكنه كره أن يملأ الشقة بالدخان ليلًا.. تأخر أربع ساعات نَبّهه نافية. المنشورات التي تدعو عمال المحلة الكبرى للإضراب والثورة يوم ٢ مايو.. لا يحتاج الأمر لجدل كثير. هلم يا سادة.. دعونا ننته من هذا كله.

«الزحام يلفت نظر الأمن، وأنا على يقين من كوني مراقبًا.. أقترح أن ترحلا الآن».

ـ «محمد.. سوف تأتي معنا من دون شوشرة».

تصرخ الأم وتقول كلامًا كثيرًا مما تقوله الأمهات لكنه لا

يستوعب. كل الآباء يموتون وكل الأمهات يصرخن. وهو فأر في مصيدة.

النزول على الدرج.. سيارة البوكس الواقفة في الظلام تحت المطر الخفيف المنهمر.. التسلق للداخل والجلوس على الدكة الخلفية جوار المخبرين.. يرى قفا الضابط في قمرة القيادة ويخطر له أن الحلاق الذي يقص له شعره حمار.

لا أحد من الجيران يرى المشهد. كلهم نائمون في أحضان زوجاتهم يحلمون بأنهم ثاروا وقهروا الظلم وسادوا الأرض!

عندما يتحول الوطن إلى سجن كبير..

تُرى هل قبضوا على عزة؟

في سجن المنصورة

في الرابعة صباحًا راح أبو مندور يئن.

كان الجميع في الزنزانة نائمين، ورائحة الأقدام المعتادة تتصاعد للسقف، بينما تكور محمد في الركن يفكر: هل حان وقت أن يشعل لفافة التبغ التي معه أم لا؟ لربما فضل أن يرجئها إلى الصباح.. لكن الحاجة إلى النيكوتين تقتله.

هكذا جلس وراح يفتش عن الموضع الذي أخفى فيه علبة الثقاب، عندما سمع صوت أنين أبي مندور.

أبو مندور من الإسلاميين، وهو في الرابعة والخمسين من العمر، متلاحق الأنفاس، بدين، له وجه محتقن يذكرك بمرض ما لكنك لا تذكر ما هو. لحية شعثاء قصيرة.

أبو مندور كان يئن ويردد بعض الآيات والأدعية في الظلام.

لم يكن أبو مندور زميل زنزانة سيئًا.. في الواقع كان خدومًا متفهمًا، لكن هاجس الدعوة يسيطر عليه طيلة الوقت، وقد قرر أن محمد زنديق لكنه قابل للهداية، ولم يكن يفوّت موعد صلاة إلا ويدعوه لمشاركتهم.. من الطريف أن تكون الماركسي الوحيد في زنزانة فيها أربعة من الإخوان. هناك اثنان من الليبراليين أو الثوريين العاديين، ولكن وصمة الشيوعية كانت تطارده هو بالذات.

زحف على ركبتيه حتى صار بقرب أبي مندور. كان الرجل غارقًا

في العرق بلا شك، وقد وضع يده على موضع القلب. لا يجب أ
تكون أستاذًا في الأمراض الباطنية كي تعرف أن هذه نوبة قلبية.

ـ «ما بك؟».

ـ «هذا الألم العاصر.. لا أقدر على التنفس».

كان هذا واضحًا.

نهض محمد مسرعًا لدرجة أنه ارتطم بدلو البول، ثم وجه ركلات للنائمين.

ـ «هلم.. استيقظوا! أبو مندور مريض جدًا».

بدأ النائمون ينهضون.. وراح كل منهم يزحف في الظلام إلى موضع أبي مندور ليوجه له نفس الأسئلة الغبية.. ما بك؟ لكن الرجل كان يطوّر الإجابة من حين لآخر.. حزام حول صدره.. قبضة عملاقة حول قلبه.. ملزمة تطبق عليه.. بلدوزر يمشي على صدره... إلخ.

كانو يعرفون أن «أبو مندور» يتعاطى أدوية قلب، وهو كثير التردد على العيادة.. التشخيص واضح.. هذا ليس سوء هضم..

هكذا هرع أحدهم إلى طاقة الزنزانة.. صعد على قالبين من القرميد وتشبث بالقضبان صارخًا طالبًا نجدة..

ـ «أبو مندور مريض جدًا».

يتعالى صوت الدعاء، وهناك من جلس جوار المريض يفرك صدره وهو يتلو آيات قرآنية.

ـ «أبو مندور يموت».

مرت لحظات ثقيلة قبل أن يظهر وجه الصول عباس من الطاقة ليسأل بلهجته الريفية البوليسية عما هنالك.. شرحوا له الأمر بكلمات متعثرة، فهز رأسه وتوارى.

يركع محمد جوار أبي مندور ويهمس:

- «اصبر.. سوف ينقلونك للمستشفى حالًا.. هناك الكثير من الأكسجين. سترى.. أنا رأيت كيف يُحدث الأكسجين السحر مع النوبات القلبية. عرفت هذا مع أبي يرحمه الله».

يضغط أبو مندور على أسنانه ويئن.. ومن الواضح أنه يفقد الوعي من حين لآخر ثم يستعيده.

المشكلة هي الظلام الدامس.. لو كان النور مضاء فلربما بدت الأمور أوضح والذعر أقل.

المشكلة هي أن ساعة كاملة مرت، والذي كان متعلقًا بقضبان النافذة راح يصرخ صراخًا هستيريًّا ثم بدأ يشتم.

لم تكن هذه أول مرة. منذ شهر أصيب أحدهم بانسداد أمعاء، وظلت إدارة السجن صامتة خمس ساعات، وفي النهاية نقلوه إلى المستشفى حيث استأصلوا نصف أمعائه.. سياسة السجن هي ترك من يمرض يمرض.. فليشفه الله تعالى. المرض نوع مرغوب من تكفير الذنوب.

أبو مندور يعتبرك زنديقًا ويؤمن أنك عضو في مؤامرة شاملة لهدم الإسلام، لكنه في هذه اللحظات يطبق على كفك بكف مليئة بالعرق. لا بد أن نجاة زوجته نائمة الآن جوار ابنته سحر، وكلتاهما لا تعرفان أن إجراءات تحول واحدة منهما إلى أرملة والأخرى إلى يتيمة تدور في السجن على قدم وساق.

تنتظرهما مفاجأة مدهشة خلال يوم أو يومين.

ساعة أخرى تمر، وبعض المساجين أدوا صلاة الصبح في ضوء الفجر الخافت المتسلل من أعلى.

- «عاود الصراخ يا رأفت فلربما نسي ابن الـ...».

يصرخ رأفت ويهز قضبان الزنزانة بقوة. بينما يجلس أحدهم جوار

أبي مندور يتلو عليه ايات من القران. حالة عامة من الهياج ملأت الزنزانة وراح الكل يصرخ في عصبية.

في النهاية سمعوا المفتاح يدور في الباب ثم ظهر ثلاثة رجال أحاطوا بأبي مندور، وسألوه عما به. نفس السؤال، لكن الرجل كان قد حكى القصة عشر مرات وانتهت تشبيهاته اللغوية، لذا قال من بين أسنانه:

ـ «أنا... أموت».

ساد المكان بعض الصمت، ثم من مكانٍ ما ظهرت محفة يحملها سجانان، وبلا احتفال وضعوا المريض عليها وخرجوا من الزنزانة تصاحبهما اللعنات وضوء الفجر الشاحب.

أبسط ما يقال عن السجن هو أنه سجن.. أفكارك وأحلامك وأفعالك وحياتك تحت رحمة آخرين قد لا يكونون مبالين.

حان الوقت لمحمد كي يشعل لفافة التبغ.. يريد أن يشعر بالنيكوتين يتسرب لأعصابه.. فليكن هذا هو العزاء عن الرعب الذي شعر به.

أكسجين يا أبا مندور.. أكسجين.. سوف تتحسن.

نيكوتين لي أنا.. نيكوتين.. سوف أتحسن.

* * *

الكل كان ينتظر خبر الوفاة، وبدا لهم احتمال أن ينجو أبو مندور ويعود لهم نوعًا من الخيال المريض الجدير بالأطفال.

بالفعل عند الصباح وقبل موعد دورة المياه، انفتحت الطاقة وظهر وجه الصول عباس ليقول في لهجة تقريرية فيها اصطناع التأثر:

ـ «أبو مندور.. تعيشوا أنتم».

كانوا جميعًا ينتظرون الخبر، لكنهم برغم هذا شعروا بأنه غير حقيقي. عبثًا حاول محمد أن يتذكر أبا مندور وصوته ونصائحه.. لكن هذا كله تبخر. كأن الذكريات تموت مع صاحبها.

استغرق الرجال عدة ساعات كي يستوعبوا ما حدث. وكي يدركوا أن نفوسهم تمتلئ بالمرارة إلى حد غير مسبوق. لقد قتلت إدارة السجن أبا مندور والقتل عمد.

كانت النفوس تغلي. وأدرك محمد أنهم لن يكتفوا بالغضب والألم والدعاء على الظالم. إنها الثورة قادمة.

في سجن الذات

يوم الظُلّة... حياته كلها تكرار لهذه القصة.

يلقيه الميكروباص في مكان ما.

رائحة العرق واللزوجة والكراهية. كل من في الميكروباص يكرهني لسبب مجهول. كلهم يتمنون لي الرحيل أو الموت. تهمة أن توجد على قيد الحياة وأن تحتل حيزًا من الفراغ. لا يمكن أن تستمر الحياة بهذا الشكل.. لا بد من مخرج ما.

ينظر للسماء التي تطل في خجل من أعلى.. يأخذ شهيقًا عميقًا لكنه يكتشف أنه تعثر في بركة مجارٍ صغيرة. هذه شوارع لم تُخلق للنظر للسماء. كل شيء يجبرك على أن تمشي منحنيًا في ذل.

المصرف..

هناك حشد من الناس يقف بالخارج بانتظار فتح الأبواب. وهم قد وزعوا وريقات صغيرة على بعضهم بعضًا بها أرقام تجعل هناك نوعًا من الدور في الدخول.

يضع البادج النحاسي (محمد عدنان الفقي) ثم يدخل القاعة الواسعة، ويفتح جهاز الكمبيوتر، ثم يجلس خلف النافذة ينتظر الرقم القادم. متأنق كما ينبغي أن يكون، وربطة العنق ممتازة والقميص ذو الكمين القصيرين يوحي بأن هذه مؤسسة راقية.

يطلب كوبًا من الشاي ويشعل لفافة تبغ بسرعة، مع أن رئيسه لا

يقبل التدخين. هناك شيء من أسلوب التلاميذ في الطريقة التي يدخن بها بسرعة قبل القبض عليه.

الليلة العسيرة أمس. تصحو منها لتكتشف أنك مرهق جدًا وهذا لا يتناسب مع بداية يوم. أنت تفقد قواك الجنسية بلا شك وعليك أن تقبل هذه الحقيقة.. لربما كان عليك أن تذهب لطبيب أمراض ذكورة، لكنك تخشى لحظة الاعتراف بأن هذا حقيقي.

والخزي!

الخزي أمام الزوجة وكلامها الكثير عن أنه لا توجد مشكلة، بينما أنت تعرف أن احتقان حوضها يقتلها. اليوم ستمضيه بظهر محطم إلى نصفين. ستزداد عصبية وتتشاجر في المدرسة وتصفع طفلين أو ثلاثة.

ما هو السبب؟

السبب هو أنك اعتدت أن مصر تعكس حالتك النفسية والجسدية. كنت في ذروة الخصوبة والعنفوان عندما كانت مصر بخير نسبي، ثم بدأت مصر تنهار في كل شيء، ومع كل انهيار تفقد أنت أرضًا.. هناك جزء من رجولتك يضيع في كل مرة. والهموم تبتلع الهرمونات كأنها لقيمات خبز.

تحلم بأن تكون من الحيوانات المعتادة التي تتلقى الركلات والصفعات والإهانات، ثم تتحول إلى آلهة عندما ينفردن بالزوجات.. لربما كان السبب هو الانتقام. الجنس طريقة معروفة للانتقام في المجتمع الشرقي منذ زمن. لكنك لست منهم.. عندما تُهزم فأنت تُهزم في الفراش وخارجه.

السبب الثاني هو أنك لا تحب زوجتك ولا تشتهيها.. لقد وجدت في نفسك القليل من الغريزة الحيوانية التي سمحت لك بإنقاذ ماء

الوجه في البداية، لكنها انتهت الآن.. كان يساعدك أن تتذكر لحظة تجرد عزة كما رأيتها في تلك الليالي.. كان هذا يجعل الدم يغلي في عروقك، لكن مع الوقت عرف جسدك هذه الحيلة ولم يعد ينخدع.

إن زوجتك لا تمثل لك شيئا أقرب ولا أعز من أريكة الصالة، وإن كانت الأريكة أكثر أهمية وجاذبية.

العميل الأول يطلب سحب مائتي جنيه.

لماذا ترتجف يا أبله؟ كل الناس يتعاملون بعصبية وتوتر مع موظف المصرف ومع الجزار، كأن هذا ليس من حقهم، وعلى العموم يبدو أن كل مصري يتوقع اللحظة التي يذهب فيها لسحب مال فيرفض الصراف ويقول له: ليس لديك مال عندنا.

مائتا جنيه!

الناس يتعاملون بمبالغ ضئيلة مضحكة وقد صار من العسير أن تجد واحدًا ثريًا. الانهيار الاقتصادي قد مس الجميع. أمس ذهب ليبتاع لحمًا فاكتشف أن ما بقي من الراتب لا يكفي إلا لشراء نصف كيلوجرام.

بعت سيارتك الحقيرة منذ ستة أشهر، وسرعان ما تبخر ثمنها.. لكنك صرت من أبناء الميكروباص.

تتذكر مراهقتك عندما كنت تقف على السطح.

المراهقة التي بدأت بالنجوم ثم انتهت بجسد عزة.

في تلك الأيام كنت تؤمن أن الكون عند أطراف أناملك.. الغد مذهل لدرجة أنه مخيف. لو قيل لك إنك ستقضي باقي حياتك كموظف في مصرف بلا أمل في الترقي لسخرت منه.

والأدهى أنك تحايلت وبحثت عن واسطة بسبب تاريخك السياسي المقلق.

سوف ينهي أعمال المصرف فيبحث عن ميكروباص آخر. ثم يذهب ليبتاع بعض السمك المشوي. جدول اليوم يحتم أكل السمك المشوي، بينما الفاصوليا ليوم الثلاثاء والمكرونة ليوم الأربعاء. سوف يبتاع السمك ولسوف يصيبه الهلع من المبلغ الذي أنفقه.

سيعود للبيت حيث تنتظر الزوجة.. لن يتبادلا أي كلمات، فشبح ليلة أمس يخيم على المكان. زوجته لا تصدق أنه فقد رجولته، لكنها تؤمن أنه يشتهي كل نساء الأرض ما عدا واحدة. لو سمحوا له بالعبث والانحلال فلسوف يتحول إلى الإله «مين» الفرعوني رمز الخصوبة.

بعد ساعتين يذهب للعمل الثاني، وهو عمل غير رسمي، يجلس فيه ككاشير في مطعم صغير. وينتهي اليوم في العاشرة مساء، فيعود للبيت ليشاهد شيئًا في التلفزيون ثم يخلد للنوم، عالمًا أن الغد يوم آخر.

هل كانت طموحات الماضي هباء؟ وكل أيام السجن؟ كأنك فعلت هذا كله على سبيل التسلية وحتى لا تعبث في أصابع قدميك..

نوع من كسر الملل.

يوم الظلة.. لا مفر.

ألعن شيء في العالم هو الكفاح المضني الذي تكتشف أنه هباء. والخبرات المتراكمة لا تصلح لشيء.. فهو لن يكتبها في رواية مثلًا. فقط الأدباء يمكن أن ينتفعوا بتجربة موت قريب أو السجن.

لم يعد هناك أفق سياسي في البلد.. لا أحد يأمل سوى في الوجبة التالية. لقد نجحت الحكومة في أن تستخرج الصرصور الكامن في نفس كل مواطن. وهو الصرصور الذي يهلل فرحًا لأن هناك الكثير من الطعام في صفيحة القمامة. الحكومات تزداد سوءًا... ليس من حق المصريين أن يحلموا بالتغيير.. ليس من حقهم أن يثوروا ثانية.

كلما نظر للغد وجده ممتدًا لما لا نهاية.. ربما ينتهي بالشلل والعمى فيما بعد.

كان يدرك في فزع أنه سجين في ذاته، ولا يستطيع الهروب إلا بالموت.

ثم خطر له أن يفر من ذاته إلى خارج مصر.. لربما لن تتنبه ذاته لرحيله وتبقى في هذا كله، بينما ينعم هو بوجوه جديدة وتجارب جديدة بعيدًا عن تلك الذات.

من يدري؟ لربما استعاد رجولته الضائعة كذلك!

في سجن المنصورة

الزغبي كان أول من تكلم.

قال لهم بصوت مبحوح:

ـ «هذه ليست أول مرة.. يريدون قتلنا جميعًا».

ونظر إلى حيث كانت حشية أبي مندور ووسادته والمصحف الخاص به وكتاب صغير للأدعية.. وارتجف. كان حضور أبي مندور قويًا وقد شعر الجميع بأنه يجلس معهم في الزنزانة ينتظر.

عندما جاء الظهر ومعه الغداء المكون من العدس والخبز، أعلن الزغبي أنه مضرب عن الطعام.

كان القرار خطيرًا، لأن إدارة السجن قادرة على تحويل حياتهم إلى جحيم حقيقي.. هناك درجات من جهنم، وهم لم يكونوا في أسفل الدرجات بعد.

عندما جاء المساء أضرب عبد الباري وخميس.. أعلنا ذلك.

جاء الصول عباس ففتح باب الزنزانة وألقى نظرة، ثم صاح بصوت آمر:

ـ «من الذي امتنع عن الأكل؟».

ارتفعت يد الزغبي.. ثم يد أخرى.. ثم يد ثالثة.. لا يدري محمد كيف ولا لماذا ارتفعت يده معلنًا إضرابه. كان الغضب في النفوس

كابسحًا فلم يترك موضعًا يسمح بالجوع.. الجوعى يغضبون لكن الغاضبين لا يجوعون.

هدد الصول وأرغى وأزبد.. ثم شتمهم وقال:

- «سوف نرغمكم على الأكل.. سنضع خراطيم في شرجكم ونصب الطعام صبًّا.. ليكن هذا هو الإنذار الأخير».

ثم غادر الزنزانة غاضبًا.

ظلوا على الأرض يتبادلون النظرات.. مهما كان ما سيحدث فهو ليس أسوأ شيء محتمل. إنهم رجال ولهم إرادة ويستطيعون أن يغضبوا.

قال خميس الذي يبدو أنه قضى ثلاثة أرباع حياته في المعتقلات:

- «سوف يبلغ الضابط النوبتجي ثم مدير السجن..هذا حتمي».

تساءل محمد في توتر:

- «ومتى ينتهي هذا؟».

- «لن ينتهي إلا إذا نفذوا مطالبنا».

حقًا.. لن نوقف الإضراب إلا إذا نفذوا مطالبنا. لكن ما هي مطالبنا؟

- «ما هي مطالبنا؟».

صاح عبد الباري بأعلى صوته:

- «نحن لسنا صراصير.. نريد أن نعامل كالبشر.. نريد أن يُنقل المرضى للمستشفى بسرعة بدلًا من المراوغة. نريد زيادة أوقات الزيارات.. نريد...».

وتحسس أسفل بطنه وهتف:

- «أنا مصاب بفتق مزمن ينخنق أحيانًا.. لم يفحصني أحد ولم يرسلوني للمستشفى».

تعالى صوت آخر:

- «ربو مزمن».

صوت ثالث:

- «قرحة مزمنة».

صوت رابع:

- «التهاب مرارة».

صوت خامس:

- «سكري غير مستقر».

مع الصباح جاء ضابط مكفهر الوجه ايفهم، ثم بعدها جاء ضابط ذو وجه سمح نوعًا، ثم بعد قليل ظهر العميد حسام مدير السجن شيطاني الوجه، وكانت عيناه تشعان نارًا وقد استطال شاربه واحمر لغده، وكما هي العادة أمرهم بأن يوقفوا الإضراب وإلا كان عقابه مخيفًا.. لا يوجد مزاح هنا!

«لو كنتم تظنون أنه يمكن الضغط علينا فأنتم واهمون».

كان محمد يشعر بالجوع يعتصر أحشاءه، لكنه أدرك أنه سيستمر في إضرابه. المهم ألا يمنعوا التدخين كذلك، برغم أن دخان السيجارة كان يدخل إلى أحشائه الخاوية كأنه ثاني أكسيد الكبريت، أو الغاز الذي يفضون به المظاهرات. كلما شعر بالجوع اتجه لبرميل الماء وشرب جرعات عدة ثم يعود لرقدته.

بدأت ألعن عملية «تكدير» مر بها هؤلاء المساجين من قبل. التفتيش صار عدة مرات في اليوم، وفي كل مرة تصادر عشرات الأشياء ليست أسوأها السجائر. هناك أقلام وهناك ورق.. كان أحد المعتقلين يحتفظ بقطعة حشيش صغيرة، لكنه يخفيها تحت البلاط

ويسد الفرجات بالحلاوة الطحينية المحترقة على طريقة مساجين صنع الله إبراهيم في رواية «تلك الرائحة». حتى هذه صودرت.

الجوع.. الطعام يبدو أجمل من أن يكون حقيقيًا.

لكن الإضراب يتزايد ويتسلل لعدة زنازين أخرى. لم يضِع دم أبي مندور هباء كما هو واضح.

وعندما جاء المحامون أبلغهم المساجين أنهم مضربون عن الطعام. هكذا وعدوا بأن يتقدموا ببلاغ للنائب العام. أي تصرف جماعي في السجن يسبب توترًا سواء كان إضرابًا عن الطعام، أو ثورة، أو حتى تسممًا غذائيًا.

جاءت لجنة حكومية من حقوق الإنسان تفقدت كل شيء بسرعة، ورأت أن المعاملة إنسانية جديرة بأرقى سجون العالم، والتهم أفرادها الكثير من المكرونة باللحم المفروم، وإن اعترضوا على كثرة الملح في الدجاج.

أما ما حدث بعد ذلك فشيء يفضل محمد أن ينساه.

بالقوة قيدوه بالأصفاد عامدين إلى السرعة والعنف معًا. ثم تم نقله إلى سيارة إسعاف. بعد نصف ساعة وجد نفسه مقيدًا بالأصفاد راقدًا في فراش في المستشفى العام.

كان الآخرون هناك. ولم يتصور قط أن يوجد هذا القدر من العذاب في العالم. أن تتمنى أن تحك أنفك أو تحرك ظهرك لأنه يتوجع فلا تقدر. أن تقضي أربعًا وعشرين ساعة مقيدًا ما عدا المحاليل التي تثبتها لك ممرضة بوجه لا يتغير.

يقول لك الشرطي الذي يحرسك:

ـ «توقف عن الإضراب.. ستموت هنا.. لن يرحمك أحد».

لكن أحشاءه قد تقلصت بحيث نسي طريقة الأكل والهضم..

يشعر كأن بطنه حقيبة جلدية تركت زمنًا فصارت غير قابلة للفتح. لن يوقف الإضراب. سوف يتحمل إلى النهاية.. سوف يدرك هؤلاء من هو الطرف الأقوى أو على الأقل الطرف الأشجع.

الخبرة الأسوأ كانت تنتظر، عندما جاء طبيب شاب وثبت وجهه بيد، بينما باليد الأخرى راح يصوب أنبوبًا من البلاستيك على طاقة أنفه.. شعور لا يحتمل.

ـ «ابلع.. هيا.. ابلع».

شعر بالشيء الغريب في حلقه فراح يبلع مرغمًا لمجرد أن ينتهي هذا الشعور، ووضع الطبيب المسماع على معدته للحظات. ثم هز رأسه في رضا وثبت طرف الأنبوب إلى أنفه بالشريط اللاصق بإحكام. بعد هذا صار مشهدًا معتادًا أن يرى ذلك المحقن العملاق المليء باللبن يفرغونه في طرف الأنبوب.. فيشعر بالسائل الدسم في معدته.. يمكنهم عمل هذا إلى الأبد وإلى أن يموت بالشيخوخة.

أدرك مع الوقت أنه لن يستطيع الإضراب لما لا نهاية.

خطر بباله أن هذا البلد سجن كبير لا يصلح للحياة.

السجن كبير يا سادة.. السجن كبير

إن فتحوا الباب فلن أخرج.. فالسجن كبير

قالها فاروق جويدة يومًا ولم يستطع نسيان هذين البيتين قط، لكنه كان موقنًا ـ على عكس القصيدة ـ من أنهم لو فتحوا الباب فسوف يخرج.. هناك سجن الذات.. فلو هربت منه فهناك سجن الوطن.. لو هربت منه فهناك سجن الكون.. في النهاية أنت رجل حر..

هناك مكان ما في العالم لا يموت فيه السجناء مرضًا، ولا يرغمونك على شرب اللبن بأنبوب.

في سجن الوطن

هكذا وقف في صف المطار حاملًا جواز السفر.

ريقه جاف وقلبه يتواثب. ينظر لضابط الجوازات الذي يعمل ببرود ويلقي نظرة سريعة للوجوه ثم يضع خاتم المغادرة.

وقف محمد خلف الخط الأصفر في حياء وخجل، كأنه لا شعوريًا يعتقد أن بعض التهذيب يمكن أن يجعل الضابط يختم له جواز السفر. هذا رجل خجول محترم.. دعوه يمر..

الليل والنجوم.. عزة التي تتجرد من ثيابها.. مختار والمنشورات وواحد من الرفاق بالتأكيد هو الذي أبلغ أمن الدولة.. أبو مندور يموت في الظلام.. المصرف والناس يتزاحمون بانتظار الدخول. كل هذه الرؤى تتزاحم في ذهنه وهو يدرك أن هناك دقائق تفصله عن مفارقة هذا كله.. كل شيء يتوقف على هذا الشاب الوسيم كالح الوجه الذي يجلس خلف الكاونتر حاملًا خاتم الخروج من جهنم.

أشار له الضابط برأسه فاتجه هناك.

ناوله جواز السفر بيد راجفة، ثم راح يتظاهر بأنه يراقب الفتيات الحسناوات. لو كان ممنوعًا من السفر فهي النهاية.. أستراليا تنتظر في ملل وقد بدأت تقلق.. هل تنوي المجيء يا فتى أم لا؟ لن تنتظر أكثر. سترحل وتتركك.

الضابط يتأمل الجواز ثم يشير له كي يقف جانبًا.

إنها الكارثة! هو ممنوع من السفر. لا توجد طريقة للخلاص من هذا البلد كما هو واضح. مصر مغناطيس قوي لا يمكن الإفلات منه.. لكن كيف؟ ليست عليه قضايا، والذين سبق اعتقالهم لا يمنعون من السفر لهذا السبب.

فجأة أشار له الضابط وختم جواز السفر بلا مبالاة ثم ألقى له بالجواز!

أخيرًا نبضه يعود.. يعبر البوابة وهو غير مصدق.. لقد خرج!

انتظريني يا أستراليا أرجوكي.. لا ترحلي.. أنا أجدّ السير نحوكِ بساقين من عجين.

* * *

هناك كان جالسًا على الأرض معصوب العينين يشعر بالإهانة.. هو من الطراز الذي يشعر بالاختناق إذا عصبت عينه، كأنه يتنفس عبر مقلتيه. لذا كان في أتعس حال.

في الوقت نفسه يتساءل عن عزة.. هل تم اعتقالها هي أيضًا؟ سوف يغتصبونها حتمًا طبقا لقواعد أفلام مراكز القوى إياها.

ثم خاطر آخر يداهمه ويقلقه. واحد من الرفاق خاننا وأبلغ عنا.. لقد كان رجال أمن الدولة يعرفون ما يبحثون عنه.. مَن الذي خاننا؟ الكل وارد، لكنه لن يتحمل طبعًا أن يكون الخائن هو عزة أو مختار. هذه أشياء لن تعرفها أبدًا..

شعر بمن يجذبه إلى مكان ما.. شعر بهواء التكييف ورائحة التبغ.. وشعر باليد تديره باتجاه معين. ثم سمع صوتًا هادئًا يقول:

- «اجلس يا محمد».

هناك من ساعده على الجلوس على مقعد خشبي. تحسس بيده فشعر بمكتب تحت كوعه الأيمن.

ـ «هل تدخن؟».

ابتلع ريقه وهز رأسه أن نعم.. هذا الرفق المبالغ فيه يدل على أن هناك الكثير من العنف القادم. أو ربما يدخل لخشبة المسرح ضابط ثانٍ فظ خشن، ليلعبا عليه لعبة «الشرطي الشرير ـ الشرطي الطيب» أو ما نطلق عليه «واحد يضرب وواحد يلاقي». لكن الضابط الشرير لم يظهر. على كل حال وجد لفافة تبغ بين شفتيه وأدرك أن هناك من يشعلها له. تحسس المكتب جواره فوجد مطفأة.. راح يصوب عليها.

كان محمد مريحًا بالفعل.

ـ «هل هذه المنشورات تخصك؟».

وتلا عليه مقطعًا منها فهز رأسه موافقًا.

لم يتعبهم قط.. اعترف بحيازته للمنشورات ـ كيف ينكر؟ ـ فقال الضابط:

ـ «أنت زبون مريح.. في العادة يزعمون أننا من دس المنشورات ولا يعرفون كيف وصلت لبيوتهم».

اعترف محمد بكل شيء، وحكى عن مختار وعن الخلايا التي كونها وعن كفر الدوار والمحلة الكبرى وكوادر الجامعة.. قال لنفسه إنه خائن واشٍ بالجماعة، لكن هذا أقرب للعدل، فهو هنا بسبب خيانة.. أحد الرفاق المناضلين الذين يقدسون «لينين» ويعبدون «سان سيمون» قد وشى به.. دعهم يتلقون عقابهم.

طالت الجلسة نصف ساعة، ولا بد أنها كانت أروع جلسة تحقيق مر بها الضابط.. لقد كانت المعلومات تتدفق كنهر.. لكن محمدًا لم

يذكر حرفًا عن عزة. لو لم يعرفوها فلا تضعها في الصورة، ولو كانوا يعرفونها فليفعلوا ما يريدون بعيدًا عني.

وفي النهاية نقلوه إلى الحجز.. هذه أول ليلة يمضيها خارج بيته في حياته. لقد صار طريد القانون.

بعد يومين عرض على النيابة وهناك حكى كل شيء من جديد... سوف تكون هناك محاكمة، وسوف يكون هناك سجن يطول.. وفي السجن سوف يواصل دراسته... وسوف يفرج عنه في إحدى المناسبات التي يكون فيها بال الحاكم رائقًا.. أي أنه سيظل في السجن ثلاثة أعوام فقط.

* * *

كل هذه الذكريات راحت تلاحقه في صالة المغادرة.

وعندما جاء صوت من يدعوهم لركوب الطائرة، تنفس الصعداء.. ظل حتى آخر لحظة يتوقع أن يأتي ضابطان ليطلبا منه في تهذيب حازم أن يأتي معهما ويلغيا رحلته.. حضرات المسافرين.. نأسف لتأخير رحلتنا رقم ١٣٤١ إلى سيدني لأن هناك من يدعى محمد عدنان الفقي على متن الطائرة، وهو معارض سياسي وسجين سابق وزوج فاشل، لكن نرجو ألا يقلق السادة الركاب فلسوف يتم اعتقاله حالًا وندس عصا مكنسة في مؤخرته. هذا الصنف من البشر لا يتصرف بصورة لائقة إلا بعد تثبيت قطبَي سلك مكهرب إلى حلمتيه.

أعصابه كانت قد بلغت ذروة التوتر، وأدرك أنه سينام كجثة هامدة في الطائرة.. لا بأس.. هناك اثنتا عشرة ساعة من التحليق واجترار الذكريات والمطبات الهوائية وادعاء الحنين.

المهم أن يغادر سجن الوطن.

حمل حقيبة يده الصغيرة على كتفه ولحق بالطائرة، ونظر نظرة سريعة لقاعة المغادرة الخالية. لم يكن يعرف أنه لن يرى مصر ثانية للأبد.

العجلات تركض، ثم صار محمد في وضع مائل وامتلأت أذناه بالفقاقيع.. انتهى الأمر.. هو حر.

في سجن الكون

في سن العشرين وقف محمد ينظر للسماء.

أثار دهشته أنه لم يعد ينبهر بفكرة الكون غير المتناهي.. كانت تبهره فيما سبق، وكان وجهه يتقلص إرهاقًا كلما فكر في أنه بعد الكون يوجد بُعد آخر.. وبُعد آخر.. لا يوجد جدار ولا توجد كرة زجاجية نسبح فيها.. إنها الأبدية التي لا يمكن فهمها والتي تحطمنا تحطيمًا.. لا نهاية.

الفكرة التي كانت تفعمه قشعريرة في مراهقته بدت له سخيفة لا تستحق هذا الاهتمام.

لقد صارت قدماه على الأرض فعلًا.

السؤال هو: هل جاء هذا كله من اللحظة التي حول فيها عدسة المرقاب لأسفل؟ بالطبع لا.. الحياة أعقد من هذا.

المشكلة كذلك هي الشكوك في الدين التي راحت تطارده، والتي راح يدوسها بالحذاء كصراصير، لكنها كانت تتكاثر.

كان يفكر: الكون كبير جدًّا معقد جدًّا.. النجوم الخضر والأقزام الحمر والكواركات والثقوب السود و... و.... الكون معجزة، وهذه المعجزة تجعل الأديان ضئيلة جدًّا بالمقارنة. الإله العظيم الذي خلق هذا المجد كله، هل يضايقه حقًّا أن تختلس النظر لجسد جارتك؟

ولماذا يتضايق لو أكل المسلم في نهار رمضان، أو الْتهم المسيحي قطعة لحم، أو عمل اليهودي في يوم سبت؟

كانت هذه الأفكار تطارده بقسوة، حتى صارت أقرب للوسواس القهري، وقد راح يغرق في الدين محاولًا الهرب من تلكم الهواجس.

الكون كبير جدًّا معقد جدًّا، لكنه يكون ضيقًا جدًّا عندما تحاصرك الهواجس والشكوك. من المخيف أن تدرك أن أصدق عاطفة شعرت بها في حياتك كانت رؤية عزة.

* * *

بعد خروجه من السجن كانت روحه مفعمة بالجروح.

إنها التجربة التي لا تصير حياتك بعدها مثلما كانت قبلها أبدًا. إنها الخبرة التي لا تتمنى أبدًا أن تخبرها. إنه الاغتصاب النفسي الكامل الذي يترك روحك ممزقة ملقاة جوار جدار. إنه العجز التام بالرهن..

قيل له أن يتزوج.. ووعده البعض بأن يجدوا له عملًا يناسب شهادته.

لكنه كان يفكر في الكون.. الكون الذي صار ضيقًا وتحول لسجن كبير. سجن لا يمكن الفرار منه إلا إذا كنت روحًا.

اكتئاب عميق سيطر عليه وصار قليل الكلام. واعتاد أن يبقى في غرفته عدة ساعات. الظروف مؤهلة جدًّا للجنون. ربما يدمن الحشيش أو الخمر، لكن يحتاج هذا لوقت.. ليس من السهل أن تصير حشاشًا أو سكيرًا . يحتاج هذا لعمل شاق ومواظبة.

ما أطول اليوم! تصحو صباحًا وأنت لا تعرف كيف تمر الست عشرة ساعة المتبقية على الليل..

بعد ستة أشهر كتب مذكرة قصيرة وداعًا للعالم، وقال إنه فقد مفاتيح الحياة ولا يرغب في المزيد.. ثم إنه أحضر شريطًا كاملًا من الباراسيتامول وابتلعه مع زجاجة من الكولا. بعد أعوام عرف أن هذه جرعة غير كافية بتاتًا.. الجسم البشري يتحمل جرعات هائلة من الباراسيتامول.

لكنه رقد في الفراش، وراح لبعض الوقت يرثي لنفسه ويتصور دموع أمه الملهوفة عندما... عندما تسمع بالخبر ولا تراه لأنها فقدت البصر على كل حال. سوف تلحق به سريعًا جدًا فهي في آخر أيامها بلا شك، وسرعان ما نام.

....

....

هناك كان وحده في الظلام، يمشي وسط ممرات وعرة متشابكة.. أقرب لكهف عملاق مظلم. هناك هوابط تتدلى من السقف، مع تراكيب جيولوجية غريبة.

كان يتحسس في الظلام شاعرًا بالورطة التي هو فيها.. سوف يضل طريقه إلى أن ينهك ويسقط ويموت.

صرخ مرارًا لكن ـ ككل الأحلام ـ كان الصراخ ينحشر في حلقه أو هو أوهن من أن يسمع.

كان حرًا.. يمكنه أن يضل طريقه للأبد، لكنه برغم هذا سجين.

خطر له في الظلام أن هذا الكهف هو الكون ذاته. مهما اتسع ففي النهاية هناك سقف من المجرات والسدم لن تستطيع أبدًا أن تخرقه.

فجأة رأى بصيص نور.. بصيص نور واهنًا من بعيد، لكن يمكنه أن يمشي نحوه.

وكان هذا من طراز الأحلام المتجلية. أي أنه كان يعرف أنه يحلم، وخطر له أن هذا النور هو ما يراه المحتضرون دومًا.. يصف العائدون من الموت في كل مرة.

وعندما دنا من النور أكثر وهو يتعثر، رأى وجه عزة. عزة هنا! الظلام والخلوة.. هذه فرصة قلّما تسنح له، لكنه بالتأكيد لا يملك المزاج الرائق. لا أحد يمارس طقوس الغزل في مقبرته.

كانت عزة تتقدم نحو النور.. تبتعد.

ثم التفتت للخلف وقالت بصوت واضح:

ـ «هاجِرْ».

لم يفهم فعادت تكرر بصوت أعلى:

ـ «هاجِرْ».

....

ثم تلاشى الحلم وأدرك أنه نائم في فراشه، وأن الضوء في الحقيقة هو ضوء النهار يتسلل من خصاص النافذة. نظر للرسالة وكوب الماء والشريط الفارغ، وأدرك أن عدة الموت هذه لم تحقق المطلوب منها. كل هذا الباراسيتامول جعله ينام بعمق لا أكثر. ليست هذه أول مهمة يفشل فيها ولن تكون الأخيرة.

ظلت هذه الرؤيا تطارده في كل يوم بعد ذلك، حتى وهو يتزوج بالطريقة المعتادة.. لم يتزوج عزة طبعًا، فقد رحلت إلى الإسكندرية ولا يعرف عنها سوى أنها تزوجت.

ظلت الرؤيا تطارده عندما ظفر بتلك الوظيفة الرتيبة.

هل الهجرة تجعله يفر من سجن الكون؟ يفر من شكوكه وذكرياته وحيرته وافتقاره للأمن؟ بدا له هذا غريبًا وغير منطقي.

لكن في أرض غريبة وسط أناس آخرين لربما صار شخصًا آخر، وعندها سوف يبدأ من جديد بعقل لا يرى حوله كل هذه القيود.

كانت هذه هي البداية!

في الولايات

١

قد يعيش المرء من دون مَسكن أو مال أو طعام أو ملبس.. قد يعيش من غير مستقبل أو من غير دين، لكنه لا يستطيع أن يعيش لحظة واحدة من دون حلم. إنها تكون نهايته.

مكرم ميخائيل

«العربي التائه»

* * *

الفكرة كانت تلاحق مكرم بشكل مجنون.. وفي كل موقف وكل مناقشة كان يجد سطورًا يضيفها لكتاب العربي التائه. قطرات المطر تتكاثر ببطء فيمتلئ الوعاء ثم يفيض.

من الصعب أن تلقى مَن قضى حياته كلها يتبنى فكرة.. يربيها.. يغذيها.. يحتضنها.. يمنحها الدفء.. وفي النهاية تورق الفكرة وتزدهر.

كان مكرم يحلم.

يحلم بأن يلتقي كل عرب المهجر في موضع واحد.. المسلمون يلتقون عند الحرمين في موسم الحج، ثم يتفرقون من جديد.. هناك عرب مسلمون ومسيحيون في كل بقعة من بقاع الأرض.. في أمريكا. في الصين.. في روسيا.. في اليابان.. في أستراليا.

في كل موضع هم أقلية.. صحيح أنهم متميزون بارعون، وقد شحذ كونهم أقلية قدراتهم وبراعتهم. كل الأقليات تتميز وتبرز أفضل ما فيها، لكنهم في النهاية قلقون خائفون يصنعون لأنفسهم

«جيتو» خاصًا بهم حيث يمارسون عاداتهم ويتكلمون لغتهم ويأكلون أطعمتهم. وكانت الحياة ممكنة، لولا ظهور النزعة العدائية الواضحة لدى العالم. أرابوفوبيا. العالم يزداد عنصرية ويزداد رفضًا للآخر.. لا شك في هذا. لا يوجد موضع في العالم لا يلقى فيه العرب منظومة اضطهاد تبدأ بقلة التهذيب واللامبالاة ثم تتصاعد ببطء مرورًا بالضرب والإهانة صعودًا إلى الذبح والحرق.

نفس ما كان العالم يتعامل به مع اليهود يومًا ما. اليوم انتقلت كل هذه العوامل نحو العرب. من السهل جدًّا أن يظهر مجنون في مكان ما يطالب بوضع العرب في أفران الغاز أو يقتلهم بالزيكلون ب.

الفكرة كانت تلاحق مكرم.. وهو قارئ جيد للتاريخ، دعك من أنه أستاذ علوم سياسية.

كان مكرم يحلم..

يحلم بدولة عربية واحدة يجتمع فيها العرب بعدما تشتتوا في العالم، وبعدما ترك أغلبهم بلاده الأصلية إلى الغربة.. هناك لن يضطهدهم أحد ولن يخيفهم أحد.. سوف تكون دولة قوية لأنها تضم عقولًا متقدمة ذكية.. ولأنها ستمزج بين ما تعلموه في كل الحضارات.

يسمع صوت أم كلثوم يترنم بأغنية وطنية شجية، ويسمع عبد الحليم حافظ يقول: «ما تغيب الشمس العربية طول ما انا عايش فوق الدنيا»، وعبد الوهاب يلحن: «وطني حبيبي الوطن العربي».. صوت فيروز يغني: «لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي».

كل هذه الأغاني التي يسمعها على جهاز الكمبيوتر والتي حمّلها من شبكة الإنترنت. لقد صنع منها أكثر من «تورنت» ليحملها من يريد.. وكان كلما فتح البرنامج ووجد أن هناك عشرين واحدًا

يحملون التورنت في أي وقت من اليوم، كان يدرك أن الشمس العربية لم تغب. كل هؤلاء عرب طبعًا.. أعلام كثيرة لا حصر لها.. أوروجواي وكولومبيا.. فرنسا والصرب.. تنزانيا ونيوزيلندا.. كلهم هناك يشعرون بالقشعريرة مثله.. كلهم سيبيتون غدًا وهم يسمعون «وطني حبيبي الوطن الأكبر».

هناك في كل ركن من الأرض رجل يجيد القراءة بالعربية ويعرف من هو صلاح الدين ومن هو المتنبي وأبو العلاء المعري.

يجب أن يلتقي هؤلاء في مكان واحد ووطن واحد.

كان هذا الحلم يحركه دومًا كأستاذ للتاريخ في هارفارد، ولما انعقدت الصداقة بينه وبين النائب الأمريكي «جوناثان»، فإنه حرص أن ينقل له هذا الحلم.. على دفعات طبعا.

كان يحلم..

يحلم بكتاب «العربي التائه» الذي يكتبه بالعربية وسوف يترجم للغات أخرى، ويوزعه في كل أرجاء الأرض ويضعه على شبكة الإنترنت. سوف يقرؤه الجميع، لكن العرب فقط هم من سيلتقطون الإشارات الواضحة في هذه الكلمات.. سوف يتحمسون ويتحركون.

كان قد بدأ وضع أول ثلاثة فصول من الكتاب على شبكة الإنترنت، ولاحظ أن هناك إقبالًا كبيرًا عليه.. لا بد أن من يقرءونه هم ذات من يحمّلون التورنتات.. عشاق أم كلثوم وفيروز.

هناك عالم عربي متكامل على الإنترنت.. تفاسير قرآنية.. كتب وأغانٍ.. أفلام عربية قديمة.. كأن العالم العربي الحقيقي موجود هناك في الفضاء السايبري.

سوف ينفذ خطته.. مهما طال الأمر فلسوف يفعل ذلك.

٢

هناك عند حافة العالم سوف نغتسل من أوجاعنا وغربتنا.. وعند حافة العالم نولد من جديد بلا رجس.. بلا مخاوف.. بلا ندم.

محمود راغب

* * *

بالفعل عالية ذات عينين عربيتين.. فكر في هذا وهو يراقبها تتجمل أمام المرآة في الصالة، بينما جلست صفية على الأريكة تداعب الكلب اللبرادور جسور. عالية ذات عينين عربيتين ولا بد أن تكون أحمق كي لا تخمن أنها عربية أو من أصل عربي، ما السبب؟ لماذا لا تكون إسبانية أو من أمريكا اللاتينية؟ لماذا لا تكون تركية أو فارسية مثلًا؟ لا يعرف.. لكنها عربية.. أي معتوه يقدر على فهم هذا.

تعيد طلاء شفتيها وهي متوترة قلقة، بينما تقف أمها سارة على بُعد خطوات كأنها فنان يتأمل لوحته من بعيد ليرى إن كانت تحتاج للمسة فرشاة أخرى.

كان راغبًا في العودة لغرفة مكتبه، لكن الموعد الأول لابنته المراهقة أمر يستحق الاحتفاء به.

دق جرس الباب ففتحته عالية ملهوفة، وسرعان ما ظهر «مايكل ورنديك»؛ الشاب الوسيم مفتول العضلات بطل المدرسة الثانوية ي كرة القدم. إنه قادر على أن يخلب عقل أي فتاة، وكان متأنقًا كما بغي لفتى يلقى أهل صديقته لأول مرة.

- «مايكل.. هذا أبي. أبي.. هذا مايكل».

مد يده المكتنزة ليصافح يد الفتى القوية. ثم دعاه للدخول، لكن تى كان عصبيًّا قلقًا، لذا قال وهو ينقل قدميه:

ـ «الربما كان من الأفضل أن نرحل يا سيدي.. لقد تأخرنا على الحفل».

نظر مكرم إلى السيارة الرياضية في خلفية المشهد.. بالتأكيد اقترضها من الأب. لقد مر هو بذات الموقف مرارًا في مراهقته.. المواعدة طقس مهم من طقوس الثقافة الأمريكية. كعربي لا يشعر نحوه بالكثير من الراحة.. لكنه في أمريكا يمارس طريقة الحياة الأمريكية.

قال للفتى في هدوء:

ـ «ليكن.. لكن عِدني أن نتناول العشاء معًا ذات أمسية قريبة. وأعرف جيدًا أنك ستقود السيارة بتعقل وحكمة فلن أطلب وعدًا آخر».

ـ «لا تقلق يا سيدي».

فكر مكرم: عِدني كذلك ألا تُقبّل ابنتي ولا تعتصر جسدها بين ذراعيك.. عدني ألا تدمر بكارتها وطهرها.. عِدني ألا تؤذي ما هو عربي فيها. لن أجرؤ على أن أقول هذا علنًا، لكنه اتفاق ضمني تراه في عيني.. أعرف أن هرمونات المراهقة تزلزل جسديكما زلزلة كاملة، لكني أطالب بالسيطرة على النفس.. لن أقبل تجاوز حدود التابو. لا تنس أنني ذو جذور عربية.

الفتاة فرحة جدًا منتشية، وتتصرف كأنها قد صارت سيدة مجتمع، بينما صفية تداعب عنق الكلب بسرعة أكبر ويبدو كأنها تشاهد فقرة في السيرك. لا شك في أنها تفكر في موعدها الذي سيأتي حتمًا خلال عامين أو ثلاثة.. هي قد تخلصت منذ عامين من مرحلة «الفتيان.. يا للقرف!» التي تمر بها كل فتاة، وقد بدأت تجد أنهم مثيرون للاهتمام.

ليساعدك الله يا مكرم! السيطرة على فتاتين مراهقتين في مجتمع غربي أمر شبه مستحيل. صحيح أنك عربي وأمهما عربية، لكن المجتمع أقوى بمراحل من بيئة البيت، وهذا شيء صحي للأسف.. عندما تصير بيئة البيت أقوى من المجتمع فأنت تظفر بـ«إد جين» السفاح الشهير الذي حنّط جثة أمه لأنه لا يطيق فراقها، ومن على شاكلته.

انطلقت الفتاة في مرح لتتأبط ذراع «مايكلها» فهز رأسه متظاهرًا بالنضج وقال:

ـ «سيدي.. سيدتي».

ثم انغلق الباب.

لائمة قالت سارة بعد رحيل الاثنين بفترة كافية:

ـ «أنت لم تبتسم في وجهه مرة واحدة.. يبدو شابًّا مهذبًا لا بأس به».

تصر على انتزاع موافقة روحي بعدما نالت موافقة لساني.. تبًّا.

قال مكرم وهو يصب لنفسه كأسًا من الشيري بينما الكلب يتواثب حوله:

ـ «قد منحته موافقتي.. هذا كافٍ.. لا يجب أن أمنحه ابتسامتي كذلك».

ثم أضاف بعد صمت:

ـ «ما زال ذلك العربي في داخلي.. العربي الغيور الذي يعتبر خروج ابنته وحدها، مع شاب ليس زوجها، أمرًا مشينًا. لا تنكري أني ضحيت بالكثير قربانًا لكي يقبلني هذا المجتمع».

ـ «أنت تعرف ابنتك.. لن يحدث شيء».

ـ «وأنتِ تعرفين الهرمونات.. في النهاية تنتصر الغدة النخامية ويحدث شيء. على قدر علمي لم تخض الأخلاق صراعًا مع

الغدة النخامية في التاريخ كله إلا وانتصرت الغدة. إنها لا تُقهر. كل الأنبياء جاءوا ليهزموا الغدة النخامية لكنهم فشلوا».
قالت صفية وهي جالسة على الأريكة:
ـ «بل هي الغدة فوق الكلوية.. هذا ما علموه لنا في درس الأحياء».
سألتها أمها في غباء:
ـ «هل علموكم أن الأنبياء جاءوا لمحاربة الغدة فوق الكلوية؟».
ـ «بل علمونا أن هذه الغدة هي المسئولة عن الانجذاب الجنسي».
صاح مكرم في سأم:
ـ «فلتكن غدة الشيطان.. المهم أنها ستنتصر في النهاية».
كانت سارة منهمكة في نزع ثيابها غير منتظرة حتى تصل لغرفة النوم، والكلب يتواثب حولها.. قالت له وهي تقف بالقميص الداخلي:
ـ «سوف يعودان بعد ثلاث ساعات.. هل تحب أن تتناول عشاءك؟».
ـ «سيكون هذا رائعًا.. عشاء مبكر يتيح لي أن أتفرغ للكتابة».
قال لنفسه إن زوجته لا تعرف أنها زوجة رجل عظيم. رجل سيغير التاريخ.. لا شك في هذا واليقين يفعم عروقه. الملكة التي لا تعرف أنها جالسة على كرسي العرش بل تحسبه كرسي حمام. لكن مهمته شاقة وطريقه عسير.. سيكون عليه أن يلعب لعبة صعبة خطرة هي مزيج من دور النبي والقديس والقائد الحربي والفيلسوف والنصاب والمفكر الاقتصادي وابن الزنا.. لربما اضطر للعب دور صنم وثني في لحظات بعينها.
دخل إلى غرفة مكتبه فنزع سترته.. وسط أرفف الكتب التي تحيط بالجهات الست وخارطة العالم التي علقها جوار النافذة الوحيدة،

وثمة دائرة معينة رسمها في موضع ما. هناك جهاز كمبيوتر يتصل بطابعة، وهناك ماسحة صور عتيقة.. ثمة جهاز تلفزيون صغير معلق على ذراع متحركة يتابع به قناة فوكس نيوز ولا يغيرها أبدًا. هذه هي صومعته وقلايته ـ لو صار راهبًا ـ حيث يمارس التأمل ويضع الخطوط العريضة لمشروعه العملاق.

هناك صورة معلقة لأعز صديق له: «جوناثان إيرهارت» الذي صار نائب الرئيس. قال يغبط نفسه إن لديه قناة مفتوحة إلى عقل وسمع أقوى رجل في العالم.. رئيس الولايات المتحدة. عليه أن يحتفظ بهذه القناة فهي سبيله الوحيد للنجاح.

الوقت.. أعطوني الوقت. المال.. هبوني المال.

العُمر.. لا تدعني أمت قبل عشرة أعوام أخرى يا رب.. أنا بحاجة لعشرة أعوام على الأقل.. حبذا لو صرت معمرًا.. ما أتعس الفشلة الذين يموتون عشية الوصول إلى حلمهم النهائي!

جلس أمام الشاشة ومد يده يفتح جهاز الكمبيوتر، ويصغي لصوت القرص الصلب وهو يصحو من نعاسه.. كان يفكر بعمق.

٣

المشكلة التي ضايقت مكرم كثيرًا في البداية؛ هي العثور على مبرر أخلاقي لهذا الذي ينوون القيام به. كل حرب مهما كانت قذرة خادعة لا بد أن يكون لها مبرر أخلاقي معقول، وقد أقنع «هتلر» شعبه أن «ستالين» خطر داهم كي يهاجم روسيا، وكانت الحروب الصليبية تزعم حماية مهد المسيح والبحث عن الكأس المقدسة (برغم أن الغرض كان اقتصاديًّا بحتًا)، وإسرائيل لم تكف عن قول إنهم سكان فلسطين الأصليون وليس اليبوسيين.. وهي لم تكف لحظة عن البحث عن هيكل سليمان.

أشر الناس طرًّا لا يمكن أن يحاربك من دون مبرر أخلاقي، حتى لو كان يدرك جيدًا أنه يخدع نفسه.

هذه ليست حربًا، لكنها تدانيها في الخطورة والأهمية. الهدف الاستراتيجي واضح جلي، لكنه يحتاج إلى مبرر أخلاقي وتاريخي. الوسيلة لن تكون نظيفة تمامًا لكن الغاية مبررة ومحترمة. القليل من المكيافيللية لن يضر أحدًا.

سيكون عليه أن يلعب لعبة صعبة خطرة هي مزيج من دور النبي والقديس والقائد الحربي والفيلسوف والنصاب والمفكر الاقتصادي وابن الزنا.. لربما اضطر للعب دور صنم وثني في لحظات بعينها.

هكذا استعان بأستاذ تاريخ هو أحمد صفوان وأستاذ أديان مقارنة وأديب. كلهم من العرب المقيمين في الولايات.. قال لهم:

- «أريد تاريخًا مزيفًا».

تبادل الرجال النظرات.. هذا مطلب عجيب فعلًا، يشبه ما كان

محجوب عبد الدايم بطل نجيب محفوظ يتمناه.. أن ينشر في الجريدة خبرًا يقول إنه مستعد لأي عمل غير أخلاقي. يندر أن يقول أحد إنه يريد تاريخًا مزيفًا!

كانوا جالسين في مكتبة الكونجرس في قاعة مغلقة لا يسمع أحد ما يُقال بينهم.

قال مكرم وقد رأى دهشتهم:

ـ «أنا أحاول أن أجمع العرب من الشتات في بلد واحد.. بلد غريب ناء.. كل عربي يعتبر وطنه الأصلي هو الدولة التي يقيم فيها، حيث العمل والأصدقاء، حتى لو كان يلقى الأمّرين ويتعذب ويضطهد.. تخيل المنطق المحطِّم ـ بكسر الطاء ـ الذي يمكن أن يقنعه بالتخلي عن حياة ثابتة راكدة، كي يذهب إلى بلاد نائية خطرة، مهما حاولت فلن أقدر. لكنكم تقدرون».

تساءل أستاذ الأديان الذي لن نذكر اسمه حتى لا نضل طريقنا وسط الأسماء:

ـ «ما هو تصورك؟».

قال مكرم وهو يخط خطوطًا في مفكرة أمامه:

ـ «أحلم بكتاب رائع..كتاب ممتع يحكي عن تاريخ مهم للعرب في بلد ناء لا نعرف عنه الكثير.. كتاب يثير الحمية الوطنية، وله صبغة دينية حزينة تذكرك بالأندلس».

ثم قال بلهجة ملحمية وقد تجعد حاجباه:

ـ «ثم ماذا يا عرب؟ إلام تركتم تاريخكم العظيم في.. في...؟».

ثم ألقى بقنبلته التي كان يدخرها لهذه اللحظة:

ـ «في بابوا غينيا الجديدة، عندما سُدتم الدنيا وكنتم رجالًا، وحيث مات آباؤكم».

في غيظ ضرب الأديب المنضدة بقبضته وقال:

ـ «هل تمزح؟ العرب وغينيا الجديدة؟ أنت تتكلم عن حدود أستراليا.. الأوقيانوسية. هذه أصقاع لم يدن منها العرب قط.. لعل أحدًا لم يدن منها منذ الخليقة قبل الكابتن كوك».

قال مكرم في برود:

ـ «للأسف أنا لا أجيد المزاح.. كل من عرفوني قالوا إنني سمج لا أفهم الدعابة».

تبادل الرجال النظرات.. الأمر يبدو غريبًا.. أغرب مما تصوروا.

قال أستاذ التاريخ في سخرية:

ـ «هل تعتقد أن العالم سيتركك بهذا الكتاب بما فيه من هراء؟ سوف يشرحونك في وسائل الإعلام والدوائر الأكاديمية، حتى يبرهنوا للناس أنك مخرف، وأن كل حرف أكذوبة».

قال مكرم على الفور:

ـ «هنا نحتمي في نظرية المؤامرة.. لتكن هذه حقائق لا يسمح لنا العالم أن نعلن أنها حقائق.. هذا سيدعم ما قاله الكُتاب.. سوف يفترض الجميع أن العالم يتآمر ضدنا بالأكاذيب.. لن يصدق أحد التشكيك... يمكنك دائمًا أن تصنع غبارًا حول الحقائق فلا يفهم أحد ما حدث.. كلما كانت الكذبة كبيرة جدًا واسعة جدًا صارت أقرب للتصديق، لأنه ـ ببساطة ـ لن يتصور أحد أن هناك كذبة بهذا الحجم».

ثم ضاقت عيناه كثعلب وقال:

ـ «علينا أن نبدأ.. أعطيكم فترة عامين لكتابة هذا الكتاب، لكن لا بد أولًا من سلسلة مقالات مدفوعة الأجر في الصحف العالمية. هذه المقالات ستكون نواة الكتاب... أريد عمل

موقع إنترنت سينفق عليه أحد الأثرياء العرب هنا، وهو سيبشر بالفكرة ليل نهار».

ـ «وهل تتوقع تغطية الميزانية بهذا الحجم؟».

ضحك مكرم وتحسس جيبه بحثًا عن علبة السيجار، ثم تذكر أن التدخين ممنوع هنا.. قال:

ـ «إخواننا مهتمون بالقضية وسوف ينفقون عليها. أنتم أعطوني المقالات والكتاب.. بعد هذا هي مشكلتي أنا.. ».

ثم نهض معلنًا انتهاء الجلسة فنهضوا معه ورءوسهم حبلى بالأفكار.

* * *

مع الوقت بدأت الخطة تكتمل.

أعترف لك بأنني شديد الإعجاب بمكرم.. إنه لا يكف عن الحركة والطيران إلى كل مكان، ليقابل من يعرفهم من مسئولين وينتزع الوعود من كل واحد لا يعرف الكثير عن الآخر. مثالًا للقصة الساخرة الشهيرة عن الأب الذي وعد ابنه أن يزوجه ابنة «بيل جيتس»... ذهب لمدير البنك الدولي وطلب تعيين ابنه مديرًا. لماذا؟ لأنه زوج ابنة «بيل جيتس».. هكذا تحمس المدير وتم التعيين، ثم ذهب الرجل إلى «بيل جيتس» وطلب يد ابنته.. لماذا؟ لأن ابنه مدير بالبنك الدولي.. هكذا وافق بيل جيتس في حماسة. الطرف (أ) يوافق لأن الطرف (ب) وافق.. وبهذا تضمن أن يوافق الطرف (ب) لأن الطرف (أ) وافق فعلًا.

كان مكرم يمارس شيئًا كهذا في عالم الواقع.. وكان يقابل الممولين ليخبرهم أن الرئيس الأمريكي متحمس للفكرة بشدة، ثم يقابل الرئيس الأمريكي ليخبره أن الممولين متحمسون بشدة.

كل هذا وهو لا يتعب.. يتحرك بجسده القصير المكتنز في كل مكان، ولا يكف عن نفث دخان السيجار والإتيان باقتراحات طريفة. وكان ينام ساعات محدودة جدًا، وآخر ما يفكر فيه هو العرب وأول ما يفكر فيه صباحًا هو العرب، وقبل أن يرى وجهه في مرآة الحمّام.

كان يعرف أنه سينجح..

سوف يحقق للعرب فرصة العمر، ويعيد لهم كيانهم وينقذهم من الانقراض.

لو لم يتدخل فلسوف يذوب العرب تمامًا في مجتمعاتهم الحالية. تضعف الثقافة واللغة، ثم يأتي عامل اتقاء الاضطهاد.. لو لم تستطع أن تقاومهم انضم لهم. هكذا لا يجد العربي في أمريكا سبيلًا إلا أن يصير أكثر أمريكية.. في الصين يصير صينيًا أكثر من «فومانشو» نفسه.. وهكذا..

سوف يذكر التاريخ لمكرم فيما بعد أنه فعل ما فعله «غاريبالدي» و«ماتزيني» لبلادهما.. وكان يعرف يقينًا أنه بعد ما يحقق حلمه سوف يكتب كتابًا شبيهًا بكتاب «الأمير» لـ«مكيافيلي»، يشرح فيه كيف يكون المرء نفعيًا لمصلحة القوم. كيف يلعب بقذارة من أجل هدف نظيف. كيف يخدع الناس بنية صادقة نبيلة.

٤

لا يمكننا أن نذكر مكان القاعة ولا اسم البناية التي توجد فيها. على الأقل يمكننا ذكر أن الموجودين هم مكرم وجوناثان «إيرهارت». الرجل البدين الذي يلبس نظارة ثنائية العدسات ويعرق بكثافة هو جيمس ماكجرو من وكالة المخابرات المركزية، أما الضئيل دقيق الملامح فهو «رومهلد» وهو أستاذ علوم سياسية من أصل ألماني. القاعة ليست فسيحة ولا توحي بعقد اجتماعات فيها، لكن لا بد أن هذا أهم اجتماع شهدته واشنطن منذ زمن. لم يكن اجتماعًا بالضبط بل كان ممارسة للعبة عصف الأفكار التي يجيد مكرم و«جوناثان» لعبها.

قال مكرم:

- «نحن لا نناقش أي جوانب إنسانية.. نحن نتكلم عن حقائق براجماتية بحتة. من مصلحة الغرب والولايات المتحدة أن يتخلصوا من العرب المنتشرين في العالم. الولايات المتحدة لن تساعدنا على اتخاذ وطن قومي لمجرد أنها طيبة القلب، أو لأنك تُعلي من القيم الإنسانية يا «جوناثان».

خلع «جوناثان» عويناته وقال في إرهاق:

- «بالفعل لا تكفي القيم الإنسانية لتبرر ما سنتجشمه من جهد.. لكني أُفضل لو شرحت رأيك أولًا».

قال مكرم:

- «أنتم من صنع هؤلاء المهاجرين لكم».

تدخل رجل المخابرات:

- «كيف؟».

- «أنت تعرف أن من هاجروا لكم هم زبدة المجتمعات العربية.. هؤلاء هم المثقفون المتعطشون للحرية.. حرية السياسة والمعتقد الديني وحرية الكلام. هم فروا من أنظمة أحالت حياتهم جحيمًا وهذه الأنظمة صنعها الغرب نفسه ودعمها.. هناك أنظمة كثيرة كانت ستنهار ذاتيًا لو لم تساعدوها، وأنت تعمل في المخابرات المركزية وتعرف جيدًا دقة ما أقول».
- «هذا ليس مبررًا.. عقدة الذنب لا تكفي لتبرر ضخامة هذا المشروع».

أشعل مكرم السيجار الغليظ وسط الدموع والسعال، ثم قال:

- «القنبلة الديموجرافية العربية.. أم ياسر تنجب خمسة أطفال بينما لارا لا تنجب سوى طفل.. مع الوقت هذا يهدد مجتمعاتكم. لن تبقى أوروبا مستقرة مع الوقت لأن العرب سيبتلعونها.. الآن نحن نقدم لكم الحل الذي يريح الجميع.. سوف نعطي العرب وطنًا يبدءون فيه من جديد ويمارسون فيه عروبتهم الجريحة، ويتمسكون بتقاليدهم. برغم بقائي في الولايات دهرًا فما زال الدم يصعد لرأسي كلما تكلمت ابنتي عن صديقها. وفي الوقت نفسه تتخلص من القنبلة الديموجرافية العربية لتنفجر في مكان آخر.. في المحيط الهادي بعيدًا عن الجميع. هذا ما نطلبه نحن العرب وما تطلبونه أنتم».

قال أستاذ العلوم السياسية:

- «هذه الدولة العربية ستتحول تلقائيًا إلى خلافة إسلامية.. أنت تعرف أن الفارق بين العرب والمسلمين واهٍ جدًا».

ابتسم مكرم:

- «اسمي مكرم ميخائيل بالمناسبة. سأعمل جاهدًا كي تحمل

الدولة الوليدة طابعًا مدنيًّا علمانيًّا.. سوف تعامل كل الأديان سواسية هناك».

ـ «هذا ما يعتقده الجميع في البداية».

قال مكرم في عصبية:

ـ «فكرة الدولة الدينية لم تكن من اختراع العرب صدقني.. الغرب قدم لنا قدوة سيئة هي إسرائيل.. الدولة اليهودية.. كنا قد بدأنا ننشئ مجتمعاتنا على أسس حديثة مدنية، عندما زرعتم في جسدنا دولة دينية بالكامل. ولكل فعل رد فعل.. كان لا بد أن تتجدد فكرة الدولة الدينية لدينا».

قال رجل المخابرات وهو يجفف العرق:

ـ «فكرة الإرهاب الديني الذي يتهدد الغرب عامل آخر يجعلنا نرحب بالفكرة».

قال مكرم:

ـ «لا أنكر أن هذا جانب مهم، لكني أذكرك أن الإرهابي الذي يفجر نفسه يفعل هذا لأسباب عقائدية تتعلق بالجنة والحور العين والشهادة، لكن من أرسله ليفجر نفسه يرى الصورة بشكل براجماتي أكثر، وأنت تعرف أن للصف الأعلى من هؤلاء علاقات مؤكدة مع المخابرات المركزية.. الإرهاب الديني لعبة لاثنين، ودعنا لا ننسَ المذابح التوراتية، ولا الصراع الدامي بين الكاثوليك والبروتستانت».

قال «رومهلد»:

ـ «أنت تتكلم عن استعمار إحلالي في أرض مسالمة».

قال مكرم:

ـ «من جديد أنتم قدمتم لنا مثلا سيئا سابقا.. كانت فلسطين أرضا مسالمة من زارعي أشجار الزيتون والبرتقال المسالمين، ثم غرستم في جسدها خنجركم.. ويجب أن نذكر أن كل تفاعلات المنطقة وكل هذه الحمى محاولات الجسد السقيم لطرد جسم غريب.. منذ غرست إسرائيل لم تكف المنطقة عن الاضطراب.. أنتم مَن صنع المهاجرين، وأنتم مَن صنع الإرهاب، وأنتم من أدى لعودة فكرة الدولة الدينية.. في النهاية أنتم مطالبون بحل هذه المشكلة بشكل مُرضٍ للجميع».

ساد الصمت لبعض الوقت.

كأن أطراف هذا البنج بونج قد أنهكها التعب.. الكل يغالب العرق ويلهث.

قال «إيرهارت» في النهاية:

ـ «أنت تجيد عرض قضيتك.. أريد أن تحتفظ بهذه الحماسة والبراعة عندما نطرح القضية أمام الرئيس».

٥

هناك شعوب تملك غريزة التدمير الذاتي كأنها مكلفة بمهمة مقدسة تقضي بأن تختفي. لم يكن أعداء العرب خارقي القوة، لكن العرب كانوا بالغي الضعف.

راغب شكري
(من كتاب البحث عن وطن ـ الطبعة الرابعة)

* * *

مكرم هو الذي ترأس الاجتماع برغم أن الرئيس الأمريكي كان هناك، وكذلك «جوناثان إيرهارت» النائب. الاجتماع تم في المكتب البيضاوي بالبيت الأبيض، وقد اجتمع المجتمعون حول مائدة طويلة وضعتْ في المركز، عليها شرشف أبيض وأزهار والكثير من العضائر الصفراء والخضراء، وربما الزرقاء. معظم الجالسين من العرب، وبعضهم أعضاء في الكونجرس.. هناك رجلان من وزارة الدفاع ورجل من المخابرات المركزية قابلناه من قبل.. أعتقد أن اسمه «جيمس ماكجرو» لو لم تخني الذاكرة، وكما هي العادة هناك رجلان لا تعرف من هما ولا أي جهة يمثلان، ولا تعرف حتى من أين جاءا.

كان مكرم يقف عند صدر المائدة كأنه هو الذي استضاف هؤلاء في البيت الأبيض، وكان يدخن السيجار كعهدهم به.. قليل من يسمح لهم بالتدخين في حضرة الرئيس. أما الرئيس الأمريكي فظل عاقدًا ذراعيه على صدره ولم يلفظ ببنت شفة تقريبًا.. إن «هاز في دونالسن» معروف بأنه يفضل الاستماع على الكلام، والحقيقة أن نائبه كان يقوم بمهمة الكلام بدلًا منه.

كان مكرم يدرك أن ما يسعى له يماثل ما فعله اليهود في أوائل

القرن العشرين تقريبًا، مع ملاحظة أنه لم يكن هناك هولوكوست عربي بالمعنى الحرفي، ولكن بعض الاضطهاد والتحرش.. أوروبا شعرت بالذنب والخطيئة فبحثت عن مكان تنفي له اليهود وتكافئهم.. كان الحافز قويًّا هو خليط من عقدة الذنب والرغبة في الخلاص النهائي من مشكلة مزمنة. ليس الحافز قويًّا لهذه الدرجة بالنسبة للعرب.

يحتاج الأمر إلى حشد وإلى تعبئة نفسية.

هناك مجموعة من العرب الأقوياء الأثرياء هنا، والرئيس يعرفهم. لا بد أن هؤلاء العرب قادرون على تكوين لوبي يضغط على الرئيس الأمريكي. ليس بقوة اللوبي اليهودي طبعًا، لكنه مسموع الكلمة إلى حد ما.

لماذا الضغط؟ لأن أمريكا أقوى دولة في العالم، وتقدر على فرض سلطتها حيثما شاءت وأنى شاءت.

قال مكرم بصوت جهوري:

ـ «هكذا يمكن القول إن العرب هم يهود العصر.. مشتتون في كل مكان.. مشتتون في كل بقاع الأرض. منعزلون في مجتمعات من الكراهية، حيث يعتبرهم الكل غرباء.. لا يصدقون أنهم يمكن أن يندمجوا في مجتمعاتهم الجديدة. العربي الذي ولد في الصين يظل بالنسبة للعالم غير العربي عربيًّا.. العربي الذي ولد في ألمانيا يظل عربيًّا. والكل يتوقعون أن ينهضوا ويثوروا ويفترسوا تلك المجتمعات التي استضافتهم.. وهكذا فإنهم يلقون الاضطهاد حيثما كانوا. هم ليسوا أول ولا آخر أمة كانت قوية متماسكة ثم دب فيها الضعف وتحللت، لكن حظهم عاثر أكثر من الإمبراطورية

البريطانية أو الرومانية أو الفرنسية أو الإغريقية.. في النهاية بعد أن بادت هذه الحضارات ظلت ثمة نواة صلبة محترمة نوعًا ما قادرة على التماسك.. لكن العرب ارتكبوا حشدًا من الحماقات في الجيل السابق وبددوا ثرواتهم. ثم تعرضوا للغزو الخارجي أو اضطروا لترك بلادهم.. كل بلد في العالم فيه جالية عربية، وهذه الجالية تعاني الأمرّين».

ثم أمر بصوت عالٍ:

- «أرجو أن تبدأ العرض يا موريسون».

أظلم المكتب.. وأسدل أحدهم الستائر ليُظلم المكان أكثر، ثم خرج شعاع من فانوس عرض ليسقط على شاشة في ركن المكان..

وجوه خائفة متسعة العيون.. وجوه سمراء مذعورة.

وجوه دامية.. امرأة تشهق باكية والدم يسيل في خيط طويل من أنفها.

بيت يحترق.

سيارة مشتعلة يحيط بها غوغاء غاضبون.

- «في كل مكان يوجد فيه عرب تتكرر هذه الصور».

كان هذا صوت مكرم في الظلام..

رعاع أوروبيون يلوحون بالهراوات والزجاجات.

- «في كل بلد في أوروبا هناك قائد متعصب يدعو لذبح العرب.. ولا أحد يعتبره مجنونًا».

صورة قائد صيني أو كوري له وجه متوحش يلوح لجماهير تملأ ميدانًا.

- «دكتاتور منشوريا «واه شانج لي».. إنهم يعتبرونه نسرًا جاء من كتب التاريخ، وهم يدللونه باسم «جنكيز خان»».

صورة لمجموعة من الأفران.. تشبه أفران الخبز.
- «وهذا هو الدليل على أنه أوجد أفران غاز جديدة يضع فيها العرب.. هذه الصور التقطها صحفي عربي قام بمغامرة وقد دفع حياته ثمنًا لها، لكنه استطاع تهريب الصورة عبر الإنترنت».
شهق أحدهم في الظلام.. وبدا أن أحدهم يتقيأ فقال مكرم:
- «في كوبا لدينا دليل على أنهم يخطفون العرب ويسرقون أعضاءهم للزرع».
- «يا للهول!».
واصل مكرم الكلام وقد بدا كأن حاسته الاستعراضية تتوهج:
- «هكذا في كل بلد نجد قصص اضطهاد شديدة.. وشنيعة، وهذا هو ما يدفعني إلى أن أطلب منكم إنقاذ العرب.. والخلاص منهم في الوقت نفسه».
نظروا له في دهشة لدقائق، ثم قال «جوناثان»:
- «كيف تتخلص من شيء وتنقذه؟ المثال الوحيد في ذهني هو أن تأكل اللحم بسرعة لتنقذه من التلف في الطقس الحار».
-رت ضحكات مكتومة.. حاول مكرم أن يضع هذا المثال العجيب في صورة مفهومة فلم يستطع.. لذا هز رأسه بمعنى أن هذا سخف وقال:
- «ما أتحدث عنه شيء آخر.. لقد قامت أوروبا بدعوة اليهود من كل العالم إلى الاحتشاد في فلسطين.. هكذا كانت الفائدة ثلاثية: تخلصت من إزعاجهم.. أنقذتهم من الإبادة.. اعتذرت بشكل ما عن مذابح النازيين».
- «إذن».
- «ما أتحدث عنه هو وطن قومي يجمع العرب جميعًا.. هكذا

تنقذهم من الاضطهاد وتريح العالم منهم ما دام يعتبرهم كائنات سامة».

ساد صمت طويل.

كان مكرم يعرف جيدًا أنه لجأ لبعض الحيل. شريط الصورة يحوي لقطات خاطفة لا تستغرق أكثر من واحد على ١٢ جزءًا من الثانية، تمثل عربيًّا يلوح بالعلم الأمريكي، أو تمثل طفلًا عربيًّا يحملونه إلى فرن.. هذه صور تحت مستوى الوعي (Subliminal)، لا يجد الجالسون الوقت الكافي لتحليلها بعقولهم، من ثم يلقون بها في مخزن نفسي بغرض فهمها فيما بعد. النتيجة هي أنهم سيغادرون العرض وهم متعاطفون مع العرب فعلًا دون أن يعرفوا السبب.

هنا نطق الرئيس للمرة الأولى. قال بصوته المميز الجهوري الرنان قليلًا:

- «لحظة.. ما كان اليهود ليتمكنوا من إنشاء دولة لولا دعم أوروبا والولايات المتحدة. لقد بدا لنا أنهم قوة عسكرية مهمة نزرعها في المنطقة الحرجة جغرافيًّا وأمنيًّا، وكان استثمارًا يستحق التمويل.. لكن ماذا تمثل لنا دولة عربية؟ وماذا يدفعنا لتبديد أموال دافعي الضرائب عليها؟ ولو لم نساعد هذه الدولة فكيف نتوقع أن تقف على قدميها؟».

قال أحد العرب الجالسين:

- «سوف نتولى نحن تمويلها.. نحن أثرياء وقادرون».

قال مكرم بلهجة الانتصار:

- «هكذا هم يلعبون دور أسرة «روتشيلد» مع الدولة الإسرائيلية الناشئة».

ساد الصمت، وراح الكل يفكر في الظلام والضوء القادم من جهاز العرض، ثم قال «جوناثان»:

ـ «هل فكرت في مكان يجمعكم؟».

وكان يعرف معظم هذه الإجابات من قبل.. فقط أراد أن يسمعها الجالسون من مكرم نفسه.

قال مكرم:

ـ «لم أفكر.. بل المكان فرض نفسه.. ولديَّ وثائق كثيرة تثبت أننا كنا هناك منذ عصور سحيقة لكن هذه حضارة بادت ونُسيت.. سأبرهن للعالم والعرب أن لنا حقًا تاريخيًّا في تلك البقعة شبه المهجورة من العالم».

ثم صفق مكرم بيده فظهرت على الشاشة خارطة لمكان مميز.. إنهم يعرفونه. أستراليا.

صاح «جوناثان» في استنكار:

ـ «لا تقل لي إنك تنوي وضعهم في أستراليا».

قال مكرم على الفور:

ـ «لا... بل شماليّ أستراليا.. غينيا الجديدة في قلب المحيط الهادي.. بعبارة أخرى، هي جزيرة في بابوا غينيا الجديدة.. هذا مجتمع بدائي بكر.. موارد غير مستغلة.. لا توجد حضارة تقريبًا.. هذا هو وطننا المختار».

هتف أحد الجالسين في ركن القاعة.. لم ير أحد وجهه بسبب شعاع النور الساطع:

ـ «بقعة بعيدة جدًا.. نائية جدًا.. أنتم على حافة العالم حرفيًّا.. هل تتوقع أن يستجيب لك هؤلاء الذين اعتادوا الترف في أمريكا وأوروبا؟».

قال مكرم في ثقة:

ـ «يجب أن يعتادوا. إن مشكلتهم هي الشوق إلى بداية جديدة.. بداية بلا أخطاء. الحياة لا تمنحك هذه الفرصة أبدًا، لكن الوطن الجديد يفعل.. هكذا فعل المهاجرون من أوروبا إلى العالم الجديد.. لقد صححوا أخطاءهم وصنعوا الولايات المتحدة الأمريكية.. وأنتم تعرفون قبل أي واحد أن تجربتهم لم تكن سهلة. الغرب والبراري المتوحشة والهنود».

ثم ابتلع ريقه وفكر حينًا وأضاف:

ـ «ثم إن الذهاب لحافة العالم أفضل من الموت في أفران الغاز».

عاد الضوء للغرفة، فراح كل واحد يرمش بعينه كأن تأثير النور حارق للشبكية.. بدا لهم للحظة كأن ما رأوه كان حلمًا.. لكنه للأسف كان حقيقيًا تمامًا.

قال الرئيس الأمريكي في ضيق:

ـ «وما دور الولايات المتحدة في هذا؟».

ـ «دوران».

وفتح مكرم إصبعيه ليعد عليهما:

ـ «أولًا أن تعلن موافقتها على هذه الفكرة وتباركها.. ثانيًا أن تتولى البحرية الأمريكية نقل كل هؤلاء المهاجرين لأن معظمهم لا يملك مالًا يغطي ربع هذه الرحلة».

صب «جوناثان» لنفسه بعض العصير ثم قال:

ـ «أرى أنها فكرة جيدة يا سيدي الرئيس».

٦

مهنتي ساحر.. مهنتي هي صناعة التاريخ.. أستطيع أن أجعل الديناصورات تنقرض أو أجعلها لم توجد قط. يمكن أن أبيد أممًا وأوجد أممًا أخرى. فقط أعطني القلم والورقة والوقت.

ألبير سعادة

* * *

هذا اللغز الذي يحيط بنشأتي، وكل هذا الكلام عن العالم العربي.

يقول لي أبي إننا جئنا من بلاد عربية، وللحق أنا لا أفهم جيدًا حقيقة هذه البلاد العربية. هي بقعة على الخارطة وتبدو بعيدة جدًا.. أعرف أن فيها صحاري ونفطًا وأماكن مقدسة يتوجه لها المسلمون والمسيحيون واليهود. لكن كل إنسان يملك ذكرياته العزيزة التي لا قيمة لها بالنسبة للآخرين، كأنها عملة غالية في وطنك بينما لا قيمة لها في أي موضع آخر من العالم.

أعرف أن أبي وأمي جاءا من هناك، ولهذا أحمل هذا الاسم الغريب «عالية»، وهو اسم ليس مألوفًا في الولايات لكنه يعطيني طابعًا خاصًا يروق للأمريكيين.. على كل حال لو لم تكن المكسيكية تحمل اسم كونشيتا أو ماريا، ولو لم تكن الفرنسية تحمل اسم مادلين، لبدا لي الأمر غريبًا كذلك.

نأكل الكثير من الأطعمة العربية مثل الملوخية والكسكس والتبولة والفتوش.. يحرص أبي على أن تكون هذه الأشياء في بيتنا كأنها طقوس دينية، وهو أمر يمكن أن أفهمه عندما أرى كيف يحرص اليابانيون على أطعمتهم وكيف يُصر الهنود على وضع الكاري في

كل شيء. أحب هذه الأكلات على كل حال، وهناك أكثر من مطعم سوري أو تركي يقدم هذه الأكلات، كما أن البعض يبيعون هذه الأكلة العجيبة المسماة «فلافل» والتي يصرون على أنها تقليد عربي، بينما يؤكد اليهود أنها اختراعهم الخاص.

أختي الصغرى تحمل اسم «صفية» وهو اسم آخر ذو طابع عربي قوي.

في بيتنا بعض صور للمسيح والعذراء مريم، لكن يصعب أن أقول إن أبي متدين. أمي متدينة جدًا وتمارس الكاثوليكية بحب واقتناع حقيقيين. لكن أبي يقول إن معظم العرب هم من طائفة الأرثوذكس.

يقف أبي كثيرًا أمام صورة المسيح في الأيقونات أو على الصليب، ويقول لي:

- «صورة المسيح كرجل وسيم أشقر الشعر، أزرق العينين هي صورة وهمية.. المسيح كان رجلًا فلسطينيًا، فلا شك أنه كان أسمر ذا عينين سوداوين وشعر مجعد».

«مايكل ثورنديك» يحبني..

«مايكل» هو أوسم ولد في صف المدرسة، وهو كذ[illegible]ل رياضي والبنات يعجبن به، لكنه اختارني أنا بالذات باهتمامه. يقول إن الطابع العربي المميز لي يسحره..

مايكل يحاول أن يتمادى في علاقته بي، لكني أتملص منه دائمًا. علمني أبي أن الأولاد أشرار دائمًا، بينما نجحت أمي إلى حد ما في أن تجعلني أخجل من أنوثتي وأعتبرها نوعًا من العار، وقد فهمت أن هذه طريقة تفكير عربية سائدة.

أحيانًا كذلك ألمح في سلوك أبي ذاك الاستعلاء الذكوري باعتباره هو الرجل.. هو السيد.. هو ربان السفينة، وعلى الجميع طاعته.

برغم ثقافته الغربية وقضائه وقتًا طويلًا جدًّا في الولايات، فهو لم يتخلص من بعض العقد القديمة.

في الحفل كانت الأمور تمضي في سلاسة، وقد رقصت مع مايكل كثيرًا.

ظهر «جيك كاثريل»، وهو بلطجي المدرسة، قوي العضلات، الفاشل في الدراسة، دائم التحرش بالأولاد الأذكياء. إنه نمط تنتجه المصانع بالجملة. كان قد بدأ يدخل في طور الثمل التام، وكانت عيناه لامعتين ويتنفس بعمق وحرارة.. وكان يطوق ساندرا عاهرة الصف العذراء - لو كان لي أن أقول هذا - فهي تملك كل صفات العاهرة ما عدا العهر نفسه. كان يطوقها والحقيقة أنه كان يتوكأ عليها حتى لا يسقط.

مشى حتى صار أمامنا وراح يترنح.. ثم قال ناظرًا الي وسط البخر الكريه:

- «أراهنك أنها مختتنة».

لم أكن متأكدة من كوني سمعت ما قاله، فالعالم لا يتسع لكل هذا القدر من الإهانات، لكنه عاد يكرر العبارة ضاغطًا على كل حرف حتى لا نحسب الثمل هو السبب:

- «أراهنك أنها مختتنة.. أليست عربية؟ كل العرب يفعلون ذلك.. وبهذا تفقد الفتاة كل حساسية أنوثتها. ليس هذا فحسب.. تصير باردة كلوح ثلج».

ثم نظر لمايكل في تشفٍّ وتحدٍّ وقال:

- «لن تكون فتاة أحلامك.. إنها لا تصلح لشيء.. كل النساء العربيات لا يصلحن لشيء».

لقد فعل جيك كل ما بوسعه كي يستحق ما سيحدث، وما كان

مايكل ليقدر على أن يصمت أو يتظاهر بأنه أكبر من هذه التفاهات..
كوّر قبضته وهوى بها على وجه جيك، وكان جيك في حالة من الثمل
جعلته عاجزًا عن إحكام قبضته برغم قوته الشديدة.

حاول أن يوجه لكمة أخرى لمايكل، لكن مايكل مد ساقه في رشاقة فتعثر الفتى.

على الأرض تكوم جيك كالجوال والغباء على ملامحه.. عاد يقول:

- «الساحرة العربية قد نجحت في جعلك غير أمريكي.. أنت قد فقدت أمريكيتك».

كاد مايكل يواصل الشجار، وتجمهر حولنا عدد من الشباب يتمنون أن يروا ما هو أكثر.. ستكون معركة جميلة يا شباب... لكنني جذبت مايكل في حزم وهتفت:

- «كفاك هذا.. دعنا نرحل».

فقط تمنيت ألا يكون أحدهم قد سمع الإهانة مصدر الشجار. لقد أفسد الوغد الليلة تمامًا.. لم يعد من مجال للبقاء والتظاهر بأن كل شيء على ما يرام.

قال لي مايكل وهو يرتجف غضبًا:

- «هل رأيت؟ لم أر وقاحة كهذه في حياتي».

أنت لا تعرف شيئًا.. لا تعرف عن البصقات التي تنطلق نحوي في وسائل المواصلات، ولا البائعات اللاتي يؤكدن أن ما أريد شراءه غير موجود، بينما أراه من وراء أكتافهن على الرف، ولا تعرف شيئًا عن أكياس القمامة المفتوحة في الحديقة أو القطط المشنوقة.. ولا تعرف عن ثقب إطارات السيارة.. بالتأكيد لا تعرف لفظة عاهرة التي تجدها مكتوبة بالطبشور على المنضدة عندما تدخل الصف صباحًا.

ما زال العرب يحتفظون بحقوقهم القانونية، وهذا لأنهم في مجتمعات تقدس القانون، لكن يمكن القول إنهم فقدوا المودة وفقدوا القدرة على الذوبان في هذا المجتمع.

كنت أعرف شيئًا أو شيئين عما يقوم به أبي، وكنت أشعر أنه وهم كبير.. لكني كنت أفهم أسبابه، فالحقيقة هي أن الحياة تغدو أصعب وأصعب يومًا بعد يوم بالنسبة للعرب. لا شك أن لحظة الانفجار قادمة لا محالة.. هذه أمواج من الغليان ثم يأتي الفوران النهائي خارج حدود الإناء.

فتح لي مايكل باب السيارة فارتميت في المقعد، وجلس خلف المقود وهو يلهث.

سألني وهو يدير المحرك:

ـ «ثمة سؤال واحد ما زال يؤرقني. ذكّرني به هذا الخنزير جيك».

ـ «وما هو؟».

قال وهو ينطلق بالسيارة:

ـ «هل أنتِ مختتنة فعلًا؟».

فصل من كتاب

«تاريخ لا يحكونه في المدارس»

كتبه أحمد صفوان - أستاذ التاريخ في جامعة برنستون

٩

لم يعد في قوس الصبر منزع بالنسبة للحارث بن مسعود.

الخلافات مع القصر أمست كالنيران في الفحم تشتعل تحت التراب، فلا تحرق ولا تنطفئ. وقد قام الوشاة بالدور الذي قام به كل الوشاة عبر التاريخ وأوغروا عليه صدر الخليفة في قصره.

قالوا إنه شديد الطموح، وإنه يحمل الكثير من الولاء للأمويين، وقالوا إنه انتقد الخليفة علنًا.. وكانت له تجربته في البحر والملاحة مما أوغر عليه صدور الكثيرين. الحق أن الرجل كان أكثر اكتمالًا من أن يكون حقيقيًّا أو يتحمله شخص من لحم ودم.

كانت الأكاذيب من القوة والفحش والتركيز مما جعل الحارث مندهشًا: لماذا لم يقبض عليه الخليفة ولماذا لم يفتك به؟ وقدر أنه يملي له أو ـ كما نقول نحن ـ يمنحه حبلًا طويلًا يشنق نفسه به. الحق أن الحارث بن مسعود كان جديرًا بالحقد والوشاية كما قلنا، فهو فارع القامة قوي البنيان، علمه البحر الكثير من الحكمة والصبر وشدة البأس، كما أن له عينين قويتين تحرزان له النصر في أي عراك شخصيات. كان قد أحب البحر وتلاطُم الأمواج وصراخ النوارس وصيحة الناضورجي: «أرض دانية»، حتى لكأنه السندباد الذي يشعر بالغربة كلما وجد نفسه على اليابسة. كان يطوي ضلوعه على طموح عظيم. أرض الله واسعة وتنتظر مَن يجدها ويمهدها ويحكمها.

زوجته الغصناء كانت جديرة به، لائقة له، فهي شاعرة مجيدة،

وكانت امرأة قوية الشكيمة كريمة المحتد، مشهودًا لها بالشرف.
ولقد قالت له:

- «ما أرى فيما أرى إلا أن أكتب لك قصيدة تطلب فيها من الخليفة الصفح».

- «إن هي إلا أيام ثم يوغرون صدره من جديد».

- «لن يراك رأي العين عندما يوغرون صدره من جديد».

كانت خطتها تتلخص في استرضاء الخليفة والاعتذار له، وبعدها يطلب الحارث من الخليفة أن يمنحه سفينة مع ملاحيها يفتح بها أرضًا فيما وراء البحار. وهذه الأرض ستدين بالولاء والخراج للخليفة.

- «هو فتح للخليفة وهو نفي لك.. إنه يشتهي والوشاة إبعادك، وما أحسبه إلا معجبًا بهذه الفكرة راضيًا عنها».

قلب الحارث الأمر على أكثر من وجهة، فبدا له هو الأصوب. الحق أنه قد كره بغداد وهواءها وجدرانها وناسها.. المدينة نفسها كانت تضوع بالكراهية له. وأيقن أنه إن فعل ما تقول فهو يهرب بحياته التي صارت على المحك، وهو يعود لحياة البحر التي عشقها.

أما عن القصيدة التي كتبتها الزوجة، والتي لم يستبقِ لنا التاريخ إلا أول بيت فيها، فلم يعرف الخليفة طبعًا أنها خرجت من قريحة امرأة:

قد جاءني أن الخليفة لامني   وسعى الوشاة بكلِ قول شائنِ

تنتهي القصيدة - التي يبلغ طولها مائة بيت ونيفًا - بوعد بأن يجد الحارث أرضًا هي الثراء بعينه، حيث التبر كالتراب والخراج بالقناطير، ولسوف يطلق عليها اسم «الياقوت» ويجعل أهلها يعتنقون الإسلام أفواجًا ويدينون للخليفة في بغداد بالولاء ويدعون على المنابر له.

لم يترك لنا التاريخ تفاصيل كثيرة عن ظروف إلقاء القصيدة، ولا

كيف استطاع الحارث أن يقنع الخليفة بأن يسمعها، لكن المؤكد أنها راقت له جدًا حتى إنه أمر بأن تكتب بماء الذهب وتعلق على باب القصر، ثم أمر بأن يتولى الحارث إعداد وتجهيز عمارة بحرية يقوم بها للبحث عن الأفق المختار. وما نعرفه عن هذه العمارة هو أنها كانت تضم ثلاث سفن، والسفينة كانت تحمل ستين رجلًا؛ منهم الصانع والبنّاء والنجار، فلم يكونوا جميعًا من أهل البحر، وأن رحلتها استغرقت عشرة أشهر.

وفي ربيع الأول من نفس العام أبحرت السفن لتبدأ رحلتها الطويلة المخيفة.

* * *

الاتجاه الذي حلم به الحارث بن مسعود كان هو الجنوب الشرقي، وكان يعرف أن الأهوال تنتظره في المحيط الهادي، حيث ينتهي العالم في عرف البحارة.

لا بد أن الرجل قد شعر بالراحة عندما رأى سواحل غينيا الجديدة، بعد سفر طال في المحيط. هذا هو العام ٧٥٠ ميلادية، وهو تقريبًا الوقت الذي أسس فيه عبد الرحمن الداخل دولة أموية في الأندلس. وكانت سفن الحارث قد ضلت الطريق في مياه مجهولة بلا خرائط، حتى إن البحارة هددوا بالثورة. ليس للعرب تقليد في استكشاف البحر، وهم لا يجيدون فنون الملاحة، لذا كانت هذه الرحلة بالغة الخطر والأهمية.

خرافات البحارة تجعل الأمر شاقًا، فهم يتحدثون عن هاوية على حافة العالم تسقط من فوقها السفن، وجزائر تعيش عليها وحوش ذات قدم واحدة تتواثب ولها آذان ضخمة تتغطى بها وقت النوم،

وعن غيلان ذوات عين واحدة تتلهى بالْتهام البحارة. وقد راح الرجل يمارس نفس الأساليب التي مارسها «ماجلان» فيما بعد، فراح يلعب دورًا هو مزيج من الحزم المتوحش والقسوة والرفق والتفهم. وكان وباء الإسقربوط قد فتك بعدد لا بأس به من البحارة، ثم أصابهم بالتهاب أعصاب، وراحوا يمشون كالسكارى، والعلم الحديث يخبرنا أن هذا هو مرض الـ«بري بري» الجاف الناجم عن نقص في فيتامين ب.

ثم في الشهر العاشر استطاع الرجال أن يروا سواحل غينيا الجديدة.. في الحقيقة كانت إحدى جزر بابوا غينيا الجديدة، وهي التي أطلق عليها الجغرافيون فيما بعد اسم ماروس آيلاند، وتقع بلغتنا نحن بين بريطانيا الجديدة وجزيرة بوجنفيل، وهي المنطقة التي وضع الأستراليون قبضتهم عليها حتى عام ١٩٧٥. ومن البحر كان بوسعهم أن يروا البركان الخامد الذي أطلق عليه فيما بعد اسم جاواتامي.

هللوا وكبروا وهم يرون الغابات والسواحل، وعندما حومت طيور النورس حول الشاطئ. وعندما رست السفن وأنزلت قواربها سجد ابن مسعود على صخور الساحل وسط الأمواج، وقال لرجاله:

-«سبحان الله.. ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.. أنا أول مخلوق يسجد في هذه البقعة من الأرض، ولتشهدن لي يوم القيامة بهذا. هذه الخضرة فأل حسن، ولنسمينها أرض الياقوت كما كان عهدي مع الخليفة».

وانطلق الرجال يستكشفون الجزيرة.

كان أولَ ما قابلوه شعوب بدائية غاية في الانحطاط والتخلف، يعيش أهلها على الفطرة. ولم تكن لهم لغة معروفة سوى الإشارات. وكان طبيب الحارث نطاسيًّا يهوديًّا عُرفت عنه البراعة والحكمة،

فطلب منه الحارث أن يأخذ عشرين رجلًا ويتولى علاج مرضى هذه القبائل. والحق أنهم قابلوا أمراضًا عجيبة ربما عرفوا منها البرص والصفراء، لكن أغلب الأمراض كان غامضًا. وكعادة هذه الحملات انتقلت الأمراض في الاتجاهين، فانتقل الدرن إلى أهل الجزيرة ولم يكونوا يعرفونه.

لكن الأهالي بدأوا يثقون في القادمين، الذين يعالجونهم ويداوون جراحهم، وبدأوا يترددون على معسكر هؤلاء الأغراب الغزاة.

كانت أرضًا ثرية تعد بالكثير، والتربة البركانية بالغة الخصوبة. برغم أن هناك بركانًا خامدًا واحدًا فقد بدا للحارث أن هذه الأرض تعد بالكثير من الخير، وخمن أنهم إن نقبوا لوجدوا العديد من المعادن الثمينة. أما البركان الخامد فقد أطلقوا عليه اسم جبل الكواسر.

كان الحارث منهمكًا، فقد خطر له أن هذه الأرض البكر تحتاج إلى من يبدأ منها حضارة جديدة. بالطبع كانت إندونيسيا قريبة جدًا، وكذلك أستراليا، لكنه لم يعرف هذا، وكتب لأستراليا أن تظل مجهولة إلى أن بلغها الكابتن «كوك».

كان لديه البناءون والمهندسون والدعاة فاختار موضعًا استراتيجيًا يصلح لبناء مدينة تكون بمنأى عن السيول. بدأ هناك ينشئ مدينة صغيرة أطلق عليها «شآبيب».. وهي تعني القطرات الأولى من المطر. وارتفع في المدينة الصغيرة مسجد كبير يُرفع من فوقه أذان الصلاة، وأنشأ مدرسة ومستشفى وبعض البيوت الصغيرة، كما أعلن نفسه خليفة لأرض الياقوت.. بلغتنا نحن لم يكن يعرف أنه حاكم جزيرة ماروس من بابوا غينيا الجديدة.

استطاع كذلك بقدراته التنظيمية أن يُكون جيشًا صغيرًا من الرجال

القادرين على القتال، وكان قوام الجيش سبعين رجلًا يجيدون فنون القتال، وكان سلاحهم وحسن تنظيمهم واطلاعهم على أساليب وتكتيكات الحروب، ما يكفي لجعلهم قوة ذات هيبة، ثم ضموا لهم بعض الوطنيين فزاد قوام الجيش وعدده.

بالطبع حدثت مواجهات عنيفة من وقت لآخر، فأهل الجزيرة لم يكونوا متأهبين لقدوم هؤلاء الوافدين سمر البشرة ذوي اللسان الغريب. لكن الحارث استطاع برجاله حسني التدريب المدججين بأفضل السيوف أن يهزموا رجال القبائل، وقد اختار عدد منهم أن يدخلوا في الإسلام.

مع مرور الأعوام صارت شآبيب هي عاصمة العرب في جنوب شرق المحيط الهادي.. وصارت مركز «الأوقيانوسية»... إنها الجد القديم لميكرونيزيا.

وبدأت قوارب بدائية من إندونيسيا والجُزر الدانية تنقل ركابها الذين يريدون رؤية هذه الأعجوبة. وكانوا ينزلون بدائيين عراة ينظرون في دهشة إلى هذا العمران وهذه الحضارة. وكان من السهل أن يدينوا بالولاء لكل معالم التفوق هذه. إن حضارة بهذه القوة لجديرة بأن تتبع.

أما الحارث بن مسعود، فقد أصلح سفينة من سفنه وأرسلها إلى الوطن كي تعود له برجال وعتاد ومزيد من البنائين.. وطلب منهم أن يعلنوا الولاء لخليفة المسلمين في بغداد، وأن يزينوا له الأمر. وكتب للخليفة رسالة يحكي فيها تفاصيل ما قام به، ومدى ثراء هذه الأرض الواعدة.

ثم قال لمن معه:

ـ «لتكونن شآبيب هي بغداد الجنوب».

٢

وهكذا لما عاد الرجال بعد عامين، كان معهم نساء أرسلهن الخليفة ليتزوجن من رجال الحارث، وبدأت حركة توسع شاملة.. ونظم الحارث الجيوش التي تحمي الجزيرة وتصد المعتدين، وعقد أحلافاً مع رجال القبائل الظامئين إلى التعلم. لقد ولد مجتمع صغير يضم كل تعقيدات المجتمعات الأكبر.

لم يتزوج معظم الرجال من نساء الجزيرة بسبب تفشي مرض جلدي مريع لدى النساء، وخشوا أن يكون مما ينتقل بالزواج، ولهذا يندر أن تجد دماء عربية لدى أهل بابوا غينيا الجديدة. كل الجيل الجديد الذي لا يحمل سوى الدم العربي ولد ونشأ وتعلم في شآبيب، وصارت هي أرضه.

صار في شآبيب علماء وأطباء بارعون، وتفوقوا في علوم الهندسة والرياضيات.. كما تفوقوا في الفلسفة، فكان منهم فلاسفة مثل «ابن عمواس» و«الدريدي»، وقد طور الأخير فلسفة أرسطو وأضاف لها. أما مدرسة شآبيب الطبية فقد برعت في طب الأمراض الجلدية، ولأطبائهم مراجع كبيرة في داء الجذام، كما أنهم وصفوا بعض الأدواء المتفشية في الجزيرة وبحثوا عن علاج لها.

كما نشأ فيها شعراء مثل «أبي منذر الشآبيبي». واسمه الحقيقي أبو منذر بن سلمان البغدادي، وهو صاحب القصيدة الشهيرة:

زارت شآبيب الغيوث ديارنا

فإذا «شآبيبُ» ارتوت بالصيّبِ

فإذا الجبال اخضوضرتْ وترعرعتْ

فالعيش في الياقوت أضحى مطلبي

أنى ترى الركبان تستبق الوغى
وترى الكماة كمثل ضربة لازب
فلتعلمنّ بأننا سن نسلهم
والخالدون بكل ذكر طيب

وساد نوع معين من العزف أطلقوا عليه اسم «ياقوتيات» لم يبق منه الكثير للأسف، فهؤلاء القوم لم يملكوا أساليب تدوين الموسيقى.

لقد حفظ لنا التاريخ معظم حضارة الأندلس وأحوالها وفنونها وطبها، لكنه كان قاسيًا جدًّا مع حضارة شآبيب.. فلم تبق منها سوى بقايا ضئيلة تخبرنا بما كان. يصعب على المرء دارس التاريخ أن يصدق أنه كانت هناك حضارة عربية في «الأوقيانوسية» لكنها الحقيقة، كما أثبت «ثورهايردال» يومًا أن قدماء المصريين بلغوا أمريكا الجنوبية بالأطواف، فلم يتركوا أثرًا سوى أهرام تشبه ولا تشبه أهرام مصر. من السهل أن تعيش مفترضًا أنهم لم يفعلوها قط.

* * *

قضى العرب كما قلنا زمنًا مجيدًا في غينيا الجديدة، واستطاعوا أن يكونوا منارة حضارية قوية، برغم أن إقامتهم لم تستغرق سوى أعوام معدودة. المسجد الذي بنوه هناك اسمه «مسجد الياقوت» وقد كان آية في الفن، وقد أنفق الحارث عليه بسخاء.

على أن الرياح لا تجري بما تشتهي السفن.

لقد تأخر وصول الخراج إلى الخليفة العباسي، ولم يعد يعرف شيئًا عن الحارث وحملته، وجاء من قال له إن الحارث خلعه وسحب بيعته له كخليفة. قيل له إن الحارث طموح، وطموحه قد تنامى، حتى إنه رفض أن يكون فوقه كبير، وإنه أورث ابنه صفوان الحكم وثروات

البلاد. أوغر هذا صدر الخليفة، ونصحه الناصحون بأن يجرد حملة إلى غينيا الجديدة ليعيد عامله إلى الصواب. لقد صار الطريق معروفًا ويعرفه أكثر من بحّار ممن لم يعودوا للحارث.

وكان أن أبحرت السفن التي جهزها الخليفة قاصدة أرض الياقوت، ولم يضيع القوم وقتهم في فهم ما حدث ولا محاولة حقن الدماء، بل كانت غضبة الخليفة وأحقاد الوشاة تحركهم، وعلى سواحل أرض الياقوت التحم الجيش القادم من بغداد مع العرب الذين عاشوا في شآبيب، وكانت النتيجة مروعة بحكم التفوق في السلاح والعدد والعدة. كانت مواجهة بين محاربين جاءوا للقتال، وبين قوم مكثوا للحضارة. لقد أعمل جنود الخليفة السيف في سكان المدينة وسحقوهم، ثم هدموا المباني التي شيدوها بالعرق والدم. ولم يستحوا من هدم مسجد الياقوت على رأس من احتموا فيه.

قال الفيلسوف ابن عمواس:

ـ «لقد كتب على هذه الأمة أن تترنم للأبد ببيت الشعر: أضاعوني وأي فتى أضاعوا...».

قالها وهو يرمق المخطوطات التي تشتعل فيها الأوراق.. وقالها وهو يرى أحذية الجند تطأ كتبًا ثمينة تستحيل استعادتها.

كان الحارث قد توفي منذ أعوام تاركًا الحكم لابنه صفوان، ولم يكن رجال الحملة يعرفون هذا.

احتمى الخليفة صفوان بن الحارث في قصره فاقتحموه ثم قطعوا رأسه ووضعوه في الخل ليتحمل الرحلة، وأخذوه معهم إلى بغداد ومعه حشد من الأسرى. أما القبائل الأصلية فقد رأت صفوان بن الحارث ورجاله ينهزمون فطمعوا فيهم، وانقضوا على من بقي

حيًّا من العرب فذبحوه.. وقيل إن ألفي عربي قتلوا في يومين.. أما المسجد فتحول إلى ركام.

لقد استحالت حضارة الحارث أطلالًا دامية، ولم يبق شيء من مدينة شآبيب العظيمة.

وبعد قليل تجاهل المؤرخون ـ بناء على أوامر الخليفة ـ أي ذكر لهذه القصة في كتبهم، ولم يعد أحد يذكر في التـاريخ شيئًا عن دولة الياقوت ولا عن فتح العرب لبابوا غينيا الجديدة.. لقد فعل العباسيون شيئًا يشبه ما فعلته حكومة قصة ١٩٨٤ عندما كانت تمحو أشخاصًا بعينهم من الماضي ليصيروا «Unperson».

لكنني ذهبت هناك وقمت بعمل بعض الحفريات مع زملاء أستراليين ممن لا تعنيهم سوى الحقيقة، ورأيت بقايا أطلال المسجد قرب الساحل، وهكذا قضيت حياتي أجمع تفاصيل هذه الدولة التي دامت أعوامًا غالية.

وفي الفصل القادم أحكي بشيء من التفصيل عن هذه الدولة.

٣

نظام الدولة الذي أنشأه الحارث بن مسعود كان مركزيًا يعتمد على الحاكم في القلب.

لكنه أنشأ مجلسًا للحكماء يتكون من شعراء وأطباء وعلماء دين وفلاسفة.. وكان قوام المجلس عشرين رجلًا يجتمعون مرة كل أسبوع، فتُطرح أمامهم القضايا المهمة، كما أنهم يضطلعون بتشريع القوانين. وكان هناك أربعة من رجال الحرب الذين أبلوا بلاء حسنًا في معارك سابقة، وهؤلاء كانوا يشكلون مجلس حرب مصغرًا يتبع مجلس العلماء.

اعتبر الحارث رأي هذا المجلس ملزمًا ـ بحيث إنه لا يستطيع معارضة قراراته إلا فيما يتعلق بشن الحروب أو وقفها.. وعلى كل حال لم تكن الحروب مشكلة بالغة الخطر بالنسبة لمواجهة السكان البدائيين العراة الذين لا يجيدون تقنيات الحرب. لنقل إن الأمر لم يتجاوز بضع مناوشات، وقد قرر الحارث أن يأتي من العراق بمجموعة من الخيول لأن هؤلاء القوم لا يعرفونها وهي كفيلة بإرهابهم.

كان هذا المجلس خطوة بالغة التحضر، ولا تتمشى مع التفكير التقليدي لحكام ذلك العهد، حيث المهم هو رضا الخليفة. يغضب فيقطع الرءوس ويرضى فيمنح زكائب الذهب. هنا كان حاكم على استعداد لأن يصغي ويتعلم. وبالطبع كان هناك قدر لا بأس به من التعامل بحرية وعلى قدم المساواة مع الحاكم. إن هالة التقديس التي تحيط بالحاكم تمنعه من التعلم وتمنع رجاله من نقل أخبار سيئة له. هكذا تبدأ دائرة من الزيف لا مخرج منها، ومن حسن الحظ أن الحارث كان أكثر نضجًا من أن تفوته حقيقة كهذه.

كان الفيلسوف «ابن عمواس» يرأس المجلس، وينوب عنه الطبيب عدنان البصري. ولم يكن المجلس مكلفًا بالقضاء، بل كان هناك نظام قضائي معقد أنشأه الحارث.

في كل قضية كان هناك من يتولى الدفاع عن المتهم وتفنيد التهم ضده، بينما يحاول شخص يُدعى «الدائن» أن يثبت جرم المجرم ويعرض حججه، وفي النهاية كان يتم استدعاء عشرة رجال من خيرة المواطنين ذوي الثقة، وكان عليهم في النهاية أن يعطوا قرارهم ببراءة المتهم أو إدانته.

يشبه هذا النظام كثيرًا نظام المحلفين المعاصر. لكن كان القاضي الأكبر يملك تبرئة المتهم ورفض قرار المحلفين استنادًا إلى حكمته وهيبة سِني عمره.

بالنسبة للصحة؛ أقام الحارث مجموعة من البيمارستانات المصغرة في شآبيب، وقد اختار أماكنها على طريقة الرازي: نثر قِطع اللحم في أرجاء المدينة واختار الموضع الذي لم يتعفن فيه اللحم باعتباره أنسب مكان للمستشفى. وكان يعرف أن معظم الأمراض التي يواجهها الناس بسيطة لا تحتاج لطبيب متبحر في العلم، لذا لجأ إلى تقنية «الأطباء الحفاة» قبل أن يفكر فيها «ماو تسي تونج» بقرون.. هات بحارًا عاديًا ولقنه كيف يعالج الإصابات الأساسية والجِراح السطحية، والأهم أن تعلمه متى يطلب رأي طبيب حقيقي.

لا نبالغ لو قلنا إن هذه البيمارستانات كانت هي أداة الاحتلال الأهم والأكثر خطرًا، لأنها تمثل نوعًا من القوى الناعمة التي يعجب بها الأهالي وتجعلهم تلقائيًا يتبنون قضية الغازي الذي يداويهم ويزيل

آلامهم. لا شك أن العلاج المتطور في ذلك العصر كان يتفوق كثيرًا على هراء الأطباء السحرة.

كتب عدنان البصري عددًا من المؤلفات المهمة عن أمراض الجزيرة، ووصف بدقة داء الياوز «Yaws» المنتشر هناك.. كما أنه كتب مرجعًا مهمًّا اسمه «النطاسي» لم يبق منه سوى اسمه للأسف.

استطاع عدنان البصري أن ينقل علمه لبعض البحارة، ثم انتقل هذا العلم لأفراد من الوطنيين أنفسهم الذين بدأ بعضهم يتعلم العربية. وإن عجز العرب عن تعلم لغة هؤلاء القوم.

بالنسبة للتعليم، حرص الحارث على بناء عدة مدارس. مدارس للعرب وأبنائهم من أول جيل ولد في الجُزر.. وفي هذه المدارس كان يتم تعليم القراءة والكتابة والقرآن. أما المدارس الأعلى فكانت لمن يجيد حرفة ينقلها لآخرين، وفي هذه المدارس تعلم كثير من الأطباء الحفاة. كانت المدارس تلعب دور الجامعات.

هناك مدارس خصصت للأهالي، وفي هذه المدارس الصغيرة كان يتم تعليمهم اللغة العربية مع مبادئ الدين باعتبارها تلعب دورًا تبشيريًّا.. وقد اعتنق كثير من تلاميذ المدارس الدين الإسلامي.

بالنسبة للزراعة كان على العرب أن يتمسكوا بالوطنيين الذين هم أدرى بأرض بلادهم.. وكانت أرضًا بركانية خصبة نتيجة للرماد الذي يخرج من وادي الكواسر.

كان الحارث قلقًا بصدد البركان الخامد، ولم تكن لدى العرب خبرة بالبراكين، لكن الوطنيين أفهموهم أنه لم يثر منذ مائة عام أو أكثر، ومنحهم هذا الاطمئنان.

بالنسبة للصناعة كان لدى الوطنيين ما يُعلمونه لهؤلاء القادمين، لكنهم بالتأكيد انبهروا بخبرات هؤلاء العرب وما يجيدون صنعه.

الحق أن الحارث أقام مجتمعًا متكاملًا مستقرًا. لعله نجح أكثر من اللازم.. كقاعدة لا يترك العرب أحدًا من ظهرانيهم ينجح أكثر من اللازم. لا بد من الضغائن ولا بد من إفشاله، كما حدث مع محمد بن القاسم في السند وسواه.

يجد المؤرخ الكثير من العسر في جمع وثائق تلك المرحلة، كأن من حرص على تدمير تلك الحضارة حرص على ألا يبقى منها شيء، ولهذا قد تجد كل تفاصيل وجود العرب في الأندلس أو وسط أوروبا، ويمكنك أن تسطر عدة مراجع، بينما يجهل كل العرب تقريبًا تاريخهم المجيد في المحيط الهادي. ولقد وجدت بعض هذه المعلومات في كتب مؤرخين عرب لهم احترامهم مثل «ابن قزوين» و«أبي العلاء البغدادي».

ما نريد قوله هنا هو أن هذه الحضارة قد دُمرت وأُحرقت، ولكنها ما زالت تحت الغبار متوهجة كالفحم.. يمكنك أن تنقب وتجد آثارها.. وعندها يعرف العالم كله أننا كنا هنا.


أوسلو

١

وكانت للجهل والمقت والسواد والضغينة والتخاذل الكلمة الأخيرة في صراع التاريخ منذ الأزل.

أحمد شامين

* * *

أمينة كانت وحدها في البيت تطالع كتاب «العربي التائه». وكانت قد قرأت قبل هذا كتاب «تاريخ لا يحكونه في المدارس» بما فيه من «حقائق» مذهلة لم تعرفها من قبل. دفعها هذا للتفكير كثيرًا، وأدهشها أنها قرأت كثيرًا جدًّا لكن لم تسمع أن العرب كانوا في «الأوقيانوسية». يبدو هذا معقدًا وغريبًا، خاصة أنها تعرف أن ارتياد المحيطات ليس هواية عربية.. من الصعب أن تتصور أن دولة كاملة قامت هناك ولم نسمع عنها إلا بعد كل هذه القرون.

على كل حال، الكتاب كتبه أحمد صفوان أستاذ التاريخ الشهير في برنستون. هذا رجل لا يتكلم إلا وهو يعرف ما يقول.

ارتجفت كثيرًا وهي تقرأ، وارتجفت يدها.

كانت الحياة تزداد قتامة في أوسلو، والخطر يزداد، كما أن موضة معاداة العرب تحولت لوباء متفشٍّ، هذا الخنزير «داجفين» لا يكف لحظة عن نشر الشر، والأمر يشبه عدوى مصاصي الدماء.. لقد نقل هو العدوى للآخرين فصار كل منهم «داجفين» آخر.

لهذا وجدت الكلمات ـ كلمات صفوان ـ سبيلها لقلبها وعقلها

في حياة كل منا كتاب ينتظره.. كتاب يزلزل مفاهيمه ومعاييره ويجعله يتحمس لأشياء بعينها، ولا يرى سواها.. «كوخ العم توم» و«الإدراك العام» و«الإسلام وأصول الحكم» و«رأس المال»... كلها من تلك الكتب الثورية التي تبدل حياة كاملة.

وقد كان كتاب «العربي التائه» هو الكتاب الذي كانت تنتظره الأقدار في حياتها. وهو موشك على أن يكون إنجيلًا يخبرها بما ينبغي أن تعرفه، وما ينبغي أن تفكر فيه، وما ينبغي أن يكون.

يجب أن تعلم ابنتها سميرة كل شيء عن تاريخهم.. تُحسن لغتها العربية جدًّا.. يومًا ما سوف يحدث شيء، وسوف تعود لأرض الميعاد التي تحدث عنها هذا الكتاب العجيب.

عندما قرأ شريف زوجها الكتاب ألقاه جانبًا وقال في سخرية:

ـ «مَا هذا الهراء؟».

في تقزز هتفت:

ـ «تاريخنا هراء؟».

تراجع خطوة في كلامه وقال:

ـ «هذا الذي في الكتاب هراء لا يصمد لأي منطق».

ـ «لماذا؟ أعطني سببًا واحدًا».

ـ «سأعطيك عشرة أسباب.. لأنه لا يمكن لحضارة هائلة كهذه أن تبيد فلا يبقى منها أثر.. حتى حضارة الأطلنطس حكى عنها المؤرخون، ووجد العلماء بقايا منها تحت المحيط.. المفترض أن حضارة «شآبيب» هذه أحدث.. فكيف لم يحكِ عنها أي مؤرخ؟ وكيف لم تبقَ منها مزهرية واحدة أو إناء شرب واحد؟».

ـ «لأن الغرب يهمه ألا نتذكر تاريخنا المجيد».

الإجابة التقليدية التي انتظرها في خبث كل هذا الوقت، ولا

توجد إجابة مرآها في عقل العربي على كل حال.. ابتسم في سخرية وتثاءب:

ـ «نظرية المؤامرة من جديد. تسمح بتمرير أي شيء.. يمكنك أن تصدقي ما تريدين بزعم أنهم يحجبون الحقائق.. العرب وصلوا للمريخ لكن ناسا تخفي ذلك.. كليوباترا كانت تتكلم العربية لكن علماء الآثار يُخفون ذلك».

منطق لا بأس به، لكنها كانت تشعر أن الأمر معقد جدًّا.. معقد لدرجة تكفي لجعله حقيقيًّا.. لا أحد يستطيع اختلاق كذبة بهذا الحجم. هكذا تجاهلت ما يقول شريف وواصلت قراءة كتابات أحمد صفوان وكتابات مكرم.. بلغت كتابات صفوان درجة من الحيوية جعلتها ترى الأماكن والأشخاص وتسمع الحوار وتشم غبار المعارك... كما أن أشعار الشآبيبي راقت لها جدًّا، وراحت تسترجع بعض المقاطع.

حتى في المدرسة كانت تشرح الدروس بينما عقلها يلوك ويجتر أبيات الشعر الجميلة.

كانت تعرف موضع كل زاوية وكل مدرسة صغيرة وكل بيمارستان في شآبيب، وكانت تسمع صليل السيوف في المعارك بين المستوطنين ورجال الخليفة العباسي، وتسمع صوت الحجارة تنهار بينما يزيلون أثر هذه الحضارة من على ظهر البسيطة.

توشك الأمور هنا في أوسلو أن تقترب من هذا المشهد.

الحق أن العرب والمسلمين اقترفوا الكثير من الأخطاء، ولفترة طويلة كان كل حادث تفجير أو اعتداء ذا طابع ديني، أو يصرخ

الفاعل: «الله أكبر».. عندما يقول العرب: لماذا تقحمون الإسلام في هذا الإرهاب؟ تكون الإجابة: نحن لم نفعل.. أنتم فعلتم. كأن هناك خطة محكمة لكي يسود اليمين، وكي يتحالف العالم ضد الإسلام.. وبالتالي ضد العرب أنفسهم.. هل هي حماقة العرب تدفعهم لذلك دفعًا أم هو مخطط يتجاوز ذكاؤه قدراتنا العقلية؟ الأمر سيان. وكان رد الفعل أعنف من الفعل، فلم يكن مساويًا له في المقدار قط. لقد صار الخلاص من العرب مطلبًا شبه عالمي.

الحق أن الأمور كانت تزداد سوءًا لدرجة أن الناس كانوا يجدون خطرًا في الصلاة في المسجد، وكان ضروريًا وقت صلاة الجماعة أن يقف البعض خارج المسجد يراقبون، تحسبًا لهجمة غادرة أو زجاجة مولوتوف تلقى على المصلين. تمكنوا ذات مرة من القبض على متعصب يحمل بندقية آلية ويتجه للمسجد أثناء صلاة الجماعة، وقد سدد أحد الشباب قطعة طوب محكمة لرأسه من الخلف فسقط فاقدًا الوعي قبل أن يحقق مذبحته.

تذكرتْ أمينة «ثلاثية غرناطة» ـ رائعة رضوى عاشور ـ عن المسلمين الذين بقوا في الأندلس.. وكيف كانوا مرغمين على الإعلان عن إفطارهم في رمضان وتعليق لحم خنزير على الباب. الأمر شبيه بما يحدث هنا مع فارق أن الاضطهاد ضد العرب جميعًا، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين.

الآن تتكفل كتابات صفوان بأن تفتح كوة أمل.

هناك كانت حضارة.. هناك كان مجد تليد.. فهل يعود؟

٢

بعد ستة أشهر اهتز العالم لبيان غريب ألقاه نائب الرئيس الأمريكي. كانت أمينة جالسة في دارها عندما سمعت دقًا حثيثًا على الباب.. دقًا نافد الصبر.

ـ «من؟».

بصوت مرتجف.. كانت قد تعلمت ألا تفتح الباب مباشرة وبدت لها هذه الدقات مريبة.

انفتح الباب وظهرت جارتها زهرة.. كانت ممتقعة الوجه وصدرها يعلو ويهبط بلا توقف، وبلا كلمة أخرى اندفعت لتفتح جهاز التلفزيون.

رأت أمينة على الشاشة نائب الرئيس الأمريكي «جوناثان إيرهارت» الذي يعرفه الجميع، بوجهه الصارم القاسي الخالي من الانفعالات مع نظرته الثاقبة، وعينيه الأمريكيتين الباردتين.. كان يقف على منصة وخلفه العلَم الأمريكي بشكله الأنيق المميز، وحوله ما يبدو كمؤتمر صحفي. دستة من مكبرات الصوت التي تحمل شعارات القنوات الفضائية.

قالت زهرة:

ـ «إنه يتكلم عن شآبيب».

بدا لها هذا عجيبًا.. كانت تعتقد أنه لا أحد يعرف شآبيب أو يبالي بها سواها. زهرة تعرف شآبيب إذن.. ونائب الرئيس الأمريكي يعرفها.. لا بد أن هذا كابوس.

* * *

برغم رائحة ثاني أكسيد الكبريت اللعينة يشعر بحاجة للفافة تبغ. يعبث في صدر القميص الممزق، إلى أن يجد قطعة قماش لف فيها ثلاث لفافات. بحذر يستخرج لفافة منها اصطنعها من ورق الموز والتبغ. هناك قداحة ما زالت معه منذ أيام سونروفيا.. يشعل اللفافة ويتمنى ألا يكون العرق قد أتلفها. سحابة الدخان البيضاء عطرة الرائحة تتصاعد مبشرة بدقائق ممتعة.

* * *

عندما قدم لها «أولاف» اللفافة بيد راجفة، ترددت قليلًا قبل أن تفتحها. كانت تحاول إرجاء لحظة اعترافه بحبها إلى أطول وقت ممكن، لأن معنى هذا نهاية صداقة جميلة.. لن تملك سوى الزجر والتوبيخ والصد. الحقيقة مريرة لكنها كالدواء.. بالغة الأهمية ويجب أن تُقال.. هذه اللفافة تحوي حبًّا. ربما تحوي شعرًا أو زهرًا أو مناديلها الورقية التي كانت ترميها منذ عامين.. المهم أنه حب.. تعرف هذا.

عالجت الشريط اللاصق بأظفارها.. بدأ الورق يتحرر.. لفافة ثقيلة هي. تُرى ماذا يمكن أن يكون فيها؟

إنه حجر! حجر تلوثت بعض أطرافه الحادة بدم جاف مسود. أي مزحة هذه؟

قال «أولاف» وقد رأى التعبير الحائر المشمئز على وجهها:

-«منذ أشهر قذفت هذا الحجر على أحد المتحرشين بكِ في الشارع، وأرغب في أن تحتفظي به دومًا.. هناك في تلك الأرض القصية التي تنتوين الرحيل لها».

«أولاف» أيها العزيز.. أنت أكبر من سنك بمراحل.. تريد أن

أتذكر أنك يومًا حميتني ودافعت عني. من قال إنني سأنسى.. بحجر أو بدون؟!

عاد يهمس للمرة الرابعة:

_«ابقي هنا.. لن يمسسكِ أذى ما حييت.. أنا سأدافع عنكِ.. سأعلمهم كيف يتخلصون من عنصريتهم كما ينزع المرء ثوبه الدنس».

بصوت مبحوح:

_«أولاف» أيها العزيز.. هذا أقوى مني بكثير.. إنه مسار حياتي بالكامل، ولن أغير مسار حياتي كي أرضيك مهما كنت أحمل لك من التقدير».

في عالم مثالي خيالي تتنازل المعلمة عن السفر للجانب الآخر من العالم حيث لا اضطهاد ولا خوف، لأن طالبًا عندها يحبها.. لكن ليس هنا بالتأكيد.

في عالم مثالي خيالي تقبل المعلمة المتزوجة ذات الابنة المراهقة حب تلميذ مراهق في صفها.. تلميذ أصغر من ابنتها سنًّا.. لكن ليس هنا بالتأكيد..

في عالم مثالي خيالي لا يحتاج الناس إلى الهجرة لمجتمع يحميهم من الاضطهاد، وحيث لا يوجد تمييز عنصري.. كل إنسان هو مَلك في الموضع الذي سقط رأسه فيه حيث أطلق صرخة الرئتين الأولى.. لكن ليس هنا بالتأكيد.

أعادتْ لفّ الحجر في الورقة، ورأت في عينيه أنه يعرف أنها ستلقيها في أقرب قمامة. لا أحد يحتفظ بالأحجار الملوثة بالدم، لكنها كانت تعرف أنها ستتعامل بشيء من التقديس والإجلال مع كتلة العاطفة الدامية هذه. ستحتفظ بها ولن تتخلص منها أبدًا..

سوف تضعها على منضدة في بيتها الجديد، وتتذكر الشعر الأشعث والسالفَين الكثين والنظرة الملهوفة في عينين زرقاوين.

* * *

على الشاشة ظهر وجه «جوناثان إيرهارت».

وجهه صارم كالعادة، فيه الكثير من القسوة التي اعتادتها ملامحه. ونحن نعرف أنه لا يطيق القسوة أو العنصرية.. لقد كان في هذه اللحظات يصنع تاريخًا حقيقيًا.. ناتج ساعات طويلة من المناقشات مع الرئيس ومع مكرم وجماعته المصغرة.

الترجمة النرويجية الفورية.

كان يقول كلامًا غريبًا غير معتاد:

ـ «لقد عانى العرب كثيرًا ولاقوا ضروبًا عدة من الاضطهاد والتمييز العنصري، وتشتتوا في كل الأرض حيث جمع بينهم شيء واحد؛ هو المعاملة السيئة. لقد ارتكبت أطراف عربية كثيرة أخطاء فادحة، لكن الولايات المتحدة لحسن الحظ أكثر حكمة من أن تخلط بين غالبية العرب الأبرياء الذين أرادوا حياة سلمية مع جيران انقلبوا عليهم. إن الولايات المتحدة تنظر بعين العطف إلى اتخاذ إحدى جُزر «الأوقيانوسية» القريبة من بابوا غينيا الجديدة موطنًا للعرب يبدءون فيه من جديد بعيدًا عن الاضطهاد والتمييز العِرقي.. حيث يعيدون إحياء تاريخهم وتقاليدهم، والولايات المتحدة ملتزمة بنقل عرب العالم إلى ذلك الوطن الجديد لمن أراد.. كما أن مجموعة من الدول سوف تخصص حسابًا دوارًا يسمح ببدء المستعمرات في ذلك البلد. نحن نعرف من كتابات المؤرخين المحدثين أن للعرب

جذورًا قوية في غينيا الجديدة، وقد قمنا بالتنسيق مع الحكومتين الأسترالية والإندونيسية لذلك».

ثم نظر للجميع نظرة قاسية ثابتة.. وساد صمت رهيب.

ثم إنه هز رأسه ونزل من المنصة فانقض عليه الصحفيون كالغربان يسألون، بينما هو يتلذذ بمتعة رفع يده ليقول في سماجة:

- «لا تعليق».

ظلت أمينة تنظر للشاشة غير مصدقة، ثم نظرت لجارتها السورية زهرة وصدرها يعلو ويهبط.. ثم نظرت لابنتها.

وسرعان ما تعانقت المرأتان وهما تبكيان... لقد انتهى الكابوس.. أرض أخرى واحتمالات أخرى ووجوه أخرى.. لا مزيد من الخوف والاضطهاد.

كانتا تبكيان.. برغم كل شيء هما نرويجيتان بحكم النشأة، ولسوف يكون فراق هذا البلد عسيرًا، لكن تذكر وجه «داجفين» القبيح العنصري كان يكفي ليخفف أي ألم.. هناك في مكان ما يوجد أمل. تنتظر البدايات الجديدة وهي تلوح بالأيدي داعية المكبوتين والمظلومين. لا بد أن «إيما لازاروس» شعرت بشيء كهذا وهي تؤلف كلمات الشعر على قاعدة تمثال الحرية.

سألتها زهرة وهي تجفف دموعها:

- «هل تنوين الرحيل؟».

قالت أمينة وهي تتذكر النيران التي تحرق شقتها. تتذكر الدماء التي تغطي الشارع.. تتذكر الصراخ... تتذكر دموع سميرة:

- «بالتأكيد».

- «وكيف تنوين العيش في المجتمع الجديد؟ لا أعتقد أنهم بحاجة لمعلمات للأدب النرويجي».

قالت أمينة في حماسة:

ـ «لكنهم بحاجة إلى بشر.. بحاجة إلى أمهات.. بحاجة إلى نساء عاملات باسلات.. سوف أكون هناك».

* * *

ـ «كفّي عن هذا السخف».

أي سخف؟ لا بد أنك تمزح.. لا يمكن أن تكون جادًّا.

قالت أمينة في جنون:

ـ «أي سخف؟ لو لم تكن أنت تصدق فأنا أفعل.. أؤمن أن الفرصة قد جاءتنا.. لا يمكن أن نركلها».

ضغط على أسنانه في توحش وقال:

ـ «الأمر سهل.. أنا لن أتخلى عن حياة ناجحة أتقدم فيها يومًا بعد يوم، من أجل أن أجرب حظي في جزيرة على حافة العالم».

ـ «هناك كان أجدادك».

ـ «لم يكن لي أجداد في الأوقيانوسية.. هذا شيء أنا موقن منه».

كان متصلب الرأي بشكل لا يوصف.. وأدركت أن صِدام الإرادات لن يمر على خير. عليها إذا أرادت الحفاظ على هذا البيت أن تخرس.. لكن من قال إنها قادرة على التحمل أو أن تخرس؟

يومًا بعد يوم يتكرر ذات الجدل، وإن كان يزداد حدة في كل مرة.. الهمس بدأ يصير مسموعًا ثم صار صراخًا.. هو يؤمن أن هذا وهم كبير ومقامرة تهدد حياة مستقرة. ولمرات عديدة كان يصفع الباب بقوة وهو مغادر البيت فيسقط شيء ما في مكان ما من فرط الصدمة. صار جو البيت خانقًا بحق.

لماذا لا يرى الأمور بعيني هذا الأبله؟ الخطر يزحف ويتزايد،

وهامش حياتنا بضيق. لو لم نتخذ القرار اليوم فلسوف تفوت اللحظة فنندم ندم الكُسعي.. أما هو فكان رأيه (وكانت جنتي فخرجت منها). لعنة الزواج الدائمة هي أنك لا تستطيع أن تقول لشريكك كُن فيكون.. لا بد من رأي مستقل يعارضك. لا بد من أن يسحق أحدهم إرادة الطفل العنيد بداخلنا.

قالت لها سميرة وقد أصابها الهلع من جو النيران الذي يعصف بالبيت:

- «ماما.. حياتنا هنا محتملة.. هناك صخور تعترض مسار سفينتنا لكننا تعلمنا كيف نتفاداها».

- «أخشى ما أخشاه يوم تصير الصخور جبلًا أو شلالًا.. ما زالت الفرصة سانحة».

- «أبي هو ربان السفينة».

- «وقد يخطئ الربان تقدير الأمور».

أثارت الموضوع عدة مرات في الأسابيع التالية.. الإغراء شديد والحياة في النرويج تزداد خطرًا.. عندما يرحل الجميع سيكون موقفهما غاية في السوء.

في كل مرة يقول لها في عصبية:

- «سيعودون جميعًا.. هذه قصة فشل أكيد».

في كل يوم يختفي وجه من الحي العربي، وتسمع أمينة أنه هاجر.. لحق بالسفن أو الطائرات المتجهة نحو العالم الجديد. الحياة ستبدأ في شآبيب بينما نحن هنا.

هل تطلب الطلاق؟ لم تبلغ حماستها هذه الدرجة، خاصة أنها في النهاية تقامر بعصفور فوق شجرة.. لربما تفقد حياة مستقرة في النرويج، لكنها لا تريد كذلك أن تفقد بيتها.

لقد رحل معظم سكان البناية.. يذهبون للمطار حيث تقف الطائرات الأمريكية تنتظر.. هناك أسطول كامل في كل أرجاء العالم.. بعض الناس كانت سفن الأسطول السادس تنقلهم.. كانت هناك شبكة معقدة من المواصلات بين البحرية والجوية. رحلت زهرة وأولادها وزوجها أمس.. أشعرها هذا بوحدة شديدة، وطلبت منها أن تكتب لها بانتظام.

ضحكت زهرة وقالت:

- «الأمر شبيه بأيام المستعمرات الأولى يا غالية.. لا توجد خدمة بريد ولا هواتف.. وبالطبع لا يوجد بريد إلكتروني أو واتساب.. لا أعرف متى ولا كيف يمكنني أن أتصل بك».

وتعانقت الصديقتان بقوة ثم راحت كل واحدة تلثم أبناء الأخرى.

رحلت زهرة فمتى نرحل نحن يا شريف؟

هي اللحظة التي تؤدي غالبًا للطلاق بين زوجين متحابين:
أنتِ زوجتي ويجب أن تكوني معي في كل مكان.. لقد انتدبوني للصعيد وسوف آخذكِ معي. لا.. أنا لن أترك أمي وحدها هنا. عليكِ الاختيار بين زوجكِ وأمك. لماذا تجعل الأمور بهذ التعقيد؟ لأنها بهذا التعقيد فعلًا.. أرجو أن تختاري بين واجبكِ مع زوجكِ أو البقاء مع أمك. وأنا لن أتردد ولن أفكر مرتين.. الأزواج يأتون ويذهبون بينما ليست لديَّ سوى أم واحدة. هل تعرفين معنى ما تقولين؟ بالتأكيد. أنتِ تتحدثين عن الطلاق. نعم أعرف ما أقول. الزوجة التي لا تطيع زوجها تستحق الطلاق. الزوج الذي لا يحترم حب زوجته لأمها هو زوج لا لزوم له. إذن أنتِ طالق. ربما يقولها ثلاثًا. تبكي وتحكي للناس كم هو وغد ونذل، خاصة عندما تصل الأخبار فيما بعد أنه تزوج في الصعيد.

هذا هو تقريبًا ما حدث هنا في النرويج مع اختلاف الأماكن.

قالت أمينة لزوجها:

ـ «لم يبق لنا أصدقاء».

ـ «بالعكس..لدينا كرستيان وسجفريد».

ـ «أتكلم عن العرب».

قال في لا مبالاة:

ـ «نملك أنفسنا ونملك وظائفنا.. نستطيع البقاء للأبد».

ابتلعت ريقها ثم قالت:

ـ «لقد قدمت لهم إنذار شهر في المدرسة.. أنا فعليًا مستقيلة».

نظر لها غير مصدق.. أنتِ فعلتِ هذا؟ ولماذا؟

- «أنتِ تعرفين أن قراراتنا مشتركة ومستقبلنا مشترك».
- «هذه حياتي».
قال في مرارة:
- «منذ قيل إننا تزوجنا لم يعد لأي واحد منا حياة مستقلة.. هذا بيتنا.. هذه ابنتنا.. هذه حياتنا.. بل إن هذا وجهنا وهذه ذراعانا».

لماذا لا يسبها ويلعنها ويهينها ويصفعها؟ إذن لجعل الأمور أسهل، يتصرف بطريقة الضحية مما يثير غيظها ويشعرها بالذنب... قالت وهي تحاول ألا تضعف:

- «في لحظة أن ينزلق أحد الزوجين لخطأ أو جريمة يجب أن يتصرف كل واحد وحده.. هبني أردت أن أقتل.. هل تبقى معي؟».
- «أعتقد ذلك».

نظرت إلى النافذة وهمست بصوت أرادت ألا يسمعه:
- «إذن أنت أحمق».

ثم أمسكت بيده وبطريقة أقرب إلى التوسل ضمتها لصدرها وقالت وهي ترمق عينيه:

- «شريف.. أنا لا أطيق الحياة هنا.. صرت مذعورة خائفة أرتقب قدوم الليل كلما جاء نهار جديد، ثم في الليل أرتقب قدوم النهار، لا بد من أمن».
- «الأمن في بابوا غينيا الجديدة؟ فعلًا... الجذام والزهري وأكلة لحوم البشر».
- «بل التجربة.. بل صفحة بيضاء واعدة».

نظر في عينيها ثم تنهد معلنًا نهاية الحديث، وقال:

ـ «أمينة.. أنا سأبقى هنا ولن أغير رأيي.. إذن...».

ـ «إذن ماذا؟».

نهض في عصبية ودس يديه في جيبيه وقال:

ـ «الطلاق طبعًا».

ـ «وَلِمَ؟».

ـ «لأنني لا أتحمل فكرة بقائي هنا، بينما زوجتي تخوض مغامرات مجهولة في الجانب الآخر من الكرة الأرضية.. أريد ألا أكون مسئولًا عنكِ أو ابنتكِ بأي شكل.. أنا مسئول عمن هم تحت سقف بيتي ويطيعون أوامري ويحرصون على إرضائي».

لم تستوعب ألمها بعد ولم تقدر خسارتها.

فقط كانت مدفوعة بغريزة العناد وعدم التراجع، لذا قالت بصوت ثابت:

ـ «كما تريد».

وهكذا انهمكت كثيرًا في اليومين التاليين في إنهاء الإجراءات المدنية، ولم تكن هناك مشاكل أخرى.

سميرة راحت تبكي وتمسكت بأبيها، فأخذها إلى جنب وقال لها كلامًا كثيرًا.. أكذوبة ما عن أعمال سينهيها قبل اللحاق بهما.. كلام فارغ.. لكنه وأمينة قدّرا أن المجتمع الجديد سيجعل الفتاة تنسى.

ـ «لا تحاول تشغيل شواية الدجاج فهي تنطفئ والغاز يتسرب منها».

قالتها له بصوت مبحوح، فقال:

ـ «كوني دومًا مع المجاميع.. قاومي حاسة الاستقلال قليلًا».

- «لا تفتح الباب لأي طارق ليلي.. ولا تترك سيارتك خارج الجيتو».
- «لا تنسي أقراص الحديد في موعد الدورة الشهرية.. أنتِ مصابة بفقر دم».

وهكذا تم الفراق.. انتظرت فترة طويلة حتى ابتعدت وصار من حقها أن تترك المخاط يسيل من أنفها.

* * *

خلال يومين وجدت أمينة نفسها تقف مع ابنتها تراقبان البحر.. الأمواج المتلاطمة فوق قطعة من الأسطول السادس الأمريكي. حيث وقف حشد من العرب من أكثر من بقعة في أوروبا.. ستكون رحلة شاقة وطويلة جدًّا إلى أن يبلغوا نصف الكرة الجنوبي. بين أستراليا وإندونيسيا.

بابوا غينيا الجديدة.. أرض الميعاد.

مونروفيا

هأنتذا تجلس وحيدًا في الإضاءة الخافتة.

اعتدت أن تبقى وحيدًا في الظلمة، وأن تفتح صوت المذياع عاليًا حتى لا تسمع صوت جمجمة تتهشم. كنت على الأرض ترى كل شيء بشكل مقلوب وتسمع من يقول إنك صرت وحيدًا.. لقد رحلت الزوجة ورحل الطفلان.

الخمر المحلية الرخيصة لم تعد قادرة على محو الذكريات.

إنها تجرح أحشاءك لا أكثر، وترث منها كتلة من النار تتلظى بالداخل. النار التي أردتها أن تحرق الذكريات انبرت تحرق أعصابك. انبرت تشعل جذوة الحقد في روحك.

اعتدت أن تبقى وحيدًا في الظلام تتحسس لحيتك التي لا تحلقها، مصغيًا لخرفشتها كأنها لحنك الخاص.

والدرس اللعين الذي تعلمته، هو أن الظلام خير شاشة تسقط عليها الرؤى والذكريات الأليمة. أنت ضحية حادث عنصري قذر لكن تعريف ما حدث لا يعنيك.. ما يعنيك هو أنك وددت لو لم تسقط على الأرض، وامتلكت القوة كي تنزع خُصيتَي الرجلين.

لقد جاء رجال الشرطة.. متراخين، غارقين بالعرق، بائسين.. وقد أخذوا أوصاف الرجلين، ووعدوا بأن يظفروا بهما.

بعد يومين استدعوك للمخفر فذهبت تجرجر جراحك وضماداتك وآلامك، وهناك في غرفة خبيثة الرائحة فاضت المجاري على أركانها ورسمت على جدرانها مشانق وشتائم. هناك يجلس الرجلان على الأرض مكبلين بالأصفاد.. يجلسان لأن قدميهما لم تعودا تستطيعان الوقوف. من الصعب أن تتعرف معذبيك وهما متورما الأعين

وشفاههما مشقوقة تنزف، وقد امتلأ الوجهان بالكدمات والسواد.
لكنك عرفت الوجهين.. وبأنامل مهشمة أشرت أن نعم.. هما من استلباك الحياة في تلك اللحظة المدلهمة.

- لم تكن مباليًا.. لم تبصق عليهما أو توجه اللكمات...

لم تكن حاقدًا عليهما. هزيمتك وخسارتك أكبر من قدرتك على الاستيعاب والتفاعل. لهذا لا يتألم من تتفحم أجسادهم في الحريق.. لأن أعصابهم احترقت.. أنت احترقت أعصابك ولم تعد تبالي. فليعدما أو ليكرما.. لا يهم.. ما كان قد كان وانتهى الأمر.

مزيد من تلك الخمر الرخيصة. نار تشتعل في المعدة.

جابرييل يجلب بعض الأعشاب المحلية التي يدخنونها للنسيان. نوع من الحشيش القوي. يجلس القرفصاء على الأرض ويلف لك سيجارة.. يشعلها.. يأخذ منها نفسًا قويًّا ثم يناولها لك.

تجذب أنت نفسًا قويًّا.. تخرجه.

تعرف شيئًا واحدًا لن تتخلى عنه، هو أنك لن تبقى في مونروفيا يومًا آخر.. لن تبقى في إفريقيا ذاتها. لقد تقطعت الجذور وهلك الأهل، وتكاثرت الذكريات الأليمة كأنها الفطريات.

لا بد من الهرب.

زحف «جابرييل» إلى المذياع الصغير وفتحه، ومنه دوى صوت المذيع يتكلم عن ذلك الوعد الغريب الذي قدمه «جوناثان إيرهارت» نائب الرئيس الأمريكي.. الوعد بوطن يوحد العرب ويجمعهم.

جاءت فقرات من الخطاب بالإنجليزية التي لا يفهمها كلها.. لكن «جابرييل» كان يعرف بعض تلك اللغة الشيطانية، فراح يفسر له.

- «إن الولايات المتحدة تنظر بعين العطف إلى اتخاذ إحدى جُزر

«الأوقيانوسية» القريبة من بابوا غينيا الجديدة موطنًا للعرب يبدءون فيه من جديد بعيدًا عن الاضطهاد والتمييز العِرقي. حيث يعيدون إحياء تاريخهم وتقاليدهم، والولايات المتحدة ملتزمة بنقل عرب العالم إلى ذلك الوطن الجديد لمن أراد».

للمرة الأولى بدأ وجه سليم يتحرك.

ربما منذ يوم الحادث لم يبد على ملامحه أي تعبير على الإطلاق. نظرة اهتمام عابرة عبرت وجهه.. ثم إنه سأل «جابرييل» الذي يعرف كل شيء:

- «هل هناك آلية لنقل من يرغب إلى ذلك العالم؟».

حك «جابرييل» رأسه وأخذ منه السيجارة الملغمة فأخذ نفسًا طويلًا وقال:

- «هناك في مونروفيا وكالة لاجئين تابعة للولايات المتحدة. تقدم اسمك وبياناتك وتنتظر».

- «أنتظر ماذا؟».

- «سوف تظل في وضع معلق بانتظار استدعائك.. ثم يطلبون منك أن تتوجه إلى الميناء. سيتم نقل مجموعة سيراليون وساحل العاج وليبيريا بحرًا».

كان يعرف أن ليبيريا فيها عدد محدود من العرب.. تُرى هل يرغبون جميعًا في الرحيل؟

«جابرييل» بدا غير متحمس:

- «تفو».

وبصق الدخان الذي ابتلعه.. ثم قال وهو يجلس على ردفيه:

- «هذه مخاطرة.. أنت ذاهب إلى الجحيم والمجهول.. أنت هنا تملك اسمًا ومالًا شحيحًا وبعض أصدقاء. هنا لك تاريخ

وماض.. هنا لك ذات وذكريات.. فكيف تجازف بهذا كله من أجل وهم؟».

قال سليم وهو يحك لحيته التي لم يحلقها منذ الحادث:

ـ «لقد انتهت جذوري مع هذا البلد، ولن ينجح بعض أصدقاء في جعلي أبقى.. لقد فقدت القدرة على الحياة. لم يعد لي غد. أنا بحاجة لأرض جديدة ووجوه جديدة وذكريات جديدة.. أنا بحاجة إلى سليم جديد بلا ندوب».

قال «جابرييل»:

ـ «افعل ما شئت.. فأنا لم أر قط أحمق يغير نيته الحمقاء، ولم أستطع أن أوقف حمارًا يركض في حياتي كلها».

وما لم نذكره هنا هو أن سليمًا قد سمع مقاطع من كتاب «العربي التائه». هناك موجة خاصة على المذياع بلغة الميريكو، وهي ـ كما قلنا ـ تحوي الكثير من الإنجليزية الأمريكية، لكنه قادر على فهمها. على هذه الموجة سمع مقاطع كاملة من الكتاب. بدا له خرافيًّا يتكلم عن أشياء مبهمة، لكنه في الآن ذاته سأل نفسه:

ـ «هل أنا عربي حقًّا؟ إذن فهذه الكلمات تمسني.. أنا ضائع في أفق أسود، لكن هناك من هم ضائعون مثلي ولسوف نجد بعضنا.. من يدري؟ لربما استطاعت هذه التجربة أن تغيرني، فإما أن أخوضها وإما أن أجلس هنا أنتظر الهلاك الأكيد. لقد تحطم مجدافي ولم أعد قادرًا على الإبحار.. لتكونن كلمات «إيرهارت» هي مفتاح الخلاص لي».

بدأ سليم ينسق أعماله ويتأكد من استرداد أي مال له، شأن من بنوي ألا يعود أبدًا...

حرص فقط على اصطحاب بعض من ذكريات زوجته الراحلة.

وقد ذهب إلى القبر الذي جمعها بالطفلين فجثا أمامه باكيًا. قال لها بين الدموع:

- «سامحيني.. كان عليَّ أن أدافع عنكِ وأكون أنا الراقد في هذا القبر. أو كان عليَّ أن أقتل نفسي بعد رحيلكِ لكني لم أجرؤ».

«سامحيني ثلاث مرات».

«سامحيني» لأنني سأتركك في هذا البلد الغريب.. لكني أعدكِ أن أعود لأسترد رفاتك وأدفنه في وطني الجديد.. يومًا ما سأعود. لن تعرفيني وقتها إلا بعد كثير من العناء والجهد».

قالها لنفسه عدة مرات وهو يتجه إلى مكتب الهجرة الذي يرفرف فوقه علَم الولايات المتحدة مع شعار «UN»، وهناك ترك لهم بياناته.

سيدني

سقط دلو البول على رأسه وأغرق قميصه.

من قال إن هذا بول؟ لا تمزح.. لا توجد سوائل كثيرة لونها أصفر ولها تلك الرائحة المقيتة. وقد عرف هو المقلب الذي ينتظره بمجرد أن فتح باب مكتبه.. شعر بصعوبة الفتح للحظة ثم سمع صوت شيء يسقط، وقد أدرك نصف ما ينتظره حتى إنه نظر للأرض وحاول أن يقي وجهه من الصدمة.

بول! لقد تمادوا كثيرًا.

دلو البول وضعوه فوق فرجة الباب من أعلى، بحيث يسقط فوق رأس من يدخل.. ويبدو أن من غادر المكتب استعمل مفتاح الباب الثاني وجلس في مكتبه ينتظر اكتمال الدعابة العملية.

تخطيط متقن، ولو لم يكن محمد عدنان يعاني كل هذا الاشمئزاز لذهب ليهنئهم على براعتهم في التخطيط. من هم؟ يمكنه أن يخمن ثلاثة أسماء بين موظفي المصرف.. كلهم يتحرش به ويدبر له المقالب باعتباره العربي الوحيد هنا.

كان قد قابل عربًا كثيرين في سيدني، وكلهم قال له إن البلاد لم تكن كذا منذ أعوام. كان العرب قد ذابوا في المجتمع تمامًا، ثم وقعت عدة أعمال إرهابية وتفجيرات معتادة مع كلام عن عودة دولة الخلافة... إلخ.. هكذا صار القوم هنا متأهبين تمامًا لممارسة طقوس الكراهية.

كان هناك مبشرون شوفينيون يدعون لإبادة العرب حتى في أستراليا. ومع الوقت صار عليك أن تنعزل وتمارس حياتك كمواطن

منفوع يعيش في جيتو، وليست له حقوق المواطنة ذاتها. بالقانون أنت تماثل أي واحد آخر، لكن ليس القانون كل شيء.. هناك مستوى آخر للمعاملة لا يمكن الإمساك به. يمكن أن أسيء معاملتك برغم أنني لا أصفعك ولا أشتمك ولا أبصق عليك.

اليوم تصل الأمور لجزء عملي جديد لم يصله من قبل.

يتجاوز الأمر عدم توقف سائق الحافلة من أجلك، أو تجاهل بائع السوبر ماركت لك لأن ملامحك عربية.

كان يرتجف من الاشمئزاز والغيظ.. وراح يطلق السباب بالعربية وهو ينزع ربطة العنق ويفك القميص. بالفانلة الداخلية دخل الحمّام ووضع رأسه تحت الصنبور المتدفق يغسل هذه الأدران. ثم إنه وضع القميص والفانلة تحت المياه المتدفقة.

عندما أعاد ارتداء كل شيء كان يبدو كأنهم انتشلوه من المحيط.

بلا ردود أفعال أخرى تقدم نحو مكتب المدير «ساندرز». لاحظ وجوه الجالسين في الخارج فقدر أن أي واحد منهم يمكن أن يكون قد فعلها.. يتصرفون كتلاميذ المدارس الذين يشتمون المعلم وهم ينظرون للناحية الأخرى ولا يبدو أي تعبير على وجوههم. لا يمكن اتهام أحد.. لكن يمكن اتهام الجميع.

المدير كان جالسًا إلى مكتبه يرمق الموظف الخارج من المحيط في ذهول.

- «هل تلف نظام مواسير الحمّام؟».

- «هذا بول يا سيدي».

- «بول!».

- «نعم.. من أحد موظفيكم المهذبين، كاشفًا عن تسامحه العِرقي وكراهيته للتعصب».

لم يتوقع حماسًا من المدير أو تحقيقًا. فقط سوف يُظهر الكثير من الانزعاج ثم يصرفه. السيناريو دائمًا هكذا في حقبة التحرش هذه. وبالفعل، جلس المدير إلى مكتبه وعقد أصابعه ورفع حاجبيه وجعد جبهته وقال:

ـ «لست أدري لماذا تُحول مزحة بولغَ فيها إلى جريمة كراهية.. هل تتهم أحدًا؟».

ـ «أتهم الجميع.. لا أتوقع أن يظهر صاحب البول ليعلن أنا فعلتها.. لا أتوقع أن تحمر أذناه خجلًا، لكني أتهم الجميع.. ولأنه من المستحيل أن تعاقب الجميع أي سيدي فجوابي هو: «لا أتهم أحدًا»».

ـ «إذن يمكنك الانصراف لتستحم وتبدل ثيابك. ولتحاول إقناع نفسك أن هذا لم يحدث».

ـ «لكنه حدث يا سيدي».

ـ «نحاول نصف حياتنا أن نقنع أنفسنا أن ما حدث لم يحدث.. غالبًا ما ننجح في ذلك».

عندما غادر محمد المكتب استطاع أن يرى شبح ابتسامة ساخرة أو متشفية على أكثر من ثغر.. لماذا تذكر مراقبة النجوم على سطح البناية وعزة؟ لماذا تذكر سجن المنصورة؟ لماذا تذكر المصرف؟

الحقيقة هي أنه حبيس الكون كما توقع بالضبط.. وقد فر إلى أطراف العالم، لكن السجن كان كبيرًا بحق.. سجن في حجم المجرات.

قابله المصري الآخر رأفت.. وهو شاب أسمر نحيل له عينان جاحظتان خبيثتان وشفة سفلى متدلية وتفاحة آدم لا تكف عن الرقص في عنقه.. يبدو وضيع الأصل بوضوح تام، لكنه تفرنج قدر الإمكان ليليق بسيدني. هذا القناع لن يخدع أحدا.

- «ماذا حدث لك؟».
- «مقلب.. أولاد الزانية دبروا لي مقلبًا».
قالها دون أن ينظر له.

كل المصريين هنا يعرفون أن رأفت جاسوس لأمن الدولة في مصر، وهو يكتب تقارير منتظمة عن كل أفراد الجالية الذين يقابلهم، وهو دور عتيد لدى الجاليات. لكن رأفت هو الوحيد الذي لا يعرف كم أن سرّه مفضوح.. السبب هو أنه لا يتكلف إخفاء الفضول، ولا يكف عن توجيه الأسئلة عن موقفك السياسي، ويلجأ لنوع من الغموض والتذاكي «الحكومي» على طريقة شيوخ الخفر في مصر..

لم يكن محمدًا ينوي العودة لمصر، لهذا لم يقتصد في ذكر آرائه السياسية المعارضة. وقد كان له تاريخ حافل من المعارضة والاعتقال والانضمام لليساريين، فلا بد أن رأفت كان يسهر الليل كله في كتابة تقاريره عن محمد. محمد هدية الأقدار لكل مخبر يحب عمله.

كان رأفت يتلقى كذلك الكثير من المضايقة العِرقية، لكنه كان يتمتع بغريزة الكلاب التي تجعله يقبل أي نوع من الحياة ما دامت آمنة.

دون كلمات أخرى اتجه محمد إلى المصعد.. باب الشركة ثم السيارة الواقفة في المرآب. يشعر بمرارة واشمئزاز.. لقد جاءت اللحظة التي لم يتوقعها قط: أن يشعر بأن أستراليا ليست رحبة على الإطلاق.

* * *

دخل إلى بيته الصغير ذي الحديقة في ضواحي سيدني، حيث رحب به الكلب الصغير متواثبًا.

لم يكن ذا مزاج رائق لمداعبة الكلب، فهرع إلى الحمّام ونزع ثيابه ثم وقف تحت الدّش يزيل كل هذه القذارة شاعرًا بالنشوة.

«جلاديس» سمعت صوت المياه فخرجت من المطبخ وهي تطوح شعرها الأشقر.. رأته عاريًا من خلال الباب الزجاجي. لن يخبرها بالتفاصيل.. هناك أشياء لا يخبر المرء بها زوجته.

عندما خرج من الحمّام كانت تنظر له بعينيها الزرقاوين الواسعتين متسائلة عن سبب عودته المبكرة.

ـ «الصداع لا أكثر.. سمح لي المدير بالعودة».

أنت تكذب.. كان قد دس ثيابه في الغسالة فلن تلاحظ ما يلوثها..

«جلاديس».. الزوجة الأسترالية التي عوضته عن زوجته. لا يريد تذكر تلك الأيام ولا عجزه الجنسي ولا إحباطاته.. لكن زوجته المصرية أبت في عناد أن تهاجر معه. قالت إن أهلها في مصر، وهي لن تتخلى عن أمها المُسنة في سن كهذه.. على الأرجح لن تجدها فوق الأرض لو عادت بعد عام.

كان الخلاف، وتدخل أولاد الحلال، لكن قضيب القطار كان قد وصل إلى مفترق جوهري.. يجب أن يبقيا معًا هنا أو هناك.. وإلا فالبديل هو انهيار مرعب وتدمير كل شيء. اختارت زوجته الحل الأخير.

في أستراليا عرف «جلاديس».. وهي فتاة ذات نصيب محدود من الجمال، ولم تكن تحظى باهتمام الشباب.. لهذا وافقت على الزواج منه على الفور. وفي ذلك الوقت لم تكن الأمور قد وصلت لهذه الدرجة من السوء.

اليوم تخاف أي فتاة أسترالية أن توافق على العربي الذي يطلب

يدها.. والسبب هو خوف ذي وجهين: خوف منه وخوف عليه.. نوعان من الخوف صنعتهما الدعاية الفاشية المجنونة.

لم يُرزقا بطفل بعد، لكنه بين ذراعيها أدرك أنه لم يزل رجلًا. فقط كان يحتاج لتربة مختلفة جديدة يغرس فيها بذرته. وقد شعر نحوها بحب وامتنان يشعرهما الرجل بشكل طبيعي نحو امرأة تُشعره بأنه رجل.

كانت قد أعدت طعام الغداء فجلبت الأطباق وجلسا معًا في المطبخ.

هل تريد جهاز التلفزيون؟ لا بأس.. هذه نشرة الأخبار.

وعلى الشاشة ظهر وجه مألوف وقد كُتب على الجانب «جوناثان إيرهارت» نائب الرئيس الأمريكي. كان يقول كلامًا عجيبًا:

ـ «الولايات المتحدة لحسن الحظ أكثر حكمة من أن تخلط بين غالبية العرب الأبرياء الذين أرادوا حياة سلمية مع جيران انقلبوا عليهم. إن الولايات المتحدة تنظر بعين العطف إلى اتخاذ إحدى جُزر «الأوقيانوسية» القريبة من بابوا غينيا الجديدة موطنًا للعرب يبدءون فيه من جديد بعيدًا عن الاضطهاد والتمييز العِرقي.. حيث يعيدون إحياء تاريخهم وتقاليدهم، والولايات المتحدة ملتزمة بنقل عرب العالم إلى ذلك الوطن الجديد لمن أراد.. كما أن مجموعة من الدول سوف تخصص حسابًا دوارًا يسمح ببدء المستعمرات في ذلك البلد. نحن نعرف من كتابات المؤرخين المحدثين أن للعرب جذورًا قوية في غينيا الجديدة، وقد قمنا بالتنسيق مع الحكومتين الأسترالية والإندونيسية لذلك».

توقف محمد عن المضغ ونظر في دهشة إلى «جلاديس».

ما معنى هذا الكلام؟

بابوا غينيا الجديدة على مرمى حجر، بل إن أستراليا احتلتها لفترة طويلة جدًّا.. وما زالت شبه الجزيرة تنتمي لنظام الكومنولث.. أي أنها تعتبر نفسها من أملاك أستراليا.

وطن جديد للعرب في بابوا غينيا الجديدة.. جزيرة تنتمي لها. فكيف تتسع هذه الجزيرة لكل أعداد العرب في العالم؟ على الأرجح يتكلم «إيرهارت» عن عرب الشتات الذين يقيمون في دول غير عربية.

قالت «جلاديس» وهي تملأ فمها بالسلاطة:

ـ«هذا هذيان.. فكرة مخبولة بحق».

هز رأسه موافقًا، ولم يعرف أن الفكرة ستحاصره بقوة في الأيام التالية.. لقد بدأ الأمر مثل ألم بسيط في الحلق يستمر أيامًا ثم يتكشف عن حمى مخيفة قاتلة.. الفكرة التي كانت أقرب للدعابة على مائدة الغداء صارت وسواسًا، فهاجسًا، فرغبة كاسحة.

لم يتصور محمد أنه سيهاجر مرة ثانية.. هذه المرة ستكون زوجته معه.

الرّواد

مسرحية من فصل واحد

(على خشبة المسرح يمكننا أن نرى ديكورًا يمثل سطح سفينة. في الخلفية نرى المحيط وسماء مكفهرة غير رحبة، بينما في المقدمة نرى تفاصيل السطح. هناك بحارة أجانب يحملون البنادق يقفون في طابور في الخلفية كأنهم في «تمام». السطح يختلف عن السفن التقليدية، فهناك طبلية مدفع، وهناك جهاز رادار. يمكن بسهولة أن نخمن أن هذه سفينة حربية كبيرة، وعلى الميمنة نرى العلم الأمريكي يرفرف وجواره علم عليه علامة «UN» (الأمم المتحدة). هناك عدد من العرب على السطح يجلس بعضهم على مقاعد غير مريحة، ومنهم أمهات يرضعن أطفالهن. وبعضهم يستند إلى صاري السفينة ويتكلم. نرى خمسة من العرب يؤدون صلاة الجماعة، وثمة طفل يلهو بكرة صغيرة. يدخل بحار ومعه مرافق يحمل كيسًا كبيرًا فيوزع لفافةً يبدو أنها تحوي طعامًا على كل واحد من الجالسين على السطح. أمينة تدخل إلى خشبة المسرح مع ابنتها سميرة).

أمـــينـــة: هل تسمعين؟

(صوت النوارس)

سـمـيـرة: ماذا أسمع بالضبط؟

أمـــينـــة: هذا صوت النوارس.. نحن نقترب من البر.

سـمـيـرة: الحقيقة أن رحلتنا طالت فعلًا.. لقد درنا حول العالم كي نجد أنفسنا، ولا أحسبنا سنجد أي شيء في النهاية.

أمـــيـــنـــة: يبدو كلامي عجيبًا، لكن من أهم مزايا التقدم في العمر أنكِ تتعلمين الحلم.. يخيل لي أن الحلم فن يتم تعلمه مع الأيام والنضج. الأغرب أن الشباب لا يحلمون.

ســـمـــيـــرة: سيكون هذا أغرب ما سمعته هذا العام. الكبار أقدر على الحلم من المراهقين. أنت متميزة فعلًا فيما تقولين.. أحيانًا أعتقد أن أبي كان على حق.

أمـــيـــنـــة: أبوكِ رفض أن يلعب النرد مع الأقدار. آثر الثمار الدانية برغم أنها شائكة مُرة المذاق.

ســـمـــيـــرة: أعتقد أنه كان حكيمًا.. في أوسلو كان لي أصدقاء ومدرسة وغد.. اليوم أنا ذاهبة معكِ إلى لا مكان، لكن ليس بوسعي أن أجد حلًّا آخر.. لا أجسر على الافتراق عنك لحظة.

أمـــيـــنـــة: سوف تدركين أنني كنت على حق.. لا بد أن كلمات مماثلة قيلت سخرية من المهاجرين إلى أمريكا. كانوا مفعمين بالأحلام التي ضاقت بها أوروبا، كما أنهم كانوا يطلبون حرية العبادة. في النهاية وجدوا جنتهم.

ســـمـــيـــرة: كان بوسعنا أن نعود إلى تونس.

أمـــيـــنـــة: إلى بلد لم تعد لنا أي جذور فيه؟ لقد نسيت كيف كانت المدينة تبدو.

(يقترب منهما سليم. ينظر لهما نظرة عابرة ثم يقف على حاجز السفينة يراقب البحر).

أمـيـنـة (بصوت خفيض): في عيني هذا الرجل، يمكنني أن أرى كمّ الحزن الذي أرغمه على هذه التجربة.

سـمـيـرة: أعتقد أنه من شمال إفريقيا.. عرفت شابًا من ليبيا يتكلم بهذه اللكنة.

أمـيـنـة: بل هو لا يتكلم تقريبًا.

سـمـيـرة: عرفت شابًا من ليبيا لا يتكلم تقريبًا.

(يظهر عبد المنعم. شاب مُلتح نحيل عصبي يلبس قميصًا قصير الكُمين، ويربط رأسه بمنديل اتقاء الشمس. يقف جوارهما يصغي بعض الوقت ثم يتقدم نحو أمينة ويخفض عينيه).

عبد المنعم: أنا عبد المنعم..آتٍ من إنجلترا.. لو سمحتِ لي ببعض الكلمات يا أختاه. من أين جئتِ؟

أمـيـنـة: من النرويج.

عبد المنعم: لقد رأيت ذروة الكفر وذروة المجون في البلاد التي كنت فيها، لكنني اضطررت للصمت والتقية. واليوم أحلم بأن تعود أمجاد هذه الأمة في شآبيب. لقد قرأت كل ما كتب عنها، وشعرت الدم يجري في عروقي ساخنًا. لقد كنا هنا يومًا وهانحن أولاء نعود.. ما زال حلم دولة الخلافة قائمًا.. كل شيء ممكن في الغد.

أمـيـنـة: لماذا اضطررت للصمت والتقية؟ كان بوسعك العودة لبلدك في أي وقت؟

عبـد المنعـم: تلك بلاد جاهلية تركت الدين ونسيته.. هي لا تختلف كثيرًا عن إنجلترا، على أنك قد تقبل من غير المسلمين ما لا تقبله من المسلمين.

أمـبـنـة: وأنت تطلب مني أن أكون في دولة خلافتك!

عبـد المنعـم: ذلك هو الحق يا أختاه.. وإننا إن شاء الله لمنتصرون.. أنا أدعوكِ بالكلمة الحسنة.

أمـبـنـة: دولة الخلافة! لقد ظللت أسمع هذه العبارة دهرًا. قابلت كثيرين يتكلمون عنها حتى في أوسلو. لكن ما أراه اليوم أننا مسحوقون نعتمد بالكامل على الغرب في هجرتنا هذه. لقد مرت بهذه الأمة فترات طويلة يصحو فيها هذا الحلم وتسيل الدماء لتغرق كل شيء، ثم في النهاية يتعبون ويرتمون مرهقين وسط بركة الدم، وبعد أعوام يقول قائل: لقد خسرنا الحرب لأن إيماننا غير كافٍ.. وتولد الفكرة من جديد.

عبـد المنعـم: الأفكار الصحيحة لا تموت في بحار الجهل. قد تنهزم، لكنها لا تفنى.

أمـبـنـة: لم يعد الزمن زمن النصال التي تتكسر على النصال ولا قطع الرقاب.. لقد تغيرت قواعد اللعبة.

عبـد المنعـم: هذه ليست لعبة لتتغير.. هذا مصير أمة. مصير ملايين.

أمـبـنـة: لو ظهرتْ في السوق سلعة يستعملها كل الناس

بشكل خطأ عبر التاريخ، فالعيب ليس في الناس.. بل في السلعة. فكرة الدولة الدينية خاطئة منذ البداية لهذا يسيء الكل استعمالها. عليك أن تعترف بهذا.

عبد المنعم: يبدو أنني أخطأت مَن أتوجه له بالدعوة. سوف يبرهن الزمن على صحة كلماتي ولسوف ترين الدولة التي ستولد في جنوب شرق المحيط الهادي.

(يقترب منهم رأفت ويصغي قليلًا)

رأفت: اسمي رأفت.. أنا أريد أن أصغي.. هلا كررت كلامك؟

عبد المنعم: أتكلم عن دولة الخلافة التي ستحررنا معشر المسلمين من بطش الأمم.

(أمينة وابنتها تنصرفان)

رأفت: هل توجد خطة معينة في ذهنك؟ في رأيك ما الذي ينبغي أن نفعله؟

عبد المنعم: ما زال الوقت مبكرًا يا أخي.. ما يمكن عمله هو أن تربي أولادك جيدًا وتخبرهم بأن لنا غدًا مبهرًا. هذا ما نقدر على عمله في أرض ليست أرضنا وبداية ليست بدايتنا.

رأفت: أنا من أستراليا.. من أين الأخ؟

عبد المنعم: بريستول.. إنجلترا. لدينا جالية كبيرة هناك، ولعل أكثرهم ذاهبون إلى حيث نحن ذاهبون.

رأفت: هل أنت داعية؟

عبـد المنعـم: لست مؤهلًا لذلك للأسف، لكني أحمل انتماء عميقًا للإسلام.. أنا آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأعلن الولاء والبراء فحسب.

رأفـــــت: هل هناك من يقود مجموعتكم؟

عبـد المنعـم: اسمه الشيخ سراج، أطال الله عمره وبارك في علمه... من يورك شاير.. يطلقون عليه أحيانًا أبا منذر السوري. أعتقد أنه سبقنا إلى غينيا الجديدة.

رأفـــــت: أرجو أن تعرفني به عندما نصل هناك.

عبـد المنعـم: بعون الله لتجدنه ملء السمع والبصر.. لقد خلق الرجل ليقود.

(يدخل ماهر. رجل في منتصف العمر له ابتسامة ساخرة ويلبس عوينات غليظة. يراقب المحادثة بعض الوقت وهو يستند إلى حاجز السفينة. ينفصل عبد المنعم وصاحبه ويبتعدان فيمشي نحو عبد المنعم ليقف جواره ويشعل لفافة تبغ ويتأكد من ابتعاد رأفت).

عبـد المنعـم: أنصحك بترك التدخين.. لعل حرق ورقة مالية أقل ضررًا من حرق التبغ الذي تحرقه.

مـــاهـــر: دعك من الاهتمام بصحتي واهتم بصحتك أنت. لا تتكلم أكثر من اللازم. هذا الذي كنت تحدثه يوشك على أن يحمل بطاقة مخبر على صدره. لقد كان يستجوبك وأنت تعطيه اعترافات كاملة.

عبـد المنعـم: من قال هذا؟

مـــاهـــر: الكل على ظهر السفينة يعرف هذا.. كان عميلا أمنيًا لدى حكومته يتجسس على المغتربين.. بالمناسبة اسمي ماهر.. من ألمانيا.

عبـد المنعـم: لا قيمة لهذا الكلام في أرض جديدة.. لا يوجد أمن دولة ولا وزارة داخلية. نحن ذاهبون إلى جزيرة نائية.

مـــاهـــر: العادات السيئة تموت بصعوبة. هناك أناس خلقوا مخبرين وهو لن يكف عن هذه العادة. يومًا ما ستكون هناك سلطة وسيبيع لها هذه المعلومات. إنه يجمع المعلومات ويكتب التقارير حتى وهو نائم.

عبـد المنعـم: إذن فأنت أخ كريم. نحن من نفس المعسكر.

مـــاهـــر: لا أعتقد هذا.. أنا من ألد أعدائك.. رأيي الخاص أنك وأمثالك سبب تخلف هذه الأمة.

عبـد المنعـم: أنت علماني إذن.

مـــاهـــر: علماني أو لائكي أو مادي جدلي. لا يهم.. أنا أمثل كل ما تكرهه أنت. أنا كابوسك الحي، لكني لا أكتب تقارير عن الناس.. أنا أكتفي بالمواجهة. ولا شك أن رأفت هذا قد جمع تقارير ممتازة عني. لديه ملفات للإسلاميين والليبراليين والماركسيين.. إنه يحاول أن يبقي موهبته لينة لا تصدأ.. لنقل إنه يزيت مفاصل العمالة لديه.

عبد المنعم: أنا أحتفظ برأيي.. لقد تخلفنا بسبب أمثالك.. يوم تخلينا عن ديننا.

ماهر: وأنا أرى أن مشكلة هذه الأمة تديُّنها المفرط.. وهو تدين لا يبلغ أبدًا مرتبة العمل، بل هي مجرد كلمات محفوظة. أوروبا تقدمت عندما قهرت سلطة الكنيسة ونسيت الدين. التدين يعوق التفكير الحر ويجعلك تسلم قيادك لمن يتكلم ببلاغة أفضل ويجيد قلقلة حروف «قطب جد».

عبد المنعم: لقد قهرك الغرب وشوه أفكارك، بينما استطعنا نحن أن نحتفظ بذواتنا ومُثلنا.

ماهر: بل إنك حملت معك البادية إلى الغرب.. ذهبت هناك لكنك لم تتحرر، والحق أنه كان من الأفضل أن تبقى في بلدك حيث تجد النظام الذي تستحقه والمعاملة التي تناسب تفكيرك. لا معنى لأن تذهب إلى النور لتنشر ظلامك الخاص.

عبد المنعم: لربما يأتي يوم تندم فيه على هذه الكلمات.. بل هو آتٍ حتمًا.

ماهر: قطع الرقاب.. هذا هو جوهر تفكيرك.. كلكم تتشابهون معشر المتأسلمين.

عبد المنعم: والتحلل التام.. هذا هو جوهر تفكيرك.. كلكم تتشابهون معشر مدّعي الثقافة.

ماهر: نحن متفاهمان.. كلانا يشك في نوايا الآخر.

عبـد المنعـم: أرجو أن تبتعد عن طريقي عندما نصل هناك.. فأنا لن أتخذك حليفًا.

مـــاهـــر: لقاؤنا سيحدث شررًا يشعل الجزيرة.. ومن الواضح أنه لا جدوى لكلام مثل تأجيل خلافاتنا وعدم شق الصف.

عبـد المنعـم: لا جدوى فعلًا.. واجبنا الأول هو الخلاص من الملاحدة أو من سار على سيرهم.. أيّ حل غير هذا هو نفاق ومضيعة للوقت.

مـــاهـــر: أحلم بدولة يصير فيها التدين حرية شخصية. علاقة خاصة مع خالقك لو كنت تؤمن بوجوده.. أمقت التفتيش على الضمائر.

(يبتعد الرجلان. تعود أمينة مع سميرة وتقفان)

أمـيـنـــة: وهكذا تعلمت كل هذا من جدك.. إن تونس تجري في عروقنا كالدم. وما زلت أحلم بيوم نعود هناك.

ســمـيـرة: هذا الحلم قد ابتعد جدًّا.

(تقفان جوار سليم الذي ما زال يدخن وينظر للبحر).

أمـيـنـــة: لقد كان الغرب كريمًا معنا، لكنني ما زلت أحلم بالوطن.

(يلتفت سليم في عصبية)

ســلـيـــم: سامحيني يا سيدتي، فأنا لا أتحمل سماع عبارات من هذا النوع.

أمينة: أي عبارات؟

سليم: أن الغرب كان كريمًا معنا.. لقد عوملت أسوأ معاملة ورأيت كم يكون الإنسان قاسيًا متوحشًا.. لقد ماتت الرحمة في روحي وأنا أرى ما يفعلونه.

أمينة: من أين جئت؟

سليم: ليبيريا.

أمينة: ليس هذا هو الغرب الذي أتحدث عنه.. أتكلم عن أوروبا.. ليبيريا تحمل نفس فقرنا وتخلفنا وتعصبنا.

سليم: الحق أنني ورثت غضبًا مجنونًا في روحي يوشك أن يحرقني إن لم أحرق به الآخرين.

أمينة: هل ثمة قصة تبرر هذا؟

سليم: لا أقدر على السرد.. القصة تشعل روحي كلما دنوت منها. فقط لن أغفر لنفسي أنني لم تتهشم جمجمتي ولم أنزف كل دمي. لقد خذلت أحبائي.

أمينة: آسفة.. يبدو أنها حكاية قاسية..

سليم: ما أريد قوله هو أنني فقدت الرحمة. لو كنا نولد بخلايا رحيمة فقد زالت كل خلاياي.

(صوت النوارس يتعالى)

(الرجال على حاجز السفينة يصرخون)

الرجال: اليابسة! لقد وصلنا!

سليم: حان الوقت لذلك.

الرجال: حمدًا لله.. الله أكبر.

أمـــيـــنــــة: فصل جديد في حياتنا يبدأ.. كم أتوق لأن أرى الغد.. أرى حالنا بعد عام من الآن.

ســـلـــيـــم: سيكون هناك الكثير من العناء والعرق وربما الدم.

أمـــبـــنــــة: رحّبي بنا يا غينيا الجديدة.

(ستار)

في شآبيب

١

من قلب الظلام قد يولد فجر جديد، ومن قلب الفجر قد يولد ظلام دامس.. عليك أن تتخير لحظتك المثلى فأنت من يصنع فجرك أو ظلامك.

سمير الشيخ

* * *

بابوا غينيا الجديدة هي نصف مساحة غينيا الجديدة، وكانت تحت الهيمنة الأسترالية حتى العام ١٩٧٥ حيث تحررت من احتلال دام ستين عامًا ثم ظلت تنتمي للكمنولث. وتشتهر دائمًا بشكلها الجغرافي الذي يذكرك بريشة الطائر.

هذه بلاد غريبة حقًا.. تنوع جغرافي وعِرقي وبيئي غريب، ومن العجيب أنها دولة تقع على خط الاستواء وبرغم هذا هناك مناطق جليدية. ويؤمن الجيولوجيون أنها كانت مع أستراليا قارة واحدة اسمها جندوانا.. ثم تفككت عن قارة أستراليا منذ ١٣٠ مليون سنة.

العاصمة هي بورت مورسبي. وتسيطر على معظم جزر بابوا غينيا الجديدة باستثناءات قليلة جدًا، منها جزيرتنا ماروس آيلاند التي اختارها مكرم بعناية مضنية. اختارها لأنها مستقلة، ولن تزعم الحكومة الأسترالية أو الإندونيسية امتلاكها. لاحظ أن غينيا الجديدة مجاورة جدًا لإندونيسيا.

التنوع العِرقي مذهل كما قلنا، وهناك فوضى لغات محيرة.. يقول الخبراء إن هناك ٨٢٠ لغة، منها ١٢ لغة لم يبق من يتكلمها. يذكرك

هذا بمشهد من فيلم «حيث يحلم النمر الأخضر»، حيث يذهب البدائي الأسترالي للمحكمة فيعجز الكل عن التفاهم معه، لأنه آخر من يتكلم اللغة التي يتكلمها.

بعض اللغات يتكلمها أقل من ١٠٠٠ شخص، لكن هناك لغتين مهمتين هما الإنجا والملبا، وبالطبع هناك الإنجليزية لكن لا يتكلمها الجميع.

هناك في وسط الجزيرة مجموعة عِرقية تعدادها ٥٠ ألف شخص لم يعرف أحد بوجودها إلا عام ١٩٣٨ عندما طارت هليكوبتر فوق الجزيرة كلها.

تقع جزيرتنا ماروس آيلاند بين بريطانيا الجديدة وجزيرة بوجنفيل ضمن جزر بابوا غينيا الجديدة، وهي المنطقة التي وضع الأستراليون قبضتهم عليها حتى عام ١٩٧٥. وهي جزء مستقل لم تصله عجلة التقدم، لكنها ليست أرضًا بلا سكان.

جزيرة ماروس آيلاند كانت نموذجًا مصغرًا لبابوا غينيا الجديدة نفسها.. نفس التنوع اللغوي والعِرقي والبيولوجي.

الحقيقة أن مكرم درس المكان جيدًا وقرأ الكثير جدًّا عن هذه البلاد قبل أن يبدأ في كتابه الشهير، وكان اختياره دقيقًا.. هذا أصلح مكان للدولة الجديدة التي يزعم أنها قديمة.. لا أحد يهتم بهذه الجزيرة ولا أحد يذكر شيئًا عنها. الحكومة الأمريكية موافقة والأسترالية غير معترضة. لقد صار يعرف كل حجر على الجزيرة دون أن يراه. وكان تقديره أنها تتسع لمليون عربي يجمعهم من الشتات.. العرب المقيمون في وطنهم العربي الأصلي لا مكان لهم حاليًا بالطبع فعددهم هائل يحتاج إلى قارة كاملة. لو عادت قارة ليموريا أو أطلانطس للوجود لفكر في أن يرسل العرب كلهم لها.

الجزيرة تشبه جغرافيًا بابوا غينيا الجديدة كلها، لكنها تمتاز بالبركان جواتامي الذي أطلق عليه العرب ـ في زعم مكرم ـ جبل الكواسر. وقد أقلق هذا البركان مكرم، لكنه تبين أنه لم يثر منذ ٣٠٠ عام على الأقل.. وهو على العموم يتصرف مثل بركان تافورور في بابوا غينيا الجديدة.. وتُغطي البركان دوائر كثيفة من الغابات الاستوائية. الأرض وعرة جدًا في بابوا غينيا الجديدة لدرجة أن وسيلة المواصلات الأهم والأكثر جدوى هي الطائرة!

بالطبع على ماروس آيلاند تكون وسيلة النقل المثلى هي قدميك.

هذه بلاد غنية بالثروة الحيوانية.. فيها ٨٪ من كل فقاريات العالم، وفيها ٤٪ من كل سحالي العالم و ١٠٪ من كل أسماك العالم.. وبرغم هذا مساحة الجزيرة نصف بالمائة من مساحة العالم.

يعيش على الجزيرة قوم بدائيون يمارسون الصيد والقنص، لكنهم لا يعرفون بكثرة المناجم الثرية التي يملكونها.. وقد ظلوا لفترة طويلة يمارسون أكل لحوم البشر. ويبدو أنهم لم يتوقفوا قط عن هذه العادة الد[illegible]ة لهم.

هناك ديانات عديدة في الجزيرة، لكن الديانة الأهم في بابوا غينيا الجديدة هي البروتستانتية، لكن لم يكن هناك مسيحيون على جزيرة ماروس.. لا بد أنهم الْتهموا المبشرين الذين زاروهم آملين في نشر المسيحية يومًا.

الديانة المنتشرة بين القوم على ماروس آيلاند هي ديانة عبادة الأجداد.. كما أنهم يمارسون عقيدة الأنيميزم.

لفترة طويلة كانت طريقة التعامل الوحيدة في بابوا غينيا الجديدة هي القواقع مذهبة الحواف، إلى أن ظهرت العملات، لكن أهل ماروس ما زالوا يتعاملون بالمقايضة والقواقع.

وهناك على الشط بدأ الإنزال.

يمكنك بسهولة أن تستعيد مشهد غزو أوروبا في الحرب العالمية الثانية.. اليوم (ي).

حشد من سفن دول غربية وافقت على مهمة نفي العرب أو إنقاذهم.. يمكنك أن تميز العلَم الأمريكي وقِطع الأسطول السادس، كما يمكنك أن ترى عدة أعلام من الكومنولث.

قوارب بخارية صغيرة تحمل المهاجرين سُمر البشرة نحو الشط، بينما تتولى بعض السفن إنزال لوازم البناء وتشييد الأكواخ... الموج يتعالى، ومن بعيد ترى جبل الكواسر ينتظر. الرجال يخوضون الماء حتى الأفخاذ، وتطوع البعض بحمل النساء الواهنات والأطفال. لهجات عربية عديدة... صلوات وأدعية.. هناك من أخذته رقة العبادة فسجد وسط الزبد والموج ليملأ الملح فمه، لأنه يريد أن يكون أول ساجد في هذه الأرض.

البدائيون يقفون على مسافة آمنة من الشط خلف الأشجار، يراقبون هذا الغزو الغريب على جزيرتهم، ولا شك أنهم يتبادلون الآراء بين مُهادن ومُعاد. لقد استطاع القادمون حفر طريق شبه ممهد يمتد من البحر إلى حزام الأشجار وبدا هذا غريبًا لدى البدائيين.

عند نهاية الطريق وقف بعض الحطابين بجذوع عارية يقطعون حزام الأشجار.. تتهاوى الشجرة فيستخدمون خشبها في صنع نطاق معسكر.. المعسكر الأول.. العضلات.. العرق.. الغبار.. الضوضاء مع هدير المحركات والطائرات العمودية التي تحوم هنا وهناك تلتقط صور المشهد. الحق أنه لمشهد ملحمي عملاق سوف يحتل موضعه ضمن مشاهد التاريخ الأخرى من أول حصار طروادة.

القارب البخاري يقف قرب الشط.

تترجل أمينة وسميرة.. يمد رأفت يده ليساعدها على الخوض في الماء الذي يصل إلى رُكبهما. تشم رائحة البحر المالح وتشعر بدفء المناخ الاستوائي.

هنا فقط شعرت بالرهبة.. جسامة التجربة التي آلت أن تخوضها، والقرار العسير. لم يعد هناك سبيل للتراجع. لم نتفق على التراجع وعلى أن يعود الفاشلون إلى وطنهم. البحر من خلفكم والعدو من أمامكم.. المقولة التي لم يقلها طارق بن زياد قط لكنها تلخص الموقف.. لا مجال للفشل، أو لإبداء الندم على القرارات.

تخوض الماء، وفي النهاية تضع قدميها العاريتين على الشط شاعرة بالرمال الساخنة تحرق بطن قدميها.

من بعيد ترى وجوهًا كثيرة.. مع كثرة الوجوه يصعب أن تقابل ذات الشخص مرتين.. أنا لا أرى ماهر ولا عبد المنعم.. أعتقد أنني لن أراهما ثانية في هذه الرواية.

قالت سميرة وهي ترتجف:

- «أنا خائفة».

- «سيكون كل شيء على ما يرام».

- «وإن لم يكن؟».

- «إذن سندفع ثمن قرارنا بشجاعة».

على الشط يقف بعض البحارة الأمريكيين يقدمون للقادمين زجاجات الماء، ويقودونهم عبر الطريق الممهد الذي يقيهم الغوص في رمال الشط.

- «سوف ننجح».

قالها رجل قصير القامة له لحية قصيرة ونظرة واثقة.

وبالإنجليزية صاح رجل أمريكي يلبس سترة بيضاء:

ـ «لا تنسوا أقراص الملاريا التي وزعت عليكم على السفينة.. الملاريا هنا قاتلة».

ترجم لهم العربي قصير القامة ما قاله الرجل.

ترى ماذا يفعل شريف الآن؟ وحده في أوسلو وقد تخلص من عبء الزوجة والابنة.. لا تجرؤ على تخيل ما يمكن أن يقوم به رجل يعتقد أنه ينتقم ممن ظلمه.. همست من بين أسنانها: «يا وغد! كيف تجرؤ على عمل هذا كله؟».

تمشي مع سميرة على الطريق الذي تم رصفه بأحجار متلاصقة.. وفي النهاية تصل إلى النطاق الذي تم إخلاؤه من الأشجار. هناك كان شاب عربي يقدم لها بطاقة تملؤها.. مكتب جوازات وسط الأدغال. ثم تقف منتظرة إلى أن يقدموا لها وابنتها خيمة تصلح.

هناك حشد من الخيام المنصوبة ليقيم فيها القادمون بانتظار بناء أكواخ، ومن قال إن تجربتها ستكون سهلة؟ المبيت على الأرض في خيمة على خط الاستواء.. تجربة متعبة منهكة لكنها مثيرة برغم ذلك.

مدت يدها في حقيبتها.. أخرجت شيئًا ولفته في كيس ووضعته جوارها. كان هذا حجرًا تلوث بدماء منذ زمن، وقد جف الدم واسود لكنها لم تنس المعاني التي تحيط بهذا الرمز.

احتضنت ابنتها ورقدت فوق الحشية التي منحوها إياها، وأغمضت عينيها من فرط إرهاق.. ستكون الليلة الأولى طويلة حتمًا. ستحاول أن تحلم بتونس فإن لم تستطع فستحلم بأوسلو..

لكن الحقيقة أن ما كان يظهر لها في المنام هو وجه «داجفين» الوسيم الشرير وهو يدعو لإبادة العرب.

«داجفين» هنا في أطراف العالم؟ إنه كلي القدرات كإله وثني إذن.

حلمت بأشياء عديدة متداخلة.. عجين هلامي متجانس من الجنون والوجوه والخبرات القديمة. أحلام من الطراز الذي يستحيل أن تتذكره عند الاستيقاظ.. وعند الاستيقاظ صباحًا تشعر يقينًا أنك لم تنم ثانية واحدة.

٢

كان مكرم يحلم.

عندما ينظر إلى الأكواخ ونطاق الأسوار والخيام المتناثرة، حيث عالم بدائي بلا ماء ولا كهرباء ولا سيارات.. عندما كان يرى الوجوه المندهشة الخائفة التي فرت من ترف الحياة الغربية لتجرب حياة بدائية غريبة. عندما كان يرى هذا كان يدرك صعوبة وعسر الطريق الذي اختاره.. ما زال أمامه الكثير جدًّا حتى تولد مدينة بها مبانٍ وناطحات سحاب ومتاجر وبورصة وسيارات في شوارعها، ولربما شبكة طرق وسكك حديد... من يدري؟

لقد وضع البذرة على كل حال، وليس من الضروري أن يتابع نموها.. من حقه أن يموت ويستريح. الموت هو الحل الوحيد ليخرس ذلك الطموح الذي يزلزل كيانه.

كان مكرم يحلم.

يحلم بجامعة شآبيب.. بمستشفى شآبيب.. بالمدارس.. بالعملة. بالمصارف.. بمقعد الأمم المتحدة وجوازات السفر.

كان يحلم بأن تكون شآبيب هي حلم العرب في كل العالم بعد مائة سنة. وقتها ستكون الهجرة مشروطة ومعقدة لأن مساحة الجزيرة لن تتحمل أكثر.

لم يلعب قط دور قائد.. لم يلعب دور داعية.. لكنه الآن يشعر بموهبة واهنة دفينة في روحه تتحرر.. إن قائدًا حقيقيًّا يولد داخله.

كان يردد لنفسه ألف مرة في اليوم:

- «سوف ننجح».

فيرد عليه ألف صوت داخلي:

- «بل هو الفشل.. ولسوف تتوسل لـ«جوناثان إيرهارت» كي يجري ترتيبات عودة العرب لبلادهم البديلة.. سوف يذكرك التاريخ كنبي كذاب أضاع مستقبل الآلاف وراء وهْم».

عندها كان يقول لنفسه من جديد:

- «سوف ننجح».

ويداعب لحيته القصيرة في عصبية.

* * *

قالت «جلاديس» وهي تشهق:

- «هذا المكان يحرك خيالي بشكل غير مسبوق».

كانت نائمة على ظهرها ترمق سقف الخيمة، والطقس حار رطب لكن هناك أنسامًا خجولة تتسلل من حين لآخر. التربة ندية ناعمة، لكنها تنام على غطاء منحه المنظمون لها.. من فتحة الخيمة يبدو جزء من السماء تلتمع فيه النجوم.

أردفت:

- «كنت محقة عندما أصررت على ترك كل شيء والمجيء معك هنا.. هذه الجزيرة ستكون جنتنا».

لم يكن محمد عدنان مستريحًا.. ليلته الأولى على «ماروس آيلاند» تبدو محبطة. النوم في خيمة على الرمال في مستنقع بدائي هذه ليست أفضل بداية ممكنة لحلم دولة.

هجرته الثانية والأخيرة.. لن يحزم حقيبته ويقصد مكانًا آخر أبدًا. سوف يموت هنا حتى لو قرر الجميع العودة. كان يحب «جلاديس» لكنه توقع منذ اللحظة الأولى أنه الفراق.. لن تقبل بأن تتخلى عن أستراليا وكل ما صنعاه كي تأتي لجزيرة بركانية

مجهولة، لكن «جلاديس» أثارت ذهوله عندما قالت إنها ستتبعه في كل مكان.

كانت متحمسة لكل شيء، وبرغم أنه لاقى بعض الصعوبة في تسجيل اسمها ضمن المهاجرين لأنها غير ذات أصول عربية، فقد تم الأمر في النهاية واستطاع أن يهاجر بها.

صوتها الهامس كالفحيح.. وعيناها تلمعان كأنهما نجمتان من نجوم السماء دخلتا الخيمة.

تقول ماذا؟

تقول خذني هنا والآن.. أريد أن أشعر بك في أعماق أعماقي.. أريد أن أدفن وجهي في عشب صدرك.. أريد أن أموت على يديك وأعود.

يهمس لها:

- «لسنا آمنين.. نحن تقريبًا في العراء».

- «وهذا يشعل ناري أكثر.. أن نكون في خطر».

لكن كيف يخبرها أن رجولته لن تتحرك أبدًا في ظروف كهذه.. الشعور بالمراقبة يُطير أي شهوة من جسده..

انحنى وببطء تلمس شفتيها الرطبتين في الظلام.

الأغشية المخاطية تتلامس؛ على رأي فرويد، وهنا أدرك أن الأمر ممكن.. لم يعد جسده خامدًا.. يمكنه أن يلعب دور الرجل.

عندما كانت تذوب بين ذراعيه أو تعترف برجولته كان يشعر بأنه قهر الغرب بشكل ما.. عقدة «موسم الهجرة للشمال» للطيب صالح تتكرر معه بإلحاح، وكان يتذكر كيف كان جثة هامدة مع زوجته المصرية فيندهش.. لقد هزمته مصر فجعلته فاقدًا لغريزة الحياة، ثم أعادت أستراليا عصارة جسده.

تُرى ماذا يحمل لنا الغد يا صغيرتي؟
تُرى كيف ستكون الأيام التالية؟
كانت تشهق في الظلام.. وكان يئن.
فلتكن هذه طقوس الخصوبة التي كان البدائيون يؤمنون أنه من دونها لا تنبت الأرض ولا تثمر. فلتورق شآبيب وتنتعش.. فلتثمر.

* * *

صحت أمينة في الظلام فوجدت أن سميرة تجلس جوار فتحة الخيمة وتسترق النظر للخارج.
نهضت وزحفت على ركبتيها إلى حيث كانت الفتاة تنظر.. واعتادت عيناها الظلام.
رأت فتحة خيمة مجاورة تبرز منها قدمان عاريتان. كان رجل وأنثى يلتحمان في المعركة الأبدية ورقصة الخصوبة.. وسمعت صوت شهقات.
كانت سميرة المراهقة ترمق المشهد بعينين زجاجيتين.
جذبتها من كتفها في شيء من الغلظة وشدت فتحة الخيمة لتغلقها.. ثم همست في ضيق:
ـ «شخص يحلم بكابوس».
ـ «هما رجل وامرأة يا أماه».
ـ «رجل وامرأة يريان كابوسًا».
ـ «ليس هذا كابوسًا يا أماه».
دفعت الفتاة في غلظة لتنام.. وقالت وهي تضع رأسها على الصخرة الدامية التي اتخذتها وسادة:
ـ «من راقب الناس مات همًّا.. عيب».

ثم جلست في الظلام تغلي من الغيظ. تشعر أن القرحة تقتلها. عبثت يدها في حقيبتها لتخرج زجاجة دواء الحموضة الشبيه باللبن وجرعت جرعة. هذا ترف آخر سوف ينتهي قريبًا. لماذا لا ينتظر هذان الخنزيران فرصة خلوة أفضل من هذه؟ لماذا يفعلانها على رءوس الأشهاد وأمام المراهقين؟ هناك دائمًا لحظة مناسبة.. وصفات اللحظة المناسبة هي أنها أي شيء غير هذه.. البعض لا يستطيع الانتظار.

كان عليها أن تتحمل المزيد في الأيام القادمة. هذا مجتمع لا يسمح بالخلوة. سوف ترى رجلًا عاريًا يستحم.. وترى امرأة تقضي حاجتها.. وتسمع مشاجرات زوجين في خيمة مجاورة تنقل أدق أسرارهما.. في ذات صباح خرجت من الخيمة ومضت لنطاق الأشجار لبعض حاجتها، فوجدت رجلًا مفتول العضلات عاري الجذع يقف بين الشجيرات ويسكب الماء على جسده من وعاء قديم صدئ.. عضلاته المرسومة بعناية تذكرها بأطلس التشريح الذي كان في المدرسة.. ترى العضلة الصدرية العريضة والدالية وثنائية الرأس.. بوضوح تام.. مبتلة تلمع في الشمس.. اللون الأسمر الذي لا يمكنك أن تخلقه بالألوان أبدًا، والذي يقترن في ذهنها بالرجولة.. لا بد أن أدونيس الأساطير الإغريقية لاح كهذا للربة التي كانت تراقبه. وشعرت بتنفسها يتوقف.. لقد نسيت عضلاتُ صدرها ما كانت تفعله لتتنفس.

عندما رفع وجهه المبلل بالماء أدركت أنه سليم. الثائر الغاضب القادم من مونروفيا. رفيق السفينة.

في تهيب ابتعدت.. كأنها دخلت محرابًا مقدسًا لا يحق لها أن تدخله.

لكن المشهد ظل يزور أحلامها طويلًا.. وخطر لها أنه ولا بد

رآها.. لم يرفع عينيه نحوها، لكن من يحمل هاتين العينين لا يحتاج إلى أن ينظر للشيء ليراه.

قالت لنفسها إن هذا الرجل يحمل مستقبلًا كبيرًا.. لقد بدا لها أكبر من الواقع، ولم يكن مؤهلًا ليكون فردًا عاديًّا مذعورًا. غضبته الأسطورية مع هيئته جعلتاه أكبر من أي شيء عرفته.

المعلمة أمينة وجدت ما ينغص عليها خيالها كأنها تلميذة غريرة.

٣

عالية كانت تفتقد مايكل صديق المدرسة كثيرًا.

مايكل الذي قال إنها تسعى وراء هراء وإن أباها مجنون.. لم يقلها حرفيًا لكنه قال كل شيء يعني ذلك.

ـ «انتهى عصر هذه المغامرات.. لقد مات ماجلان منذ زمن سحيق».

كانت مضطرة لأن تتبع أباها حيث ذهب.. بالتأكيد كانت تفضل البقاء في الولايات، لكن مكرم كان متحفظًا بشأن الحريات التي يمنحها لابنتيه، وكان يؤمن أن الأسرة سفينة واحدة يقودها الأب.. لا يمكن ترك الدفة في جهة والشراع في جهة.

راح الكلب اللبرادور يتواثب حولها.. كل الكلاب تطرب لرؤية البحر والموج، وتتواثب في مرح.. تعبث هنا وهناك ثم تلحق بك.. تسبقك قليلًا لتعبث ثم تلحق بك من جديد.

الزبد الأبيض يتسلل بين أصابع قدميها، والأنسام العابثة تلهو بخصلات شعرها لكنها ثائرة غضبى.

سارة تمشي حوارها، وعلى مسافة غير بعيدة تمشي صفية تلتقط الأصداف.

ـ «هذا جنون.. أنا أؤمن بذلك».

تقول الأم سارة:

ـ «هذا خبال وأنا موقنة بذلك».

ـ «للمرة الألف أسألكِ عن سبب استجابتكِ لرؤيا أبي الواهمة».

ـ «وللمرة الألف أقول إنني أحبه.. لن أتخلى عنه ليرحل إلى أطراف الأرض ولا يرجع».

ـ «كان بوسعكِ أن تقنعيه بالعكس».

بمرارة تبتسم الأم:

- «لقد تملكه السحر وعبث خمر الطموح برأسه.. ما كان ليمنعه من السفر سوى المنية. كان سيتركنا في الولايات ويرحل».

- «ليته فعل!».

عالية كانت مندهشة من كل هذا البؤس والفقر والافتقار لوسائل الراحة العصرية. الحياة في مكان بلا سيارات ولا تلفزيون ولا ثلاجات ولا حفلات راقصة ولا سوبرماركت ولا أقراص مدمجة ولا كمبيوتر ولا شوارع ولا ناطحات سحاب ولا متاحف أو دور مالتيبلكس.

من أين تأتي البداية؟ كيف البدء في عالم كهذا؟

وما لم تقله الأم أن الاستحواذ سيطر على مكرم فغيره وجعله مرعبًا .. اكتسبت نظراته صرامة كاسحة مخيفة، وصوته صار أجش ذا طبقة آمرة.. حتى وجوده صار مهيبًا ذا ثقل خاص. كانت قد بدأت تخشاه وإن لم تعترف بهذا، ولذلك خضعت لإرادته في النهاية ولم تتذمر أو تشكُ.

بالنسبة لصفية كان الأمر لعبة كبيرة من ألعاب الكمبيوتر، أو لعلها تذكرت عشرات الأفلام التي تدور حول قوم ألقى بهم البحر على جزيرة مهجورة.. «روبنسون كروزو» أو «حي بن يقظان» أو «إله الذباب» أو «تابي»... إلخ. لهذا بدت لها الأيام ممتعة بلا مدرسة ولا أعباء ولا قيود.

* * *

الشمس عمودية وهواء البحر المالح يهب من كل الاتجاهات بينما صيحات النوارس تتعالى.

من بعيد ترى البركان الخامد تحف به الغابات الاستوائية كأنه رأس كثيف الشعر دب الصلع في مركزه. يصعب أن تصدق أن هذا العملاق الميت كان متيقظًا يومًا ما. لا شعوريًا يتحرك الناس في صمت من حوله حتى لا يستيقظ مغضبًا متعكر المزاج.

فرغ جاسم المهندس الزراعي الفلسطيني من تفحص التربة حيث ركع على ركبته يتناول حفنات منها، ثم قال لمكرم بوجه بشوش:

- «هذه تربة بركانية خصبة.. لو تمت زراعتها بشكل سليم فلن تجوع المستعمرة».

كان هناك نهر قريب دانٍ من المعسكر الثاني، ولسوف يحتاج الأمر إلى شق قنوات.. كل شيء ممكن ما دامت الإرادة موجودة وما دامت الخبرة العلمية متوافرة.

قال له مكرم:

- «لقد عينتك مستشارًا للزراعة، أو لِنقُل وزير الزراعة، وإن كانت الكلمة مضحكة بالنسبة إلى وضع الصفر الذي نحن فيه».

كاد جاسم يتكلم من تحت شاربه الكث فقاطعه:

- «أنت المسئول.. أطلب ما تريد، ولسوف تمنحني محصولًا خلال أشهر.. أفواه كثيرة يجب أن نطعمها».

ومن بعيد تعالى صوت الأذان معلنًا الظهيرة.. لقد أنشأ المهاجرون كوخًا صغيرًا له درجات يمكن بها اعتلاء السقف، وحددوا مكان القبلة نحو الشمال الغربي، ومن هذا السطح كانوا يؤذنون للصلاة. بعضهم كانوا متدينين عاديين وبعضهم بدا واضحًا أنهم متعصبون أميل للشراسة.. كانت هذه الفئة الأخيرة تقلق مكرم كثيرًا، لكنه

فضل أن ينتظر ولا يتعجل المواجهة.. شبح الدولة الدينية يتوهج من تحت الرماد دائمًا. كلما حسبت أنك دفنته عاد يطل برأسه.. لا شيء يموت.. لا الأفكار ولا العادات السيئة.

لاحظ أن هناك داعية يدعى أبا منذر السوري ويتحمسون له كثيرًا.. هكذا يسمونه. يعرف بوضوح هاتين العينين وهذه الملامح. مناخ كامل تستحضره عندما ترى هذا الوجه. جو فكري متكامل بطباعه وعباراته وعقائده.. وفي كل مرة تتكرر القصة وتحدث نفس الأشياء. عليه أن يكون حذرًا.

كان هناك كوخ آخر وضعوا فوقه صليبًا خشبيًا، وكان هناك قس أرثوذكسي صلى هناك ورش الماء المقدس وبنى محرابًا، ومن مكان ما ظهرت صورة العذراء والمسيح.. وأحضر أحدهم جرسًا علقه على سقف الكوخ. ومن جديد صارت هذه كنيسة بدائية يصلي فيها المسيحيون. البعض كانوا من الكاثوليك أو البروتستانت، لكن مكرم لم يعرف طريقتهم في ممارسة العبادة.. لربما يترددون على نفس الكنيسة. قلت لك إنه لم يكن متدينًا.

ابتسم.. لعل حلم حرية الأديان وامتزاجها يتحقق على هذه الأرض.. التسامح سيكون شعار المرحلة، ولسوف تجمع المصلحة المشتركة قلوب الجميع.

مشى مكرم كقائد عسكري بين المهاجرين المتناثرين، وراح يراقب إجراءات توزيع المعونة التي جلبتها السفن. لقد كان كل شيء منظمًا لم يتطرق له الاضطراب والفوضى بعد.

رأى الملامح المصرية المميزة، ورأى سوريين ولبنانيين شُقر الشعور، ورأى سودانيين ذوي بشرة سمراء، وميز الملامح الأطلسية

الواضحة، وعرف الوجوه الخليجية... وسمع حشدًا من اللغات.. بعض هؤلاء لم يكن يجيد العربية، ولتكونن مشكلته الأولى توحيد اللغة.

كانوا ينقلون الأخشاب كي يصنعوا المزيد من الأكواخ، مع أغنية هي نوع من الرجز الذي يُحمس النفوس.

استلفت نظره شاب مفتول العضلات أسمر البشرة يعمل بحماسة عجيبة، ويصدر تعليماته للآخرين كأنه قائد.. قال لنفسه إن شآبيب تحتاج إلى مائة شاب من هذه العينة لتنهض.

الأخشاب الثقيلة تنتقل من يد ليد، والعضلات تنتفخ والعرق يسيل.

فجأة انهار سقف أحد الأكواخ، وكان بعض العمال يعملون تحته.. سرعان ما دوى صوت صاخب وتناثرت قِطع الخشب المهشمة. وعندما انتهى الانهيار سمعوا الأنين ولمحوا الفوضى.

تصلب مكرم وقد شل تفكيره، لكنه رأى الشاب مفتول العضلات يهرع نحو الحطام فيزيح الأخشاب ليُخرج رجلًا ينزف.. أبعده قليلًا ثم عاد ليجلب رجلًا آخر. بعد دقائق كان يتحسس موضع الإصابة، وطلب من الرجال المحيطين به أن يأتوه بقطعة خشب تصلح جبيرة مع بعض أربطة الشاش التي جلبتها السفن ضمن المساعدات الطبية... خلال دقائق كان قد ضمد ساق أحد الرجلين وذراع الآخر، ثم أصدر أوامره كي يضمد أحدهم رأس الثالث.. الحقيقة: أنه كان يعمل ببراعة واحتراف وسرعة بديهة كأنه بطل قصص مصورة.

دنا مكرم من الشاب وسأله:

- «من أين؟».

- «ليبيريا».

- «واسمك؟».

ـ «سليم».

قال مكرم وهو يربت على كتف الفتى:

ـ «أنا بحاجة إلى من يعاونني.. سمه نائبًا، أو سمه رئيس وزراء، أو سمه مساعدًا.. المهم أنني بحاجة لك معي».

سليم يعرف هذا الرجل جيدًا وقد عرف الكثير عنه وعن كتابه الشهير.. كان يحمل له احترامًا كبيرًا. نحب أن نترك أثرًا عميقًا في نفس من نحترمهم. نحب أن يلاحظونا ويهتموا بنا ــ وقد بدا واضحًا أن مكرم راقت له حماسة الفتى وسرعة بديهته وجذوة القيادة البادية في عينيه.. كان مكرم دائمًا ضئيل الجسد قصير القامة يفتقر إلى التأثير. فقط استطاع أن يكون مؤثرًا بعد عمر من التجارب وهيبة الشيخوخة وجلالة العلم. لهذا كان يغبط أولئك الذين ولدوا مؤثرين.

يحتاج مشروع بهذه الضخامة إلى شباب.

لا يحتاج إلى جيل عِنين يُظهر العجز ويفشل في كل شيء.

بصوته الأجش راح يردد:

ـ «سجّل أنا عربي.. أنا اسم بلا لقب

أبي من أسرة المحراث

وجدي كان فلاحًا بلا حسب ولا نسب».

كلمات محمود درويش الشهيرة. إحساسه باللحن عالٍ جدًّا، وصوته ليس جميلًا لكنه ملائم لهذه الكلمات بالذات.. أضف لهذا الكثير من الصدق. هناك حول النار حيث التفوا والظلام يحيط بهم، جلس العرب حول المطرب السوري قصير القامة الذي يضع طاقية بيضاء على رأسه، ويحمل عودًا عتيقًا. عرفوا أن اسمه مصطفى، ولم يكن صوته أفضل الأصوات هنا، لكنه كان قادرًا على إشعال الحماسة.

كانت زوجته زهرة جالسة بجواره وقد وضعت ملاءة على ساقيها وراحت تصاحب عزفه بالتصفيق، بينما جلست أمينة تلف ذراعها حول كتف ابنتها.. هذا هو وفد أوسلو هنا كما هو واضح.. تلقائيًّا صارت هناك مجموعات متقاربة جاءت من هذا البلد أو ذاك... وأحيانًا كانوا يسمون باسم البلد الذي جاءوا منه: هؤلاء هم الفرنسيون.. هؤلاء الأمريكان.. هؤلاء البريطانيون.. إلخ.

دفء النار والقشعريرة التي تجتاح ظهرك من الليل البارد.. القشعريرة تمتزج بالخوف من الغد.

مكرم يجلس على صخرة وهو شارد الذهن، لكنه لا ينسى أن يلاحق التصفيق، وقد رسم على وجهه ضحكة متكلفة صناعية.. لم يكن عقله في المكان ولا الزمان بتاتًا.. ألف مشكلة ومشكلة وألف هم وألف خطر، لكن خاطرة واحدة تأتيه فيمعن التفكير فيها.

يصلح مصطفى كي يكون مطرب الدولة الجديدة. كل ثورة وكل نظام جديد يحتاج إلى مطرب.. الفن يمكن أن يلعب دورًا دعائيًّا ديماجوجيًّا لا بأس به.. لكن لا وقت لإطالة التفكير في ذلك الآن.

سوف تكون معظم الأمسيات حول النار، في عالم بلا تلفزيون ولا راديو ولا صحف.. حول النار يتم تناقل الأخبار والقصص والأكاذيب. نعم.. لا بد من الأكاذيب... إنها طعام الطموح.. وقود الحماسة. إنها الأقدر على تحريك الجماهير، وهي المادة الخام للأحلام. الصدق كئيب مُخيب للآمال كنهار خريف، بينما الأكاذيب تحلق بك في سماء ربيعية زاهية الألوان، ثم تهبط بك فوق وسائد المجد المتخيل.

- «فلم تترك لي أنا وجميع أحفادي
سوى هذي الصخور
فهل ستأخذها حكومتكم كما قيلا؟».

الهمسات في أذن مكرم.. النهوض متوترًا مع أحد القادمين. بعيدًا عن دائرة ضوء اللهب يمشي مع القادم، ثم إلى مجموعة الخيام المتلاصقة.. يزحف على ركبتيه ليدخل خيمة.

هناك يجلس القرفصاء طبيب شاب يدعى صبري، وهو يمسك بمعصم امرأة نحيل كقلم رصاص.. على ضوء المصباح الكهربي يمكنك أن ترى أن المرأة منهكة غارقة في بركة من العرق والقيء. شفتاها جافتان تمامًا ولا تكف عن اللهاث.. واهنة جدًّا لا تقدر على رفع ساعدها.

- «ماذا دهاها يا دكتور؟».

يقول الطبيب:

- «هناك دستة من الاحتمالات.. نحن بعيدون عن أي مختبر

ونعتمد على الحدس فقط».
ـ «هل هي الملاريا؟».
ـ «هي لم تكف عن تعاطي العلاج الواقي.. لا أحسبها الملاريا».
ـ «إذن؟».
مشكلة معقدة أخرى.. لا يمكن أن نطبق الطب كما هو. عندما تكون بدائيًّا فعليك أن تقبل الطب البدائي. عليك أن تقود السيارة من دون محرك ولا وقود ولا زيت. لكن هناك حشدًا من مخفضات الحرارة والمضادات الحيوية على الجزيرة... الإمدادات الطبية وفيرة على كل حال.
ـ «أعطها شيئًا من كل شيء.. فإن لم تستجب فلسوف نطلب من السفن أخذها إلى أقرب مكان فيه عناية طبية حقيقية».
ثم انتحى بالطبيب جانبًا وهمس:
ـ «هل تعتقد أنها ستموت؟».
بارتباك قال الطبيب الشاب:
ـ «لا أظن... علاماتها الحيوية ليست سيئة جدًّا».
ـ «هل ينتشر هذا كوباء؟».
ـ «يجب أن أجد له اسمًا قبل أن أتكلم عن انتشاره».
لو كان هذا مرضًا وبائيًّا فالخطة فشلت قبل أن توجد. سوف يعم السقم ويكون عليه أن يطلب الغوث من «جوناثان إيرهارت». فشلت خطتنا يا صديقي العظيم لأن الطاعون عرف طريقه إلى مستعمرتنا.. هذا أقسى سيناريو ممكن.
أشعل سيجاره.. ما زال لديه أكثر من علبة سيجار، وهو يأمل في اليوم الذي ينتجون فيه سيجارهم الخاص من التبغ وورق الموز الجاف.

سعلت المرأة من رائحة الدخان، فهرع يجذب ذراع الطبيب ليغادرا الخيمة. ثم نفث سحابة كثيفة من الدخان في الليل المظلم، بينما صوت غناء مصطفى يأتي من بعيد حول حلقة النار.

ـ «افعل ما تستطيع.. المرض آخر شيء أفكر فيه حاليًا، وهو القشة التي تقصم ظهر البعير. هذا مجتمع وليد هش».

ـ «سأحاول لكن تذكر أنني لست ساحر قبيلة».

أنت وجدتها! أنا بالفعل في حاجة إلى ساحر قبيلة! سحرة القبيلة أعظم تأثيرًا في مجتمع بدائي كهذا.

كان هناك بعض الأطفال يلعبون على الرمال في الظلام. لا شك أنهم يعيشون أجمل ساعات حياتهم من دون مدرسة ولا مسئوليات، وإنما هو يوم لهو طويل.. كان يعرف أنه سيفسد عليهم هذه المتعة قريبًا، عندما يعود نظام المدارس. يرى أولادًا وفتيات.. سوف يكبرون قريبًا وعندها سوف يكون تنظيم الزواج إجباريًّا.. يحتاج حاجة مُلحة إلى الجيل الأول الذي يولد هنا، والذي سيغني «هذه أرضي أنا» ويجهل كل شيء عن عالم الغرب.. يذكر تجربة جيل «الصابرا» في إسرائيل. والحقيقة أنه وضع أمام عينيه تجربة مهاجري أوروبا الذين أنشئوا المجتمع الأمريكي، كما درس تجربة إسرائيل جيدًا.

عاد إلى دائرة اللهب حيث يحتشدون ويُغنون مع مصطفى، وكانت مطربة عراقية قد دخلت في «دويتو» غنائي معه.. جلس مكرم على صخرة وراح يشاركهم الغناء بنفس الذهن الشارد المحلق في عوالم أخرى. الزمن بطيء جدًّا وهو يشعر بحاجة مُلحة إلى الغد.. فليأتِ الغد بسرعة.

٥

هكذا يبدأ الفجر الجديد.. يسألونك عن الشمس من أين تشرق فلا تقل من الشرق.. قل إنها تأتي من أقصى الجنوب الشرقي.. تأتي في تؤدة ومعها الأمل والميلاد الجديد لشآبيب.

نبيل أبو زهرة

* * *

الوضع كان أسوأ مما توقع المهاجرون .. لقد بدأت المتاعب تتضح ببطء وثقة..

الطقس حار رطب فعلًا.. هذه نقطة موجعة حيث لا مراوح ولا أجهزة تكييف، ولا بد من أخذ علاج الوقاية من الملاريا وعدد لا بأس به من اللقاحات. توقفك عن هذه الأدوية قد يعني الموت.

بالمناسبة توفيت تلك السيدة السقيمة التي زارها مكرم، ولم يُعرف السبب في وفاتها قط. على الأقل لم تبدأ وباء يجتاح المستعمرة.

ليست هذه بمدينة على الإطلاق.. هناك الغابة الاستوائية الكثيفة التي رأيناها قرب الساحل، والبركان الخامد الذي يجثم في الخلفية كأنه يراقب المشهد، وقرب هذه الغابة يوجد سياج، ثم مجموعة من الأكواخ مما يذكرك بمعسكرات الجيش. في وسط الأكواخ تم إنشاء بعض دورات المياه، لكنها بالطبع لا تقود للمجازي، ولكن إلى حُفر عميقة، لكن كل دورة مزودة بسياج عالٍ حولها يسمح ببعض الخصوصية، وهناك إناء مليء بالماء وورق تواليت لمن يرغب. هناك كوخ صغير تم تحويله إلى مدرسة، وكوخ تحول إلى مستشفى.

قائد هذه المستعمرة هو مكرم كما أسلفنا الذكر. وبرغم أنه كان

أكثر نفعًا لهم لو ظل في الولايات المتحدة فإنه رأى أن من العدل أن يكون معهم في هذه التجربة. وكان يقول:

- «الدينا في الولايات المتحدة أعضاء كونجرس ومليارديرات عرب. هذا كافٍ... فليبقوا حيث هم، أما أنا فواجبي أن أكون مع من جاءوا من أجل أفكاري».

كان يلبس ثيابًا خاكية اللون، وقبعة توحي بأنه مستكشف.. وكان يحمل خارطة في يده طيلة الوقت. ويمشي مع مجموعة من المهندسين الذين يتكلمون عن عمل شبكة صرف صحي هنا.. إن سفن الأسطول السادس تساعدهم وتجلب لهم ما يريدون ما دام أثرياء العالم العرب الذين تحمسوا للفكرة يدفعون الثمن.. عيناه تشعان بالسيطرة والنفوذ والاقتناع بما يقوم به. هذه المغناطيسية التي راحت تنمو يومًا تلو الآخر جعلت الكل يصمد.. لو كان أضعف من هذا أو أميل إلى الاكتئاب قليلًا لانهار كل شيء.

رأى أمينة تراقبه من مسافة، فناداها. كان قد اعتاد رؤية وجهها واعتبرها من معالم الحياة الدائمة.

لشد ما هو قصير القامة نفّاذ العينين! من أين يأتي بكل كمية السيجار هذه؟ كانت تتساءل وهي تحرك قدميها في تردد.. ودفعت سميرة دفعة لتلحق بها.

دنت منه وهي ترتجف تهيبًا فاستغل فارق السن الذي يسمح لها بألا تسيء فهمه، وطوق كتفها.. وداعب شعر سميرة، ثم سألها:

- «من أين؟».

قالت في تهيُّب وهي لا تجسر على مواجهة عينيه:

- «النرويج.. أوسلو».

- «وقبل هذا؟».

ـ «تونس.. تركتها وأنا طفلة».
ـ «كان يجب أن أعرف هذه اللهجة والمهنة الأصلية؟».
ـ «معلمة».
قال لها باسمًا:
ـ «نحن بحاجة إلى معلمين كثيرين.. هذه أهم مهنة في الوجود. سوف تُدرسين التاريخ العربي واللغة العربية... ما اسمك؟».
ـ «أمينة بو زيد».
ـ «مسلمة.. إذن يمكن أن نضم تدريس الدين الإسلامي لعملك. هل قابلتِ قاسم؟ إنه وزير التعليم هنا».

بدا لها الأمر مضحكًا.. الأمر أقرب لقرية كبيرة، ومع ذلك يتكلم عن وزراء تعليم! كلما سمعت عن وزير انفجرت في الضحك. الأمر لا يزيدُ على قرية مزدحمة نوعًا.. قرية مغرورة فخورة بنفسها.. لذا يبدو الكلام عن وزراء مضحكًا فجًا. لا بد أن هذا الرجل يملك درجة هائلة من التفاؤل. القدرة على أن يرى الأمور كما يريد لا كما هي فعلًا. الفارق بين التفاؤل وخداع النفس قد يكون واهيًا جدًّا.. ولربما كانا نفس الشيء أحيانًا.

قال وقد فهم ما يعتمل في ذهنها:
ـ «لدينا وزير دفاع، ووزير عدل، ووزير ثقافة، ووزير زراعة.. لا تقلقي.. إن دولتنا تتكامل وتنمو.. هل تعلمين أن الجزيرة كانت تحت الاحتلال الأسترالي حتى عام ١٩٧٥؟ بعد هذا لم يعد هناك أحد سوانا».

العروس جميلة لكنْ لها زوجًا! هذه هي الحقيقة وما جال في ذهنه مرارًا.

نفس العبارة التي قالها اليهود الذين ذهبوا لفلسطين أول مرة بعد

وعد بلفور اللعين.. كانوا يعتقدون أنه لا يوجد ناس هناك، لكنهم وجدوا الفلسطينيين.. أرسلوا هذه الرسالة إلى مجمعهم في أوروبا. فكانت الإجابة هي أن يقضوا على الفلسطينيين. فهل سيكون عليهم قتل سكان بابوا غينيا الجديدة؟

* * *

كانت لغة التفاهم واحدة طبعًا، هي العربية، فكلهم عرب.. منهم من جاء من الصين أو بوليفيا أو ألمانيا، وبعضهم كانت لغته العربية ضعيفة جدًّا، لكن القوانين الصارمة التي وضعها مكرم كانت تحتم استخدام العربية، حتى وإن بدا البعض موشكين على الاختناق لدى استعمال العربية. لكنهم في النهاية عرب لهم نفس اللغة ونفس التراث.. كلهم يعرف طارق بن زياد وشعر المعري والمتنبي، ويسمع أم كلثوم وفيروز...

استرشد مكرم كذلك بتكوين شآبيب الحكومي كما دوّن لنا التاريخ، والحقيقة أن هذا كله وليد خياله كما نعلم، لكنه استرشد به وبكتاب صفوان عن التاريخ الذي لا يحكونه في المدارس.

وقع عبء الإنشاءات على مجموعة من المهندسين القادمين من ألمانيا، وتم عمل وحدة طبية مصغرة.. بالطبع بلا إمكانيات تقريبًا. بلا جهاز أشعة ولا دورة أكسجين ولا غرف عمليات، لكنها النواة الأولى.. وقد وضع مهمة إدارتها على صبري ومعه عدد من الأطباء. أما الحالات المعجزة فكانت السفن تحملها إلى العالم المتحضر.

أنت تبحث عن مهندسين وأطباء ومزارعين ومطربين ومعلمين: تبحث عن كل قِطع الشطرنج قبل أن تلعب مباراتك الأولى.

أما عن أمينة فقد ذهبت إلى المدرسة وقدمت نفسها للمدير الذي هو نفسه وزير التعليم! وهو رجل عراقي يدعى قاسم كما أخبرها مكرم. لم يسألها عن مؤهلاتها بالطبع؛ فهذا مجتمع جديد لا يملك هذا الترف... فقط سألها:

- «هل درّست من قبل؟».

- «نعم.. لكن ليس بالعربية».

- «لا يهم.. التدريس هو التدريس. نقل المعلومة من رأس لرأس بأي لغة».

كانت المدرسة عبارة عن كوخ خشبي تم بناؤه من جذوع الأشجار، ولم يكن له سقف من أجل السماح بدخول النور. عندما تنهمر الأمطار الاستوائية فيما بعد سوف يفكرون في عمل سقف. وفي الداخل رأت مجموعة أطفال من العرب عددهم يناهز الثلاثين، لهم أعمار متباينة يجلسون إلى دكك. وكانت هناك مُعلمة بدينة جاءت من فرنسا، تعلمهم قواعد اللغة العربية.. للمرة الأولى يسمعون عن فاعل أو نائب فاعل، وكانوا يسألونها بالصربية واليابانية ولغة الزولو.. فترد بالعربية.. الأمر صعب.. اللغة العربية شديدة التعقيد ولا يوجد من يجيدها تقريبًا منذ أبي العلاء المعري!

المعلمة البدينة جففت عَرقها وحركت يدها على شكل مروحة لتجلب الهواء، وقالت:

- «اسمي غادة.. أدرّس اللغة العربية، كما لا بد أنك لاحظت.. أعتقد أن عملك سيكون هو تدريس التاريخ. هذا هو العلم الذي ينقصنا حاليًّا».

- «هذه مهمة شاقة».

رحلة طويلة سوف تحكي عنها، منذ كان العرب أكبر إمبراطورية

في العالم، وكادوا يفتحون فرنسا نفسها.. ثم جاءت الفرقة فالصراعات فالتفكك والضعف.

اتفاقية سايكس بيكو ثم تفكك الإمبراطورية العثمانية التي كانت فاسدة أصلًا، ثم عصر الدكتاتوريات العسكرية التي حكمت العالم العربي تحت شعار الدفاع عن فلسطين.. ثم انهماك العرب في الإنفاق والصراعات الداخلية مع أشباح، وبدلًا من أن يدخلوا عصر التكنولوجيا اشتروها بمالهم. في كل وقت كان شراء سيارة أسهل وأسرع من صنعها. كان العربي يقتني جهاز محمول لا يقدر مخترعه على اقتنائه هو نفسه! الصينيون يمشون بينما يركب العرب السيارات التي صنعها الصينيون.

التفكك النهائي جاء بعد حرب الغزو الاقتصادي والسياسي الشامل التي قام بها الغرب للاستيلاء على ثروات هذه المنطقة ووضعها الجغرافي المتميز. فصار على كل واحد أن يبحث عن رزقه في مكان آخر وبدأت موجات الهجرة.. هناك عرب بقوا في دولهم الأصلية لكنهم يعانون أسوأ المعاملة وشظف العيش، نموذجًا للأكثرية الواهنة الضعيفة التي تسيطر عليها أقلية متقدمة تكنولوجيًا..

وفي النهاية يمد مكرم ورفاقه يدهم في بئر التاريخ، ليخرجوا حقيقة غريبة عن حضارة عربية نشأت في بابوا غينيا الجديدة.. وهي أرض بكر نسبيًا.. خصبة بها موارد لم تستغل.

هذه فيما يبدو النهاية السعيدة لمعاناة العرب.

قررت أن تكتب منهجها الخاص من كتابين وجدتهما بالإضافة إلى كتاب «تاريخ لا يحكونه في المدارس» الذي لا تتركه أبدًا.. تحفة أحمد صفوان.

للأسف ظل أحمد صفوان في الولايات المتحدة.. هذا منطقيّ..
المفكرون لا ينزلون ساحة المعركة بل يجلسون في مكان آمن
ليرسموا الخطط.. هم أثْمَن من أن تتم التضحية بهم. كانت تتمنى
لو رأته ولثمت يده.
سوف تتعب أكثر وتعمل أكثر من أجل هذا المجتمع الوليد..
هكذا أقسمت.

تلقينا الوعد فتمسكنا به، وعرفنا أننا لن نتخلى عنه حتى لو مزقوا أجسادنا واجتثوا أناملنا وأحرقونا. فهم لن يغتالوا أرواحنا أبدًا، والوعد باقٍ حتى بعد رحيلنا.. الأحفاد قادمون.

جورج مندوه

* * *

اسمها شآبيب.. وهي لنا.

* * *

زارت شآبيب الغيوث ديارنا
فإذا «شآبيبُ» ارتوت بالصيّبِ
فإذا الجبال اخضوضرتْ وترعرعتْ
فالعيش في غينيا الجديدة أضحى مطلبي

(من قصيدة الشآبيبي الشهيرة، ولكن قام مكرم بتغييرها لتناسب العصر)

* * *

فوجئت أمينة عندما دخلت الصف أن تلاميذها العرب موجودون ومعهم ابنتها سميرة طبعًا. لكن معهم أربعة تلاميذ من الوطنيين.. سُمر البشرة، لهم شعر مجعد منكمش يرتفع ربع متر فوق قمة الرأس، وهم لا يلبسون أحذية كاشفين عن أقدام هائلة الحجم مشوهة من اعتياد الحفاء. عيونهم جاحظة مذعورة كالقطط.

لم تفهم.. هنا جاء المدير قاسم من خلفها، فقال همسًا لمّا لاحظ حيرتها:

- «هذا طبيعي.. الأهالي فضوليون ومعظمهم يأتي هنا ليعرف شيئًا أو شيئين».
- «لكن التاريخ العربي لا يهمهم في شيء».
ضحك ضحكة خافتة وقال:
- «هذا ما يفعله المستعمرون في كل مكان.. نقل لغتهم وثقافتهم وتاريخهم.. مع العلاج طبعًا. يجب أن نلعب دورنا جيدًا. دورنا يحتاج إلى ما هو أكثر من قواقع ملونة».
ثم أردف:
- «بعد قليل سيشعر كل منهم أنه عربي آخر.. فكّري في القوى الناعمة».
الحقيقة هي أن بابوا غينيا الجديدة متباينة جدًّا بسبب وعورة تضاريس البلاد مما يعوق اختلاط الأجناس.. هناك ٨٢٠ لغة كما قلنا.. هذه الجزيرة كنز لقناة ناشونال جيوجرافيك.
بصعوبة سألت الصبية عن أسمائهم فجاءت الإجابات الشائقة:
- «جوبيا جاييما».
- «بيون كيرينجا كيريكا».
- «جوليف أكليكا».
- «أتايميلاهو أيزاكوا».
هذا جميل.. سيكون الأمر سهلًا إذن! أسماء مستحيلة الحفظ ووجوه متشابهة. وعليها كذلك أن تُعلمهم اللغة العربية والتاريخ العربي.. لكنها كانت تشعر بأهمية دورها. إنها تُرسٌ في شآبيب وعليها أن تدور جيدًا وبحماسة. هذا هو ما بقي لها في الحياة بعدما صارت أوسلو وأسرتها ذكريات. كانت تعتمد على كتاب صفوان وكتاب مكرم، لكنها قررت أن تسأل عن مزيد من التفاصيل.

ازداد حماسها عندما رأت أن هناك عملية بناء.. ثمة بناية حقيقية بالقرميد والأسمنت والحديد الذي جلبته السفن الأمريكية.. وكان المهندسون العرب يشرفون على خليط من عمال عرب وأهالي الجزيرة.. عرفت أن هذه ستكون المدرسة الجديدة على الأرجح..

لا شك أن المكان يتغير.

صارت هناك ثلاثة شوارع.. شوارع بدائية تُذكرك بما تراه في أفلام الغرب الأمريكي، وصار هناك بقال وحلاق ومشفى. لكن النشاط الأهم كان الزراعة.

بابوا غينيا الجديدة جزيرة بركانية تمتلئ بجبال شامخة فوقها خضرة كثيفة.. لهذا تربتها خصبة فعلًا.. أما عن الري في بابوا فهناك نهر طويل عظيم اسمه «سيبيك».. وهو نفس النهر الذي أطلق عليه الألمان اسم «أوجستا» ـ نسبة لإمبراطورتهم ـ عندما كانوا في غينيا الجديدة.. إنه أطول نهر في الجزيرة يمتد حتى الجزء الإندونيسي منها.

في جزيرة سانت ماروس يوجد نهر لا اسم له يصلح جدًا لمشاريع الزراعة، وقد أطلق عليه العرب اسم «الرقراق».. إن زراعة الجزيرة تعتمد على القلقاس والبطاطا، لكن العرب طوروا الكثير من الأنواع، فقد كانت معهم الأسمدة والبذور ومعهم مهندسون زراعيون.

لقد صار هناك نشاط سكاني يمكن أن يدون في كتب الجغرافيا الدراسية.

العرب يتدفقون في كل يوم ليزداد العدد. وبدا مع الوقت أن المدينة الصغيرة التي هي نواة شآبيب لا تتسع لكل هذا العدد.. لا بد من التوسع يومًا ما.

* * *

كان مكرم يمر بعقدة الاستيطان الشهيرة: الخوف.. فقدان الحماية.

كان يدرك يقينًا من دراساته التاريخية أن أي استعمار غير إحلالي يبوء بالفشل، ثم سرعان ما يتزايد عدد السكان الأصليين فيصير المحتل في خطر حقيقي. القنبلة الديموجرافية.

احتلال؟ هو ومن معه من أساتذة يعرفون جيدًا أن هذا احتلال. فقط المواطن الساذج العادي يعتقد أنه يحاول استرداد ما كان حقًا له يومًا ما. لقد نسج مكرم شبكة من الأكاذيب، وهي شبكة بالغة الإتقان لدرجة أنه نفسه بدأ يصدقها، وبدا له أن هدم هذا كله مستحيل.

كان يتحرك بثقة وإصرار نحو هدفه، لذا مع الوقت بدأ يشعر أن السكان الأصليين هنا منغصات لا أكثر.. نوع من الزواحف التي تحول دون تحقيق ما يريد.

سوف تأتي لحظة الصدام بعدما تنتهي أيام الفضول.. ولسوف يكون صِدامًا مرعبًا لأن الأرض غالبًا ما تحارَب مع أصحابها الأصليين.

مشكلته الأخرى والأخطر كانت إيجاد آثار.. لا بد من آثار يجدها المهاجرون وتقنعهم أنهم كانوا هنا يومًا ما. كان يلعب كما قلنا مزيجًا من أدوار النبي والقديس والقائد الحربي والفيلسوف والنصاب والمفكر الاقتصادي وابن الزنا.

كان المهاجرون مسلحين بأسلحة خفيفة.. لكنها أسلحة لا تصلح لحرب بل هي كافية لغرض الصيد.

كان مكرم يجوب المكان وهو يدخن السيجار مفكرًا.. كان يزداد قلقًا.

لحق به شاب عربي قصير القامة يضع قلنسوة بيضاء على رأسه.

فقال مكرم وهو يصلح من وضع قبعته:

ـ «معنا بعض البنادق التي تسمح بالدفاع عن أنفسنا، لكننا بحاجة لسلاح هجومي.. نريد قنابل ومترليوزات «MAG».

ـ «والسبب؟ لو سمحت لي».

نظر مكرم للأفق والقرية المزدحمة وقال:

ـ «نحن نتكلم عن نصف مليون عربي.. عما قريب سيقفز العدد.. سوف نقترب من مليونين بعد عامين.. لا بد من أن يحاولوا طردنا.. لا بد من مقاومة.. سوف تأتي لحظة الصراع لا محالة، وعندها لا أريد أن نكون لقمة سائغة».

ثم أردف:

ـ «سوف أطلب بعض الأسلحة المتقدمة من الولايات.. ليس لدرجة الصواريخ والدبابات طبعًا، لكني بحاجة لبنادق آلية أكثر كفاءة، وأريد من يدرب هؤلاء المهاجرين على القتال».

«نحن لم نأتِ لنقتل.. هذا ما نفهمه جميعًا».

ـ «ربما تفهمونه جميعًا، لكن سكان الجزيرة لن يفعلوا.. الوطنية شعور جميل بشرط ألا تتعارض مع مصالحي. سيتعلمون أن ثمن الاحتفاظ بأرضهم باهظ جدًا».

ثم أضاف وهو يبعد عينيه:

ـ «ثم إن هذه أرض الأجداد.. كل ما نفعله لاستردادها مباح».

لم يتصور هذه المشكلة قط من قبل؛ أن يكون نجاح أفكاره ساحقًا إلى درجة أن تفشل الفكرة! في الثمانينيات من القرن العشرين كانت هناك حملة ناجحة جدًا لمكافحة شلل الأطفال في مصر، إلى درجة

أن اللقاحات انتهت في أسبوع.. أخذها من لا يحتاجون للقاح أصلًا، والنتيجة أن الحملة فشلت.

إذن لن يستمر شهر العسل طويلًا.. سوف تأتي لحظة العنف.. نحن نتكلم عن استعمار إحلالي بلا شك.

ـ «الأرض هناك ليست خالية.. هناك قبائل وفلاحون ورعاة.. هناك أسر».

ضغط مكرم على شفته السفلى بأسنانه وقال:

ـ «لا يمكن أن تُعد الحلوى بلا نار، ولا بد أن تكسر البيض لتصنع عجة.. كيف تعتقد أن الولايات المتحدة قد نشأت؟ حروب الأباشي.. الشيين... جنرال «كاستر».. البطاطين الملوثة بالجدري. الثمن كان فادحًا بالمقاييس الإنسانية، لكن في النهاية ولدت الولايات المتحدة أقوى دولة في العالم».

ـ «هل تنوي توزيع بطاطين ملوثة بالجدري؟».

ـ «للأسف انقرض الجدري من العالم منذ عام ١٩٧٤....أحتاج لشيء أكثر فعالية».

ارتجف الفتى وهو يرى عينَي مكرم.. رأى الدم والصراخ والألم.. أقسى الرجال هم الذين تستولي عليهم فكرة مسيطرة.. هنا قل وداعًا للرحمة أو الشفقة أو أي ضعف بشري.

٧

لا أعرف كيف يمكن عمل سلام مع العرب! الأرض واحدة وطالب الأرض اثنان.

«بن جوريون» أيام نشأة إسرائيل

* * *

كانت أمينة واقفة خارج المدرسة عندما رأت مجموعة من حمالي القبائل.. كانوا يقفون في دائرة حول ذلك الشاب مكتمل العضلات الذي رأته يستحم بين الأشجار.. سليم فتى مونروفيا الساخط. لم تفهم ما يقال لأنه يقال بلغة «توك بيسين» أو «هيري موتو»، وهما أكثر لغتين شيوعًا على الجزيرة. كانوا على الأرجح يتشاجرون حول أجرهم.. ككل البدائيين، يتعامل هؤلاء بالملح والخرز والزجاج الملون والقواقع الملونة، ومن الواضح أن الشاب لم يكن معه ما يكفي.

رأته يحتد ويرغي ويزبد، ثم تناول عصا كانت بجواره وانهال ضربًا على الرجال، ومن الغريب أن غضبته كانت كاسحة لدرجة أنهم بادروا بالفرار، برغم أن بوسعهم أن يمزقوه لو أرادوا.. هناك حاجز نفسي يقيه منهم، كما أن مدرب الأسود يفرض سلطته على أربعة أسود قادرة على تمزيقه. حاجز الهيبة يحميك لكنه ينهار بسهولة جمة، وعندها ينتهي كل شيء. أحشاء «ماجلان» التي لوثت رمال شاطئ ملقة تشهد بذلك.. كيف أن الوطنيين كفروا بالإله الأبيض وقتلوه عندما فاض بهم..

لاحظت وجه الفتى فرأت فيه كمية غضب وحقد لا يمكن وصفهما.. عينانْ تقتلان.

التقت الأعين فأجفلت، لكنه هدأ نوعًا عندما رآها.. قال:

- «معذرة... أنا لا أطيق هؤلاء القوم».
- «والسبب؟».
- «لأنهم.. لأنهم يعوقوننا».
لم تفهم ما يريده.
بنفاد صبر يتكلم كأنه قال كل هذا من قبل.. لا تضيعي وقتنا لو سمحت.. نافد الصبر إلى أقصى حد.
قال لها وعيناه تلتمعان:
- «نحن نحتاج لهذه الجزيرة بالكامل.. لا بد من إبادة هؤلاء.. إنهم أقرب للقردة ولن يخسر أحد شيئًا بفقدهم حتى هم».
شعرت برعب من كل هذه السادية والقسوة.. تراجعتْ للخلف خطوة ثم سألته:
- «شعرت في وجهك وتصرفاتك وكلامك بقسوة غير عادية.. منذ كنا في عرض البحر، ما زلت مصرًّا على الكتمان والصمت؟».
نظر للأفق وتقلصت عضلتاه الماضغتان وقال:
- «لقد فقدت كل شيء وتعلمت أن الحياة شر.. المتمدنون يهبطون للقاع والقسوة هي اسم اللعبة».
لا يريد أن يحكي حتى لا يبعث المشهد المفزع مرة أخرى. كلما حكى القصة شعر بأنه يقتل زوجته وأطفاله مرة أخرى. ثمة أشياء في الحياة ينبغي ألا تعاش من جديد.

* * *

النار مشتعلة.. وفوق المواقد يغلي لحم الخنازير البرية.
عندما ترى خنزيرًا بريًّا يُسلق بكسائه الشعري فأنت تفقد شهيتك

للطعام للأبد، وعندما ترى امرأة تُرضع خنزيرين صغيرين من ثدييها ـ كطقس ديني مهم ـ فأنت تمقت الأمومة للأبد.

لكن الحقيقة هي أن هذا عيد ديني مهم لدى قبائل بابوا غينيا الجديدة.. أطنان من الملح يتم التهامها، ثم يشربون كميات هائلة من الخمر.. خمر مصنوعة من البنجر المختمر.

حول النار يرقص الرجال، فهذا واجبهم كبدائيين كما تعلم.

لا بد من كثير من الإباحية في هذه الليلة بالذات لترضى عنهم الآلهة.

العيد اسمه «Pig bei»، وهو عيد فائق الأهمية لهم.. يأكلون كميات هائلة من لحم الخنزير والخمر، ثم يحدث التخمر في بطونهم فينفجر القولون ويتعفن.. لكن هذا موضوع آخر يهم أطباء المناطق الحارة، لكنه لا يهم «سليم» ورفاقه الذين يتوارون في الأحراش المظلمة.

همس سليم وهو يلهث انفعالًا:

ـ «لن أشعر بشفقة عليهم».

هز من معه رءوسهم.

* * *

سليم على الأرض يرى كل شيء بالمقلوب.. يرى رأس ماله الشحيح يتبعثر، ويرى متجره يتحول لخراب.. في الخارج يقف بعض السود يراقبون المشهد ولا يجسرون على التدخل.

بوم! تهوي الهراوة بالسرعة البطيئة على... على رأس كريمة.

* * *

وفي اللحظة التالية اندفع الرجال من الأحراش وهم يصرخون ويطلقون النار في الهواء.

أصيب البدائيون بالهلع.. كانوا في حالة قاتلة من الشبع والانتشاء بالخمر، فلم يستطيعوا الحركة أو مواجهة القادمين.

لم يكن سليم يحمل سلاحًا ناريًا، بل شيئًا يشبه السنجة. أو «الماشيت»، يلوح بها ويُطير الرقاب أو يبقر البطون.

وركل أحد الرجال قِدرًا فسال الحساء المغلي على الأرض، ثم اشتعلت النار في ثياب أحد البدائيين القليلة.. أي أنها الخرقة التي تداري نصفه الأسفل. تعالى الصراخ.

صاح سليم وهو يلوح بالسلاح:

ـ «هلم يا رجال! تذكروا أن الشخص الوحيد الطيب من هؤلاء هو الذي مات».

كأي مذبحة يمكن أن نرص الكلمات المعتادة، لكن ـ لحسن حظ نساء القبيلة ـ لم يكن هناك اغتصاب، من ناحية لأن المهاجمين ليس لديهم وقت لهذا الهراء، ومن ناحية لأن النساء كنَّ قذرات جدًا مصابات بأمراض جلدية عديدة.. هناك مرض لعين اسمه «الياوز» (Yaws) منتشر هنا ولا ينتقل بالعلاقات الجنسية، لكنه مُعدٍ برغم هذا، ورؤية امرأة مصابة به تكفي لمطاردة كوابيسك للأبد.

الظلام والدخان والنيران.

لقد تحول عيد الخنازير إلى مذبحة سوف يتذكرها أهل القبيلة طويلًا.

الطلقات تنطلق في كل صوب.

الدماء تغمر جذوع الأشجار.

كان هؤلاء القوم أكثر بدائية من أن يستعملوا السهام.. وبالطبع لم ير معظمهم سلاحًا ناريًا من قبل. إنهم هنا منذ بدء الخليقة تحميهم سلسلة الجبال هذه، لكن «سليم» ورفاقه استطاعوا أن يتسلقوا هذه الجبال بعد يوم كامل من الجهد.

كان هناك جاسوس أخبرهم بموضوع عيد الخنازير هذا، وما كانوا ليجدوا فرصة أفضل.

راحت الأمهات يركضن مع أطفالهن، بينما راحت الخنازير البرية التي تحررت من أقفاصها تصرخ وتصدر صريرًا.. وانطلقت تجري.

في السماء حلقت أسراب من وطاويط الأشجار دقيقة الحجم التي تُذكرك بحجم صرصور كبير، وهي مميزة جدًا لبابوا غينيا الجديدة.

تعثَّر أحد الأهالي فداس عليه سليم بقسوة.

أخيرًا خلا مكان القبيلة إلا من النار وإلا من الرجال المهاجمين.

وقف سليم يلهث.. ثم أعلن النصر.

هذه خطوة ضرورية.. لم يحب ما فعله كثيرًا لكنه فعله على كل حال. كان عليهم طرد الأهالي من بقعة جديدة، وعلى هذه البقعة سوف تنشأ مستعمرة أخرى.

عند الفجر عاد الرجال مظفرين بعدما تركوا بعضهم في بقعة المستعمرة الجديدة مكان المذبحة، وقد صارت قمصانهم عجينة واحدة من العرق والدم.. معظمه دم الأعداء.. خرج المهاجرون يستقبلونهم ويقدمون لهم العصير والماء. بعض اللقيمات؛ فقد جاء وقت الإفطار. عامة كان هناك جو عام من الفخر الوطني والشعور بالتحقق.

قال سليم ضاحكًا في وحشية كأنه أبو لهب في الأفلام الدينية القديمة:

ـ «قالوا البقية والهنديُّ يحصدهم.. ولا بقية إلا السيف فانكشفوا».

سألته أمينة في حيرة:

- «هل قالوا البقية بلغة «توك بيسين»؟».

ضحك كثيرًا وبصق ثم قال:

- «إنه مثل شعري لا أكثر.. لم يقولوا أي شيء.. ماتوا في صمت».

ملأت وعاء بالماء وقدمته له فشرب في جشع، ثم سألته:

- «ماذا فعل هؤلاء القوم ليستحقوا هذه القسوة؟».

مسح فمه بكُمه وقال:

- «زوجتي وطفلاي لم يستحقوا ما حدث.. القتل أمام عيني لمجرد أنهم مختلفون.. هذه هي رسالة العنف التي نأخذها وننقلها بأمانة وصدق لآخرين.. هناك فتى هرب من القبيلة هذه الليلة وهو يحمل ذكرى دامية لما فعلناه، ولسوف يعذب ويذبح آخرين فيما بعد عندما يصير أقوى.. وهكذا إلى يوم الدين.. إنه لميراث مقدس يجب ألا ينقطع».

- «إذن أنت تفشي ميراث العنف للأبد... لم يعد على الأرض سلام».

- «لم أبدأ هذا التفاعل المتسلسل القذر.. لكن أعدكِ أنني لن أظل ضحية ومضطهدًا للأبد.. أريد أن أظلم بدلا من أن أُظلم».

كانت تنظر لجسده المتحفز بالعضلات.. الحق أن العنف لا يحتاج لقوة جسدية.. يحتاج إلى قلب ميت وشراسة وكراهية. كل البلطجية يعرفون هذا، بل إن الواقع يخبرها أن العكس صحيح.. نموذج الفتى الضخم المكتنز بالعضلات ويحمل قلب طفل ويحب القطط.. ولا يستطيع أن يرد على شخص يهينه.. ربما يبكي بسهولة كذلك. هذا نموذج شائع جدًا.

هنا ظهر مكرم.. في ضوء الفجر يتقدم نحوهم ولا يبدو سعيدًا جدًّا... عيناه متورمتان بسبب نوم مرهق.. لم يضع قبعته على رأسه بعد لكنه أشعل سيجاره.

رفع يده محييًا ثم سأل:

ـ «هل أبليت بلاء حسنًا إذن؟؟».

قال سليم في فخر وهو يمسح الدم عن وجهه:

ـ «لم ينج واحد منهم إلا قلة تواروا في الأشجار، مهمتهم نقل الرسالة المرعبة: نحن أقوياء ولا نرحم.. القرية خالية لمن يسكنها».

فكر مكرم قليلًا ثم قال:

ـ «تناول إفطارًا دسمًا مع رجالك واستحم ثم نم.. عندما تصحو سوف نناقش ما قمت به من دون أخذ رأيي.. فأنا أطلب توقف هذه العمليات».

اتسعت عينا سليم في دهشة:

ـ «أنت قلت إنه لا بد لعمل العجة من صنع البيض، وقلت إن الولايات المتحدة وجدت عن طريق إبادة الهنود الحمر. لم أفعل سوى تنفيذ ما قلته».

قال مكرم:

ـ «عملية واحدة كافية جدًّا حتى ترهبهم.. لكن تكرارها سوف يلقي على كواهلنا دَينًا هائلًا من الدم ولسوف ندفعه حتمًا.. دعهم يحكوا لبعضهم البعض عن مذبحة عيد الخنازير (Pig Bell) هذه، لكن لا تضف مذبحة أخرى إلا بمشورتي».

نظر له سليم نظرة نارية.. كانت لحيته نصف نامية وشعره منكوشًا والدم يلوث وجهه مما جعله يبدو نصف مجنون.

أنت وحش لكنك تحت السيطرة.. لن يمر وقت طويل حتى تفترس سيدك وتتلذذ بأحشائه. القافلة تمشي بسرعة أبطأ ناقة، لكن الثورات تتحرك بسرعة أكثر اندفاعًا وغضبًا.

قال مكرم وهو يشم رائحة تمرد:

ـ «نم الآن، سوف نتكلم عندما تستيقظ ورجالك».

٨

هناك في ظلال الأشجار تمتد تلك الرقعة من العشب القصير..

وقد حرص مكرم على أن يقطع الأشجار حول تلك البقعة لتصير أقرب إلى ملعب صغير الحجم، وقد نثر حوله جذوع أشجار كأنها عواميد خيمة، وهذه الجذوع تحمل مظلة كبيرة من قماش مخيط، بعضه من قماش مظلات وبعضه من ملاءات.. يذكرك الأمر بسجادة الصلاة المخيطة من عشرات قطع القماش التي كنا نصلي عليها في الخلاء في المساجد الفقيرة. وعلى الأرض يجلس أعضاء مجلس الحكماء الذي قام مكرم بتشكيله، والذي يدير الأمور هنا في شآبيب. طابع الخيمة يمنح الجلسة طابعًا شبه بدوي وكأن الثريد والفالوذج قادمان حالًا.

لم يكن مكرم ممن يحبون الديمقراطية.. على الأقل لم يعد يحبها. أنت تحتاج إلى أن تطأ بعض الناس في الطريق لهدفك، ولو تركت مصيرك وقراراتك للآخرين فلسوف تضيع.. ليست الغالبية هي الأحكم دائمًا. ألمانيا انتخبت هتلر الذي دمرها.. أمريكا كانت تحارب تحرير الرق.. الأحكم من كل الحكماء هو أنت.. أنت وحدك تعرف ما تريد وكيف يتحقق. فليذهب الآخرون للجحيم، فهم حجارة تعوق طريقك.. حجارة تعتقد أن لها الحق في إبداء الرأي.

لكنه كان بحاجة إلى الشكل الخارجي لدولة. وكان بحاجة إلى استعادة التفاصيل الجميلة التي كتبها مع رفاقه بصدد تاريخ شآبيب؛ لهذا قَبِل على مضض آراء مجلس الشورى في القضايا الكبرى، وإن أرضاه قليلًا أن أعضاء المجلس كانوا على هواه، وقد انتقاهم بعناية ليروا ما يراه. كان مكرم في الطور الحالي من حياته يعيش بمشاعر

وخلجات دكتاتور. كان الحلم قد بدأ يتشكل ويتعافى، فلم يعد على استعداد لقبول الفشل بأي شكل.

اقتربي يا شآبيب الحلم.. تكاثفي وأمطري عليكِ اللعنة.. فإما أن تمطري الآن أو لا أريدكِ أبدًا.

هناك في ظل القماش المخيط يجلس الحكماء.. يمكننا أن نعرف منهم أحمد شاهين الفيلسوف الإسلامي.. محمود راغب الشاعر والروائي.. ألبير سعادة أستاذ العلوم السياسية.. سمير الشيخ أستاذ القانون الدولي والأديب.. راغب شكري صاحب كتاب «البحث عن وطن».. جورج مندوه الطبيب والأديب.. مكرم خليل نفسه.. هناك مجلس حربي مصغر يتكون من سليم وجاسم.

أنت قادر بالتأكيد على أن تميز الرأس الأصلع واللحية القصيرة لأحمد شاهين، كما تميز الجسد البدين المستريح لألبير سعادة حيث يستقر الرأس على وسادة مريحة هي اللغد.. النحول والملامح العصبية لراغب شكري.. سمير الشيخ يُذكرك بالصور الباقية من إنسان «نياندرثال» أو ربما هو نوع من رجل الغابة.. جاسم يبدو مثل جنرالات الحرب الأمريكان بشعره القصير وعضلاته المكتنزة.

كما في شآبيب القديمة ليس القضاء من سلطة المجلس، وقرارات المجلس ملزمة إلا فيما يتعلق بشن الحروب أو وقفها. القرار في النهاية قرار مكرم والمجلس الحربي. والمجلس يجتمع كل أسبوع للنظر في القضايا المهمة المستجدة ويسن القوانين.

موضوعنا اليوم هو غارة عيد الخنازير، وهل هي قرار صائب أم لا.

كان الأمر أقرب لمحاكمة لسليم، لكن مجلس الحكماء ليس من سلطته إصدار الأحكام كما قلنا.

قال مكرم حيث جلس مسندًا ظهره لجذع شجرة:
ـ «أهم قضايا اليوم تتعلق بالغارة التي قام بها سليم على قرية الأهالي.. أنا أؤمن بأنه لا بد من قدر من العنف والتوحش، لأن هذا يوجد أراضي خالية جديدة نستوطنها. إلا أن المشكلة لها شق مهم. سليم تصرف دون أن يأخذ رأيي أو يتلقى تعليمات واضحة.. إن الحماسة لسفك الدماء قد سيطرت عليه، وهو حماس يملكه الجميع ويمكن أن يستبد بأي شخص. وأنا راض عن النتيجة لأن الوطنيين سيذكرون مذبحة عيد الخنازير طويلًا، لكني أوصي بشدة بأن تكون هذه هي العملية الأخيرة.. ثمة لحظة من العنف ستقلب علينا كل شيء».
قال ألبير سعادة معترضًا وقد اهتز لغده مرتين:
ـ «أنت أول من تكلم عن استعمار إحلالي.. معنى هذا إبادة الوطنيين».
مر شاب يحمل مشروبًا في جرة فناول جرعة منه لكل من الجالسين.. هذا نوع من العصائر المحلية من الكسافا.
جرع مكرم جرعة من السائل فسالت على ذقنه ثم قال:
ـ «ربما نحتاج لهذا مستقبلًا لكننا لم نبلغ هذه القوة بعد.. ما زلنا ضعفاء وبحاجة إلى الكر والفر والمد والجزْر. والآن لا أريد أي عمليات حماسية من دون موافقتي ومعي مجلس الحرب.. اتفقنا؟».
لم يرد أحد فنظر إلى سليم وعيناه تشعان نارًا:
ـ «اتفقنا؟».
غمغم سليم بما قد يعني نعم أو لا.
ـ «ارفع صوتك».
ارتفع الصوت الغاضب المتمرد:

ـ «نعم.. اتفقنا».

ـ «دماء الأهالي الذين لم يعتدوا علينا مقدسة.. ولسوف أعاقب بشراسة من يخرق هذه القواعد».

الكلام هين.. لكن ماذا تفعل في نيران الذكريات التي تستعر في أحشائك فتدفعك إلى الجنون؟ وقتها تتمنى لو صار الآخرون وريدًا واحدًا عملاقًا لتذبحه وتراقب الدماء التي تغرق الغبار. الغضب والمرارة لا يرتويان من غير دم.

أعلن مكرم انتهاء المجلس.. على الأقل لا توجد أعمال أخرى لهذا الأسبوع.

هكذا تفرق الجالسون ورؤوسهم مزدحمة بالأفكار.

* * *

هناك جوار النهر المتدفق في الظلام ووسط سيقان المانجروف منحته نفسها..

أو ـ لربما ـ منحها نفسه.

لا تعرف كيف حدث هذا ولا متى. فقط كانا هناك يذوب كل منهما في نهر الآخر ويصغي لخريره. أزهار الأقحوان تمتزج ببكارة الأشجار ولغز الكون العريق. معزوفة طيور السنونو الغامضة.. الآن تنجاب أسرارها ويمكنك فهم كل حرف منها. دعيني أذبّ حزني الخاص في حزنك.. فلتنتصر آمالنا معًا. يكفي قلب واحد من قلبين. تكفي أنفاس صدر واحد.

لا تعرف كيف حدث هذا ولا متى!

لم يكن شيء كهذا ليخترق أكثر أحلامها جموحًا وشهوانية. لم تكن من هذا الطراز قط. لكن جموح التجربة وغرابتها هناك عند أطراف الأرض، حيث لو تقلبت في نومك لسقطت في القطب

الجنوبي هناك يصبح [illegible]. أنت شخص آخر وماضيك لم يعد له وجود. [illegible] منها هباء. حتى لفظة «مفزوع» لا معنى لها هنا فأنت لا [illegible].

يتعلق الأمر بذرة واحدة وجدت عند بدء الكون، وهذه الذرة انقسمت ملايين المرات وتناثرت في أرجاء الأرض، لكن كل ذرة تبحث عن شبيهتها وتجدها اليوم بسهولة بالغة.

هي هناك تمرغ وجهها في صدره.. تخنق نفسها بأنفاسه.. تغمر وجهه المتعب بأمطار شعرها.

هو هناك يعتصرها ويذيبها.

أنتِ لي وأنا لكِ.. أنا لكِ وأنتِ لي.

كانت منذ دقائق تمشي بين الأشجار في الظلام، وكان يمشي بين الأشجار في الظلام.. يلتقيان.. تلتمع العينان في ضوء النجوم. عيناكِ سرقتا من السماء نجمتين.. شفتاكِ اختلستا من الزهر باقة مكتنزة.. يداكِ أخذتا كل نضارة ولطف الأيك المخملي.. أنفاسكِ احتوت عطر الماضي وذكريات لا تعرفها. قالت له بصوت مبحوح:

- «أنا.. سميرة.. أبحث عن...».

وقال لها بصوت مشروخ:

- «هذا.. مكان.. خطر».

وفي لحظة كانت بين ذراعيه.. لم تستطع أن تبعد عن ذهنها صورته وهو عائد من الغارة مخضبًا بالدماء، وبرغم هذا لم ترتجف أو تنفر. لسبب غامض كانت تشعر أنه طفل يحتاج إلى رعاية ورفق.. طفل تلوث وجهه بوحل اللهو.. الجرح الغائر في أعماقه يحتاج إلى من يسكب عليه أنهار اللبن والعسل ويهدهده.

رائحة شعرها تذكره بعطر السوسن في قنينة تركتها له أمه.

لم تسأل نفسها عن رأيه فيها.. لم تسأل نفسها عن موقفها الأخلاقي إذ تسقط بهذه البساطة.. كانت عواطفها خيولًا بلا لجام في مرج بري، وقد صار الإمساك بها مستحيلًا... لو وقفت أمامها فلسوف تمزقك بسنابكها.

أوسلو.. شريف.. التحرش.. الصبية.. أولاف.. أين ذهب الحجر الملوث بالدم؟ قطعة العواطف الدامية.. كل هذه أشياء تلتمع وتغيب في لحظات في ظلام الليل كأنها الشهب.

همست في الظلام:

ـ «أحبك».

كان هو يعود إلى كريمة.

«شفتاك الجائعتان تبحثان عن شفتيها في الظلام. تجدها بالحرارة واللهاث والغريزة والجوع.

«تم التلامس.. والانفجار المروع الذي زلزل كيانك كأن كل عبيد الأرض قرروا الثورة في داخلك. أصابك الهلع وحسبت أنك تموت، وحسبت أنك مريض، وحسبت أن الله أرسل صاعقة تفتك بك لما فعلته.

وعندما انتهى كل شيء كنت ساقطًا على الأرض ترتجف غارقًا في العرق».

أمينة. كريمة.. ثمة امرأة في كل مكان تدفن حزنك في شعرها.. وتلتمس بين ذراعيها حياة جديدة.

كان الآن غارقًا في العرق وكل عضلاته تلتمع في ضوء النجوم.. هناك بين جذور المانجروف الملتفة كان امتزاج كائنين خُلقا ليمتزجا.. العنصران التواقان لبعضهما البعض منذ الأزل.

همست في الظلام:

ـ «أنت ترتجف.. العرق سرى فيك [illegible] بالبرد»
همست في الظلام:
ـ «أنت تلهث.. لقد أرهقتك».
همست في الظلام:
ـ «كل هذا العنف وكل هذه الشراسة غطاء واهن لروح رقيقة كأجنحة الفراش.. أنت بحاجة إلى بكاء. مَن الأحمق الذي قال إن الرجال لا يبكون؟ أنت بحاجة للوضوء بالدموع من أجل صلاة الحب. اغتسل في نهر العبرات لتتعمد... أنت بحاجة لقلب آخر لا تملؤه الندوب. هلم خذ قلبي في حلتك، فهو ـ ظاهريًا ـ سليم».
همست في الظلام:
ـ «هلم.. لا تتكلم.. لا تبحث عن حروفك في الظلام، فلن تجد الحروف الصحيحة أبدًا».
همست في الظلام:
ـ «نم يا صغيري.. نم.. توسد صدري وانسَ الغد».
إن قُرحتها تلتئم ببطء.. لا وقت للقرحة الآن.

* * *

هكذا يولد الحب في ظروف غامضة.. لماذا يا بلهاء تقعين في حب هذا الثائر الدموي المتمرد؟ نفس النظرات والطابع المميز لـ«تشي جيفارا»، لكنه أكثر جنونًا، وأحيانًا أكثر قسوة.. ولا عجب أن مكرم اتخذه وزيرًا للدفاع (والهجوم في الواقع).

كان يقول لها عن شخصيته القديمة التي دفنها هناك على شواطئ ليبيريا:

ـ «بقال وديع مسالم.. لكن كم من الناس يمكن أن يجتازوا

تجربة ذبح الزوجة والابن أمام عيونهم ويحتفظوا بإنسانيتهم؟ الوحوش تقدر دائمًا على صنع الوحوش».

قالت له وهما يجلسان على حافة النهر، يقذفان الأحجار:

- «لكن الوطنيين هنا لم يكونوا مَن فعلها بزوجتك».

- «لقد قررت أن يكون هنا وطني. ولهذا سوف أقتل كل من يعوقني.. أنا رأيت الكثير من العنف في حياتي وتم تدميرها تدميرًا، لذا سأدمر حياة الآخرين إذا وقفوا في طريقي».

ارتجفت.. يا لكِ من حمقاء بلهاء.. لا بد من مصاصة دماء كي تقع في حب رجل ينطق بهذه الكلمات.. إنه قاس فعلًا... قصة حب كهذه لا بد أن تنتهي بمأساة أو تنتهي بمذبحة.

منذ يومين استيقظ من النوم عصرًا بعد تلك الليلة السوداء التي قضاها في المذابح مع رجاله، فرأت مكرم يسحبه من ذراعه ويقتاده بعيدًا قرب نطاق الأشجار المحيط بالمعسكر.

هناك دارت مناقشة طويلة بين الرجلين.. سليم يلوح بيده في عصبية، بينما يهز مكرم سبابته.

يمكنها أن تضع حوارًا للمشهد على كل حال كأنها تضع «دوبلاج» لفيلم سينمائي.

- «أنا أفعل ما أراه صوابًا».

- «هذا العناد سيضيعنا.. لقد اخترتموني زعيمًا وأوامري نافذة.. لا أريد دمًا لمجرد أنكم تستمتعون بالدم».

- «أنا لم أخترك.. هذه نقطة».

- «كل فكرة «شآبيب» فكرتي.. وأنا المسئول عن تنفيذها وعليكم الطاعة».

لم تسمع حرفًا من المحادثة لكنها كذلك لم تفوت حرفًا منها.

عاد سليم وهو يضرب يمينًا ويسارًا.. وبنصل سيفه أطار غصن شجرة..

فلما رآها تنظر طلب منها أن تلحق به.

فجأة تصلب قرب نطاق الأشجار وتراجع، ثم أمرها ألا تقترب.

ثم طوح بذراعه فطار النصل ليضرب شيئًا فوق الشجرة.. ثم هوى حيوان غريب عند أقدامهما.. كان يتشحط في الدم.. شعرت للحظة كأنه أرنب عملاق تم ذبحه.

هتفت في رعب:

- «ماذا فعلت؟».

- «قتلت حيوانًا لا أعرفه ويبدو مريبًا».

تحسست فراء الكائن البائس وقالت:

- «أنت قتلت كانجارو الأشجار (جود فيلو).. هو كانجارو لكنه يتسلق الأشجار.. حيوان نادر جدًّا ويميز بابوا غينيا الجديدة.. مسالم وموشك على الانقراض إن لم تكن أنت قد قتلت آخر واحد».

حاول أن يتفادى نظراتها... وكانت أمينة بالطبع مُعلمة واسعة الثقافة في هذا العالم، وتعرف معظم أجناس الحيوانات هنا.. هكذا ربما أزال سليم جنسًا كاملًا من خارطة الأنواع!

قال لها في قنوط وهو ينزع النصل من اللحم:

- «آسف».

- آسف؟!

قالت في غيظ:

- «هذا ديدنك.. مندفع دومًا ثم تفعل أشياء لا يجدي معها الاعتذار».

نظر لعينيها في صمت لحظات ثم قال:

ـ «لن أعتذر أبدًا عن وقوعي في حبك».

لماذا يا أحمق تسكب البنزين على النار؟ ليس هذا هو الزمان ولا المكان المناسبين للوقوع في الحب.. وسميرة؟ ليس هذا أفضل زوج أم يأتي لها.. ثم إنه متقلب سريع الغضب.. يمكن السيطرة على حصان جامح أسهل بكثير من السيطرة على رجل كهذا.

هذا سيجعل الأمور أكثر تعقيدًا، لكنها كانت تعرف كذلك أن عليهم الزواج وتعمير هذه الأرض.. سوف يأتي عرب كثيرون بالتأكيد في الأيام القادمة، لكن لا بد من أن يولد أطفال هنا.. أطفال يشعرون أن هذه أرضهم ويغنون: «هذه أرضي أنا.. وأبي ضحى هنا».

لو طلب يدها للزواج بشكل رسمي فلسوف تقبل.

الحقيقة أنك لو رأيت ما صارت له شاييب والمستعمرات المحيطة بها في ماردس أيلاند لأصابك الذهول. لقد بدأت شبكة طرق تشق طريقها في الغابة.. العرب في الخارج أرسلوا أدوات شق الطرق والبلدوزرات إلى البلاد الوليدة، كما صار هناك مطار صغير يسمح بإقلاع وهبوط الطائرات المروحية.. تبرع أثرياء الخارج بثلاث طائرات صغيرة.

من يعرف بابوا غينيا الجديدة يعرف أهمية الطائرات في جزيرة تغطي الجبالُ نصفها وتغطي الغاباتُ نصفها الآخر.

قال لها مكرم ضاحكًا عندما زار المدرسة:

- «من يدري.. ربما خلال عام أو عامين ننشئ محطة بث تلفزيوني وإذاعي ونحصل على أجهزة راديو».

قالت بمزيج من المزاح والجد:

- «نحن بحاجة لأجهزة كمبيوتر.. العملية التعليمية تحتاج لذلك».

لم ير أي دعابة في كلامها. تحسس لحيته القصيرة وسحب نفسًا عميقًا من السيجار وقال:

- «هذا كلام معقول بالتأكيد.. لكن لا بد من أن تكون عندنا كهرباء أولًا».

كهرباء!! مياه! المشوار طويل والعملية معقدة فعلًا! لا يمكنك تخيل مدى التعقيد الذي يستتبعه أن تنشئ دولة، إلا عندما تحاول أن تقيم دولتك الخاصة.. كل من بدأ بتأثيث شقة اكتشف كم الصعوبات الجمة التي تنتظره، بدءًا بعداد المياه والكهرباء وشراء أنبوب غاز

ونباحة علب ومكنسة! كمّ مذهل من التفاصيل.. الآن نحن نتحدث عن دولة كاملة.

خمّن ما تفكر فيه ورأى الإرهاق والعجز في عينيها فقال في خفة وبشاشة:

- «نحن نقف على قاعدة متينة.. سوف نضيف لبنة كل يوم ويرتفع البناء.. ربما ليس في جيلنا هذا.. لكن «شآبيب» ستكون دولة عظمى يومًا ما».

هناك في ماروس أيلاند في بابوا غينيا الجديدة كانت دولة جديدة تولد..

أخلى الأهالي المذعورون بعض القرى المجاورة، وهكذا هرع مهندسو العرب ليضعوا قواعد مدن جديدة.. الحق أن الرقعة كانت تتسع.

زارت أمينة أحد تلك المعسكرات الجديدة مع مكرم وسليم، وكان مصطفى يلحق بهما.. كان هناك حارس شخصي من أصل مغربي يقيم في فرنسا، وقد راح يمشي على مقربة منهم وهو ينظر حوله في حذر.

فجأة رأوا كوخًا من أغصان وخشب البامبو تداعت جدرانه.. هذا كوخ لم يُخله سكانه.

أمام الكوخ كانت امرأة من الأهالي تبكي بلا توقف، وقد جلست القرفصاء، وعلى الأرض كان رجل راقد لا يكف عن الضحك.. ضحك هستيري لا يتوقف. لا يستطيع أن يأخذ نفَسه.

ينهض ويقهقه ثم يسقط على الأرض ويواصل الضحك.

جوار الرجل وقف طبيب شاب من أطباء العرب.. يبدو أنه من

أصل خليجي وقد كان يقيم في كندا.. رأى «مكرم» فأدى له التحية العسكرية. لم يكن لهذا داع فمكرم ليس جنرالًا والطبيب ليس جنديًا، لكن كان هناك طابع عسكري عام في المكان.

ـ «ماذا يدور هنا؟».

ـ «كورو يا فندم».

كورو.. هذا مقلق فعلًا... المهم ألا ينتشر و...

ـ «ما هو الكورو؟».

شرح لهم الطبيب الشاب أن أهالي بابوا غينيا الجديدة يأكلون مخ الموتى على سبيل الحصول على قوتهم وحكمتهم.. هذه عادة منتشرة.. لكن هذا يؤدي لانتقال فيروس معين يسبب داء الكورو (Kuru).. وهكذا يصاب المريض بالتهاب مخ ويضحك حتى يموت.. هذه نهاية قاسية مريرة وحتمية.

نظر مكرم للمريض في شفقة.. ثم سأل:

ـ «هل من طريقة لشفائه؟».

ـ «لا شفاء يا سيدي..الموت مضمون مائة في المائة».

هز مكرم رأسه في حزن، فتساءل الحارس وهو يخرج مسدسه:

ـ «هل أنهي عذابه؟».

شهقت أمينة في ذعر، بينما قال مكرم:

ـ «أعتقد أن هذا أفضل.. سوف يستريح من عذابه، بينما الزوجة المذعورة ستركض لتخبر الأهالي أن الشياطين الذين جاءوا من البحر يقتلون بلا رحمة، سوف يخلون المزيد من القرى».

صاحت أمينة:

ـ «أنت لا تملك سلطة أن تحيي أو تمـ...».

بوم!!

كانت هذه هي الطلقة الوحيدة التي نسفت رأس المريض. فهمد وكف عن الضحك. في نفس اللحظة تقريبًا انفجرت المرأتان في صراخ هستيري كأنهما كلبتان عاويتان.

قال مكرم وهو يجذب أمينة من معصمها:

ـ «كانت ضربة موفقة.. أرحناه من عذابه وصنعنا هالة رعب أكبر من حولنا».

ضربته بقبضتها في كتفه في غِل، فابتسم وتحمل اللطمة شأن الفلاسفة الذين يتحملون الصفعات:

ـ «لا بأس.. لكن تذكري أنني من يقود هنا، وأعرف ما ينبغي عمله».

هكذا يولد عالم جديد .. [illegible] أتى فجر جديد، واللون [illegible]
الأفق ليس لون الشفق، بل هو دم من ماتوا من أجل الحلم

عبد اللطيف الحوابي
من ديوان [illegible]

* * *

انتهى مصطفى من عزف اللحن على العود.. لم يكن قد حفظ الكلمات بعد، لكنه كان يتابعها من ورقة أثناء الغناء.. فلما انتهى رفع رأسه إلى أمينة وسليم متسائلًا كأنه تلميذ في مدرسة ابتدائية ينتظر رأي المُعلمة في خطه.

صفق الاثنان في حماسة.. اللحن كان موفقًا وحماسيًا ومؤثرًا في الوقت نفسه برغم صوت المطرب الأجش. وهتفت أمينة دامعة العينين:

ـ «لم أعرف أنك تجيد التلحين يا مصطفى».

ابتسم في خجل كأن سره قد افتضح، ووضع العود جانبًا.. كان هذا هو النشيد القومي لشآبيب، الذي سيكون هو السلام الوطني الدائم فيما بعد. سمعه مكرم من قبل وراق له.. إنه تلحين موفق لقصيدة الشآبيبي الشهيرة:

زارت شآبيب الغيوث ديارنا
فإذا «شآبيبُ» ارتوت بالصيّبِ
فإذا الجبال اخضوضرتْ وترعرعتْ
فالعيش في الياقوت أضحى مطلبي

طبعًا عبارة «غينيا الجديدة» تم تأليفها مؤخرًا، لأنه لم تكن هناك غينيا جديدة أيام العباسيين.

الأبيات الزائفة كتبها محمود راغب محاولاً استعمال ألفاظ عتيقة جزلة قدر الإمكان، وهو الذي أجرى فيما بعد التغييرات المعاصرة.. تولى محمود راغب خلق التراث الأدبي الزائف لشآبيب بكل تفاصيله. حتى إنه كتب مقاطع كاملة من كتب مندثرة، ومع الوقت صارت شآبيب حقيقة ماثلة أمام عينيه، وصار يفكر كأنه الحارث، مع علمه التام أن هذا كله أكذوبة.

كان مكرم يعرف أهمية الأقصوصة والأغنية في صنع المشروع القومي. يمكن للأغاني أن تخلق جوًّا وطنيًّا صناعيًّا وأن تدفع الناس إلى التضحية. لهذا اهتم بمصطفى بشكل خاص.. لربما قلنا إنه جعل منه مطرب الثورة، لو صح التعبير. وكان مصطفى يصدق ما يغنيه ويؤمن به. بالواقع كان الجميع يصدقون، وقد بدءوا يشعرون أنهم بصدد شيء فريد من نوعه، مثلما تلقي ببذرة مهملة وتسقيها بلا مبالاة.. فجأة تكتشف أنها بدأت تورق وأنها مشروع شجرة سامقة.. مع الوقت تتحمس وتصدق، وتصير هذه البذرة همك الأول.

نظر مصطفى إلى أمينة.

شد ما تغيرت أمينة عن أيام كانت جارته في أوسلو. المعلمة الرقيقة الوديعة صارت امرأة عنيدة بادية التصميم على شيء من الخشونة. يعرف هاتين الشفتين الرفيعتين المزمومتين على الفور، كما أن تجعيدة طولية ظهرت بين الحاجبين مما يسميه العامة «١١١»، لكنها كانت تعطي وجهها ملاحة لا شك فيها.

تُرى ماذا يفعل شريف من دونها؟ بالتأكيد تسير حياته بانتظام وبلا أي ارتباك. شريف يعرف كيف يدبر أموره في كل وقت. لا شك في هذا.. إنه هناك مع المتعصبين ومع «داجفين»، لكن حياته مستقرة نوعًا عن حياتهم هنا.

كان مصطفى يدرك بلا شك أن سليمًا هو الحب الجديد في حياة أمينة.. هو ليس طفلًا. زهرة زوجته قالت هذا همسًا، وعامة صار

من الصعب أن ترى أمينة من دون سليم.. وهذا يثير العجب، لأن الفتى جاسر عصبي أقرب لحصان بري ثائر. لا يفهم مصطفى كيف تنسجم هذه الطباع.

النقطة الأخرى التي يعرفها وأخفاها طويلًا هي أنهما يدخلان الدغل من حين لآخر كي يتواريا لساعة أو أكثر. لا تحتاج لخيال خصب كي تعرف ما يحدث. يحدث بينهما ما يحدث لأي امرأة ناضجة ورجل قوي مكتنز بالعضلات وجدهما في الدغل. المعلمة المهذبة الأم قد تغيرت كثيرًا، ولعلها غرابة التجربة الجذرية قد بدلت كل شيء فيها. تحطمت تابوهات كثيرة مع عالم المغامرة والتحدي والتضحية بما هو مألوف ومضمون.

أما عن سميرة، فهو لا يعرف يقينًا ما تعرفه، لكنه رأى حيرة وحزنًا دفينين في عينيها. إنها تعرف على الأرجح.. تعرف ما هو أكثر مما يحق لها أن تعرف.

شيء متوقع أن تتابع أمها خلسة لتعرف سبب اختفائها من وقت لآخر، وأمر بدهي أن تتساءل عن دور هذا السليم الذي صار في كل جزء من حياتها.

سميرة تعرف.. لا شك في هذا.

* * *

كانت الحفريات تدور على قدم وساق بناء على تعليمات صفوان بحثًا عن آثار دولة الحارث بن مسعود.. هناك بقايا مسجد الياقوت والقصر.. بقايا ابن الحارث.. لا بد من وجود آثار تدل على هذا، وعلى أن العرب وجدوا هنا.. لا يمكنك أن تزيل عاصمة كاملة من الوجود دون أن تترك جدارًا هنا أو هناك.

جرى الحفر في عدة بقاع.. كانت هناك بقايا معبد لكن استخراجها برهن على أنه معبد وثني أقيم في زمن مجهول.

كان هناك عالم آثار عربي يدعى مرزوق راح يحاول جاهدًا أن يجد شيئًا. الوحيد الذي كان يعرف الحقيقة طبعًا هو مكرم. وقد احتفظ على وجهه بتأمينة غامضة من طراز «أنا أعرف كل شيء».. لكنه كان يعرف أن هذا مهم جدًا لتكريس الأسطورة... الأكذوبة التي صنعها هو وصفوان.

هكذا كانت الفرحة عارمة عندما وجد الرجال ذلك الإناء الفخاري المهشم.

عندما أزال مرزوق الغبار بحذر، وطبع قطعة من الصلصال على الإناء كما يفعل علماء الآثار ثم نزعها.. استطاع الكل أن يروا زخرفة عربية لا شك فيها مع بيت شعر.

جلس الرجال في الشمس عراة الجذع غارقين في العرق والغبار، وقد التفوا حول هذه المعجزة.. الأثر الأول.

هذا الإناء عربي بلا شك، وهو مدفون هنا منذ قرون.

هلل الجميع فرحًا وحملوا الإناء ليضعوه في كوخ خاص وأحاطوه بوسائد منعًا لتهشمه.

قال مرزوق في شك وهو يتأمل الإناء:

- «هذا ضرب من الخط المغربي لم يكن شائعًا وقتها».

ثم نظف عويناته وقال:

- «أقترح أن يتم إرساله للولايات المتحدة لتقدير عمره بالكربون المشع».

هذه هي مشكلة العلماء الذين يصرون على الدقة في وقت لا

يتحمل هذا.. إن الغباء البشري لا نهاية له.. قال مكرم في عصبية واللعاب يبلل لحيته:

- «هل أنت معنا أم ضدنا؟» .

- «أنا مع الحقيقة العلمية حتمًا» .

- «نحن بحاجة للحماسة وأن نشعر الناس بالانتماء، وقد وجدنا ما يحمسهم، وأراك تقاتل كي تثبت العكس».

قال مرزوق بحياد العلماء:

- «ليست الشوفينية هي أفضل سبيل.. الدقة العلمية مطلوبة سواء كانت معنا أو ضدنا».

- «لهذا ستستمر الحفريات.. لكن تذكر أننا بصدد إنشاء دولة.. التخاذل يعتبر خيانة».

بالطبع كان مكرم يعرف جيدًا أن معاونًا له ابتاع الإناء من سوق في الصين وجاء به.. لا بد أنه انتزع ملصق «صنع في الصين» منه قبل أن يدفنه تحت التراب مباشرة.. طبعًا لا بد من خطأ منطقي، مثل العملة التي كتب عليها «تم صكها عام ٢١٥ قبل المسيح!».. كيف عرف من صنع العملة أن هناك مسيحًا آتيًا؟!

هناك أكثر من قطعة مدفونة تحت الغبار، وهناك سيف صدئ سوف يجدونه عما قريب. لقد تم دفن هذه الأشياء في أول ليلة على الجزيرة.

لكن العامة لا يدققون ولا يرون هذه الأخطاء المنطقية.. كربون مشع؟ اللعنة على الكربون المشع والعلماء كلهم!

استمرت الحفريات في حماسة لكن لا يوجد أثر واحد يدل على وجود مبانٍ ومسجد هنا في القديم. فقط أوانٍ خزفية ومسبحة.. البروفيسور مرزوق لم يكن راضيًا.

بعد أسبوعين قال لمكرم وهو يتحاشى النظر لعينيه:

ـ «حفرنا الأرض كلها في الموقع الذي يفترض أن تكون في شأبيب.. للأسف لا شيء سوى تفاهات... لقد بدأت أعتقد. . .

اتسعت عينا مكرم غضبًا وتساءل:

ـ «تعتقد ماذا بالضبط؟».

ـ «أعتقد أنه لا وجود لهذه العاصمة.. أعتقد أن القصة كلها أسطورة.. نحن لم نوجد هنا قط».

استشاط مكرم غيظًا وسدد لكمة منذرة بقبضته لكتف العالم وهمس:

ـ «صمتًا! في هذه الظروف العصيبة يمكن لي أن أعتبر كلامك خيانة صريحة. لسنا في مجال الدقة العلمية.. بل إنني سأطلب ما هو أكثر.. سوف أطلب منك أن تلفق أثرًا أو اثنين.. لا بد أن يقتنع هؤلاء بأن لهم حقًا تاريخيًا في بابرا غينيا الجديدة.. ماروس آبلاند بالتحديد».

قال مرزوق وقد شحب لونه:

ـ «ولكن... ولكن هذا مفضوح حتمًا».

ـ «بالعكس.. من يجرؤ على التشكيك؟ فقط رتب لي سيناريو استخراج بقايا بناية، وسوف نعلن أننا وجدنا مسجد الفيروز الذي هدمه العباسيون».

كانت أمينة قد جاءت مع سليم بعدما أنهت عملها في المدرسة، وقررت أن يزورا منطقة الحفريات قرب الغابة، فرأت الرجلين يتكلمان.. مكرم يبدو صارمًا وغاضبًا والعالم في حالة رعب.. عم يتكلمان؟

* * *

ارتجف.

لو كان بوسع المرء أن يغرس الخنجر في مخه ليقتطع الجزء الذي يحمل ذكريات معينة، لغدت الحياة جنة. وما تعلمه من خبراته أنك مهما دخّنت من أعشاب مخدرة وانغمست في خمر ولهو، فالذكريات القذرة تظل هناك.. لا يمكن أن تخفي رائحتها كأنها القيء على تنجيد سيارة.

الأرض ترتج.

لعلها المرة الرابعة في هذا اليوم.

الغمام يزداد كثافة، وذلك الشعور بأن الليل يدنو برغم أن الساعة لم تتجاوز العاشرة صباحًا. هذا الشعور الذي كان يمقته ويخشاه في طفولته عندما تقترب العاصفة. لم يفشل هذا الشعور قط في جعل أمعائه تتقلص، ولربما أطلقت بعض ما احتبس فيها من غازات. لكن الأمر هذه المرة لا يتعلق بظلام مبكر، بل هو يتعلق بنهاية الكون ذاته.

* * *

العبء الذي أحمله يا «جوناثان» جد ثقيل.

لا أعرف متى تصلك رسالتي المغلقة هذه، خاصة أنها لن تصل بالطرق الإلكترونية، ولكن بطريقة المظروف المغلق كأننا في العصور الفكتورية. سوف تحملها سفينة كندية.. وبشكل ما سوف تصل لك ربما بعد شهر أو أكثر.

إن إنشاء دولة أمر معقد عسير، خاصة ونحن نعمل بلا إمكانيات تقريبًا.. وأنت تعرف كذلك أننا نقف على خيط أسطوري واه جدًا يمكن أن ينقطع بسهولة. لقد وضعت أساسًا

من ورق ثم بدأت تشييد بناية من الحجر والقرميد فوقه، ورهاني هو أن إتمام البناية سيجعلها ترتكز على الأرض فوق أساس واه.

لقد صار الكذب عادة لدي، حتى إنني بدأت أصدق أكاذيبي.. صارت عندي ذاكرة زائفة لهذه النعمة. صحيح أن هناك متشككين، هم أقرب للملاحدة الذين ينكرون وجود دين معين.. مع الوقت يتعالى صوتهم ويرتفع. لكني قادر حتى اللحظة على إخراسهم.

أنا ألعب لعبة خطرة دقيقة بين إسكات المتشككين أو خائري العزم، الذين يشكون في جدوى وحقيقة المشروع، وبين السيطرة على جماح المتحمسين الشوفينيين الراغبين في مزيد من المذابح.

أي أنني أجمع بين الشدة واللين.. بين الجموح والتعقل.

لقد هرمت بضعة أعوام، ولو رأيتني لما عرفتني من فرط النحول، والشيب الذي خط شعري ولحيتي. الحقيقة أنني لا آكل ولا أنام تقريبًا.

إنني ألعب لعبة خطرة، لكنني أعرف هدفي وأعرف أنه سام. وأن الأجيال القادمة سوف تذكرني في احترام كما يذكرون بسمارك وماتزيني.. لن يذكرني التاريخ ككذاب لكن كذبي من نوع خاص.

هناك في مكان ما في بقعة ما مَن سيقف أمام قبري باحترام ويذرف دمعتين.. لقد اخترت الأبدية، إذن فليفنَ جسدي وليذبل.

زوجتي وابنتاي لا يَمِلنَ للحياة هنا بتاتًا. زوجتي تحبني وتشعر أن من واجبها أن تتبع زوجها إلى أقصى أطراف الأرض حتى لو جن.. حتى لو ضربته صواعق الخبال.

لكن نمط الحياة الأمريكي ما زال يلاحق ابنتيّ، وهما تشعران أن طموحي هو هلوسة شيوخ كلفتهما الكثير جدًّا. لقد صممت على تماسك الأسرة، وكان من السهل أن أترك النسوة في الولايات وأنطلق من أجل حلمي.. لكن أسرتنا كل لا يتجزأ.

كنت قد اخترت لبناتي مستقبلًا أمريكيًّا، ودراسة في هارفارد، وبيتًا مريحًا.. لكني كنت كذلك بحاجة إلى أن أبدأ رحلتي الخاصة.

أشياء كهذه تنساها على الفور عندما تمشي في المستعمرة هنا. ترى الطرق التي بدأنا نشيدها.. حفرناها في الصخر ووسط الأدغال الاستوائية.. ترى مجاري النهر التي شققناها لتروي التربة الخصبة. إن جاسم الفلسطيني يعرف ما يفعله حقًّا.

يمكنك أن ترى نظام البيمارستانات الذي قمت بتكوينه؛ حيث يتردد المرضى والأهالي ليفحصهم أطباء أو أشخاص تلقوا تعليمًا طبيًّا سريعًا، وقد عرف الوطنيون أن عقاقيرنا التي تجلبها السفن قادرة على كل شيء.. الحمى تزول والجراح تلتئم والملاريا تتراجع.

يمكنك أن ترى المدارس البدائية التي أنشأتها؛ حيث يتلقى العرب العلم، وينضم لهم بعض الأهالي. بعض هؤلاء القوم صار يتكلم العربية نوعًا، وقد بدأ البعض يصدق قصتي عن وجودنا هنا قديمًا.

إن الأمر أضخم مما يمكنك تصوره، وبالطبع ما كان هذا كله ممكنًا من دون دعمك ودعم حكومتك. الحكومات الغربية يسرها بالتأكيد أن تتخلص من العرب بشكل يقنعها أنها لم تنفهم.

من حين لآخر يثور الوطنيون.. إن هناك دعوات واضحة لطردنا، باعتبارنا كائنات نجسة دنسة جاءت من البحر. هناك غارات ليلية تتم على معسكراتنا.. وقد خسرنا بعض رجالنا

في هذه الغارات، لكن خسائرهم تكون أكبر في كل مرة..
سمحت لرجالي ببعض التمثيل بالجثث بشكل محدود طبعاً
من أجل ترويع الوطنيين. هذه الثورات تقوم رجالي بقمعها
محاولين ألا يريقوا الكثير من الدم. هذا صعب جداً وسط
بعض المتحمسين، ومنهم سليم الذي اتخذته مساعداً لي.
الفتى يحمل ضد الغرب حنقاً هائلاً، وقد حول هذا الحنق نحو
الوطنيين الذين يحاولون منعنا من صنع دولتنا.

السيطرة عليه عسيرة كجواد حرون، أو كأنك تحاول تقييد
خنزير بري، لكنني أحاول جاهداً، وأعتبره وزير حربيتي إذا شئت
الدقة.. إنه ذكي وقوي ونشط.. ولو تعقل فأنا أرشحه ليكون
الحاكم القادم لشآبيب.

أرجو أن تبلغ تحياتي للرئيس ولأصدقائك في الكونجرس..
تمنَّ لي التوفيق فأنا بحاجة له فعلاً.

١١

يمشي مكرم بقامته القصيرة وخطواته الواثقة الراسخة. قِصر القامة قد يجعل بعض الناس هشين ضعاف التأثير، لكنه مع آخرين يجعلهم أكثر ثباتًا والتصاقًا بالأرض، على غرار نابليون بونابرت. إنهما العينان.. هما كل شيء مع الصوت.

يمشي مكرم وسط عمليات الإنشاء المستمرة.. الأمر يبدو كشارع نوعًا.. تتراص الأكواخ الخشبية على جانبيه. بعض المباني من القرميد، وقد عكف الرجال يعزفون سيمفونية العضلات والعرق. وكان قد تعلم أساليب قادة الجيش، فراح يربت على هذا ويداعب ذاك في وقار. كان بعض الرجال يتوقفون فيأمرهم بأن يستمروا.

إلى جواره مشى سليم.. كان مزاجه رائقًا على غير العادة اليوم، خلفهما بخطوتين ترى أمينة.. إنها كظل سليم هذه الأيام، وقد صار الجميع يعرفون أنها امرأته.. حبيبته.. خطيبته.. عشيقته.. أي شيء.. المهم أنها له وحسب.

رأى مكرم شابًا أسمر يتعاون على نقل كومة من القرميد مع امرأة شقراء، وإن كان يحاول منعها من بذل أي جهد. ملامح الفتى الفرعونية تشي بأنه مصري، أما هي فغربية جدًا.. لا شك في هذا.

دنا من الشاب الذي غمره العرق والغبار، وتساءل:

- «أنت مصري.. أليس كذلك؟ الاسم؟».

مسح الشاب جبهته فزاد من الغبار على جبينه وقال:

- «محمد عدنان.. جئت من أستراليا».

- «وهي؟».

- «زوجتي.. أصرت على أن تكون معي».

التفت مكرم إلى «جلاديس».. كانت الحماسة وجذوة الإثارة تلتمعان في عينيها.. كانت تحب ما تفعله. شقراء منثرة الشعر، احمرَّ وجهها الغارق في العرق، وقد شمرتْ كمَّي قميصها المتسخ. سألها بالإنجليزية:

- «هل تحبين ما تفعلينه حقًّا؟ هل قبلتِ أن تشاركينا مصيرنا؟».

هزت رأسها في رضا ثم تحسست بطنها بإشارة ذات معنى.

حامل! هذا واضح. شعر مكرم بسرور. كل طفل يأتي في هذا العالم يرسخ فكرته أكثر، كأنه مسمار يدق في وجود العرب هنا ليثبتهم حيث هم.. يوما بيوم يغدو انتزاعهم أصعب.

قال وهو يشعل سيجاره الغليظ:

- «ما زلنا في البداية وتنتظرنا أيام قاسية وصراعات».

قالت جلاديس في أريحية:

- «سيجد طفلي الحياة هنا أفضل مما وجدتها أنا.. هذا وعد».

لعلها كانت تتذكر الأجداد وأيام الهجرة الأولى إلى أستراليا.. حينما كانت القارة منفى للمساجين الخطرين. هز مكرم رأسه في رضا وابتعد مع مرافقيه وسليم. لم ينسَ أن يطلب من سليم أن يتذكر اسم محمد عدنان طويلًا فهو مثال ممتاز للمواطن المثالي.

على بُعد خطوات هرعت امرأة تحمل طفلًا نحو مكرم.. شعرها محلول مشوش وبشرتها لوحتها الشمس، وقد اكتسبت طابعًا عامًّا من القسوة والخشونة. ثيابها كذلك كانت في حال سيئة بين القذارة والتمزق.

صرخت بصوت مبحوح:

- «دكتور مكرم! دكتور مكرم».

كانت لهجتها شامية نوعًا.. نظر لها مستفهمًا فأردفت في توسل:

ـ «العودة! أريد العودة! لم أعد أطيق البقاء هنا».

ـ «هل استجد شيء؟».

ـ «لم أعد أطيق هذه الحياة الخشنة والبدائية.. لقد اعتدت حياة مريحة نظيفة في أوربا، واليوم أنا أعرف أن قراري كان خطأ.. لقد قارفت إثمًا في حق أطفالي، وجئت بهم ليعيشوا بدائيين عراة.. أرجوك أن تساعدني».

قال في برود وهو يكتم غيظه:

ـ «لم يخدع أي طرف الطرف الآخر.. أنتِ تعرفين منذ البداية أن الجزيرة بدائية».

ـ «لأنْ تسمع عن المعيدي خير من أن تراه».

هز رأسه في إصرار:

ـ «للأسف لن أسمح بذلك».

كان قد احتفظ بمزية التراجع للمرضى بمرض وخيم فقط، وهذا لأنه لا نفع منهم على الأرجح... أما من تخاذل أو ضعف أو شعر بالسأم فتلك مشكلته هو. الأمر كعقد.. لو تركت خرزة تنفرط منه فلسوف ينفرط كل الخرز، ولن يبقى من هذا المجتمع سوى اثنين أو ثلاثة.. ثم إن إجراءات عودة العرب لبلادهم معقدة فعلًا.

ـ «أرجوك».

ـ «أنا آسف.. الأمر أقوى مني ومنا جميعًا».

وحك لحيته وقال:

ـ «أين زوجكِ؟».

ـ «أنا مطلقة».

جذب سليم من معصمه وابتعد عنها، بينما سليم يرمق المرأة بكراهية وضيق.. دع خمسًا من هذه المرأة يمشين وسط المهاجرين

ولسوف يفشل المشروع كله. قال مكرم ما معناه إن القسوة تكون ضرورية أحيانًا، وهو يعرف أنه قسا على المرأة التي انتهت أسباب حياتها هنا، لكن كل واحد من المهاجرين قادر على أن يجد عذ...

- «التضحية برفاهية المجتمع الغربي ليست هينة. لا بد من أن تتساءل».

قال سليم من تحت شاربه الذي يزداد كثافة:

- «أنا لم أذق تلك الرفاهية.. لم تختلف حياتي كثيرًا عنها في مونروفيا».

- «أنت سعيد الحظ.. لا توجد صراعات داخلية».

من الدغل القريب خرج رجلان من المواطنين.

كانا عاريين تقريبًا ويتكلمان بتلك اللغة الغريبة.. يطلبان السماح لهم بالدنو.

الجسدان ملونان مع بعض الريش حول العنق.. إنها طريقة معينة للاحتفال بكرنفال يدعى «سنج سنج» حيث يتشبه القوم بالأرواح والطيور.. يبدو أنه طقس ديني مهم.

دنا أصغر الرجلين، وهو شاب قوي العضلات يشير بالأصابع.. دنا على ركبتيه من مكرم وهو لا يكف عن الكلام.. ونظر له مكرم في دهشة.. واضح أن كل الوطنيين قد عرفوا أن هذا هو زعيم القبيلة هنا.. يمكنك أن تميز الزعيم في أي تجمع بشري. فحوله هالة واضحة.

كان سليم قد أجاد لغتين من لغات هؤلاء القوم. لذا ترجم ما يُقال:

- «يقول إنك جئت من نسل الآلهة، لهذا هو عبدك.. وكل أسرته عبيد لك».

قال مكرم باسمًا:

ـ «بصراحة.. أرى أن دور الإله الوثني لا يناسبني. لكنه مفيد أحيانًا.. كابتن كوك وجد أن هذا مفيد جدًّا عندما تعامل مع البدائيين.. لم يكف عن إظهار المعجزات لهم».

تمادى الوطني فزحف أكثر، ثم مرغ وجهه في الغبار عند قدمَي مكرم وراح يلثم حذاءه.. كان هذا أقوى من تحمل مكرم فتراجع للخلف قائلا:

ـ «هلا كففت عن هذا السـ....».

لم يكمل العبارة.

نظر بغباء إلى النصل الذي غاب حتى المقبض في قلبه.. لم يستطع فهم أن الفتى قد كان يمثل دورًا ليقترب منه أكثر من اللازم.. سقط منه السيجار... بصق دمًا وارتجف ثم هوى على الغبار.

لا شك أن هذا مستحيل.. لا شك أن هذا لا يحدث لي.

الآخرون فقط بلهاء ويموتون.. الآخرون تنغرس الخناجر في قلوبهم ويحترقون ويغرقون، أما أنا فلا.

إن العالم يفر مني. الدنيا تطوى من تحت قدمي، وأنا الذي تمنيت عشر سنوات أخرى حتى أكمل الحلم.

لقد حان وقت الرحيل والظلام يغمرني.

لم يصدق أحد ما حدث. لم يتصور أحد أن «مكرم» يمكن أن يموت بهذه البساطة جوار الحفريات التي حاول القيام بها. جوار الأكذوبة التي يعرف قليلون جدًّا أنها أكذوبة.. المشهد الذي لم تعتده أمينة قط.. أن يتحول رجل حي ينبض بالحيوية إلى جثة في لحظة واحدة.

الحارس الشخصي لمكرم أخرج مسدسه ليفرغه في رأس الفتى، لكن سليمًا استوقفه.

ـ «لا تفعل.. توقف.. لا بد من أن يكون عبرة».

هتفت أمينة وهي ترتجف:

ـ «عبرة.. عبرة! ماذا تنوي عمله؟».

ركل الفتى الجالس مستسلمًا على الأرض وقال باسمًا في وحشية:

ـ «سأجعل منه عبرة.. لا مزيد من التفسيرات».

* * *

قفوا يا عرب واطرقوا برءوسكم.

لقد حان وقت الدموع تسيل ساخنة ثخينة على الخدين، فتغسل غبار الحسرة المكتوم.

الحين حين الأسى واللهفة ومرارة الثكل.

الحين حين الرجفة والاضطراب والصوت المبحوح المختنق.

الحين حين الارتباك والشك في القادم والسخط على ما مضى.

لقد ترجل الفارس أخيرًا ولن يلمس باطن قدميه الثرى مرة أخرى.

ابكوا بدمع ثخين ذلك الحالم الذي تبنى الفكرة وموّلها وكتب عنها واقتادكم إلى هنا. إن شآبيب هي ابنة أفكار رجل واحد، وهذا الرجل جثة غارقة في الدم توشك على أن تغيب في الثرى. لم يكن أحد يتذكر دين مكرم ولا إن كان مسيحيًا أو مسلمًا إلا في لحظات كهذه، عندما وقف قس يصلي على المتوفى. الحقيقة أن الجميع هنا عرب مضطهدون حلموا ببلد واحد يجمعهم.. ترى هل تخلينا عنه؟ هل كان بوسعنا منع ما حدث من الحدوث؟ لماذا لم نُحطه بحراسة أكبر؟ لماذا لم يخطر هذا المشهد ببالنا؟

الرب راعيّ فلا يعوزني شيء
في مراعٍ خضر يربضني. إلى مياه الراحة يوردني
يرد نفسي. يهديني إلى سُبل البر من أجل اسمه

لقد تخلى القائد عن الدفة، وفي أي وقت؟ في وقت حرج وسط العواصف.

كان البعض قد آمن بأنه الأب الحقيقي لهم، وحسب بعضهم أنه لا يموت أبدًا.. ظاهرة الحاكم الأب والإله. لا يمكن أن ينتهي هذا كله بطعنة من خنجر بدائي.

وهكذا غاب الرجل العظيم تحت التراب.. ووقفوا يكفكون دموعهم.

لم يعترف أحد المقربين منه، العليمين بالأسرار، بأنه كذب كذبة كبيرة، لكنها كانت كذبة أراد بها أن توحدهم وتوجد لهم بلدًا من العدم. كان يعمل من أجل غاية نبيلة وإن كانت ماكيافيللية خالصة.

على أن المشهد القاسي الذي حاولوا ألا ينظروا اله هو مشهد الفتى القاتل، الذي علقه سليم على خازوق مرتفع ليراه قومه.. ليعرفوا ما يحدث لمن يتمرد على سلطة العرب.

كان ما زال حيًّا يتلوى ويطلب جرعة ماء.. لكن إعطاءه جرعة ماء يقتله فورًا، وسليم لا يريد هذا.. نفس الموقف الذي حدث لسليمان الحلبي الذي وضعوه على خازوق بسبب قتله كليبر.

كانت أمينة ترتجف رهبة وتقززًا، وحمدت الله أن سميرة لم تر ما حدث.

ابتعدت عن المشهد راجفة، قاصدة بيتها.

قال لها سليم إنهم سيقيمون تمثالًا صغيرًا لمكرم في موقع

الاغتيال. هكذا يصنعون تاريخا تدريجيا.. تتراكم الأحداث مع الوقت لتصنع ذخيرة للجيل الجديد.. يومًا ما سيحتفل الشباب بيوم استشهاد مكرم ويضعون أزهارا على قبره.. بعد أعوام قد يصير الضريح مزارًا مقدسًا.. ربما يأتون هنا ليلطموا الخدود على طريقة حسينيات الشيعة. ربما يحتفلون يومًا بغارة عيد الخنازير... إلخ.

في الصباح التالي للمشهد الدامي، ظهر سليم من كوخه.

كان قد أطال لحيته ولبس قميصًا ممزقًا يكشف عن عضلاته البرونزية، وقد علق قلادة أخذت من الأهالي حول عنقه، وكان يمسك بعصا تذكرك بعصا الماريشالية.. قسمات وجهه خشنة قاسية شققتها الشمس. الحق أنه بدا كزعيم قبيلة بدائية، وفي الآن ذاته بدا أكبر من الواقع.

نفس الانطباع الذي تأخذه أمينة عنه كلما رأته.. أنه أكبر من الواقع، وأنه غير حقيقي بشكل ما. كان يتقدم بسرعة وثبات شاقًا طريقه في بحر الارتباك واليأس والتخاذل الذي يحيط به. تلقائيًا راح الرجال يفسحون له الطريق، وتوقف البناءون عن العمل، كما أن المزارعين ألقوا بما يفعلون وجاءوا، وكف الأطفال عن اللعب.

بشكل شبه يقيني أدرك الجميع أن هذا الرجل سوف يخلف مكرم.

لا مجال للاعتراض، وبالتأكيد لا يوجد واحد مرشح لتولي هذا المنصب سواه.. ربما يجب أن يطالبوا بانتخابات ويختاروا من يروق لهم، لكن هل هناك من يرشح نفسه فعلًا؟

من الصعب أن يفكر أحدهم في ذلك.. الوقت مبكر جدًا والعواطف مضطربة، والحزن يلف النفوس بالغم.

وقف سليم للحظة يتأمل الفتى الوطني الذي هلك على الخازوق والذي يسيل الدم من فمه. ثم اتجه نحو ضريح مكرم وانحنى انحناءة ذات معنى.

كانت هناك منصة عالية يعمل عليها البناءون فاعتلاها بعضلاته القوية وبوثبة واحدة.

هناك يقف شامخا مهيبا كنسر يطل من عل، ولوح بالعصا في الهواء وصرخ:

ـ «أصغوا لي».

نظرت أمينة للخلف فوجدت أنه يقف هنالك مسيطرًا على الرءوس.. صوته جهوري وشخصيته آمرة نافذة:

ـ «أصغوا لي.. لقد مات مكرم. لكن السفينة طافية في المحيط لم تغرق، وعلينا أن نختار ربانًا بأقصى سرعة.. يجب أن يمسك أحدهم بالدفة قبل أن تثقب الصخور قاع السفينة».

ثم ارتفعت طبقة صوته أكثر وجلده يلتمع تحت الشمس:

ـ «هل هناك بينكم من يرى أنني لا أصلح لقيادة «شآبيب»؟ لو كان أحدكم يرى هذا فليتكلم الآن وهنا».

لم يتكلم أحد.. كانوا مرهقين مندهشين... هذا أسلوب عجيب لاختيار رئيس.. لا بد من انتخابات يتم ترتيبها، لكنه فرض نفسه بطريقة أشبه بالمبايعة.. اختطف الموافقة قبل أن يستوعب أحد الأمر.

ابتعدت أمينة أكثر وهي تسمعه يصيح:

ـ «لم يعترض أحد.. إذن أنا القائد».

ساد الصمت للحظة.. ثم بدأت همهمة وتقدم أقرب الواقفين حوله ليعتلي المنصة ويصافحه ويعانقه، ثم جاء آخرون.. الهمهمة تحولت إلى ضوضاء، والضوضاء صارت هتافًا.. جينات المبايعة الكامنة لدى العرب قد تحركت.

دخلت أمينة بيتها الصغير الذي صار من قرميد وصارت له أبواب خشبية.. صحيح أنه بلا إضاءة كهربية ولا أجهزة، لكنها كانت تؤمن أنهم سيصلون لتوليد الكهرباء قريبًا.

تشعر بالحر وقد امتزج العرق بالغبار، لكنها لن تستحم الآن..

لديها أعمال كثيرة، ثم إن الاستحمام هنا عملية معقدة تقتضي نقل دلاء ماء كثيرة من النهر... إلخ.

كانت سميرة نائمة تحت الناموسية لحسن الحظ.. لا تعرف بالمسرح الملحمي المنعقد في الخارج.

دخلت أمينة مكان المطبخ لتعد طعام الغداء.. أحضرت طنجرة وبدأت غسلها من دلو الماء الذي تملؤه من النهر يوميًّا.

تسمع من الخارج صوت المبايعة والمزايدة.. الحماسة تعصف بالقوم.. الأمير فوق من ذكرت.

الهتاف يتكرر: سليم.. سليم.

كانت تحب سليمًا حقًّا.. تدرك هذا يقينًا، وكل ذرة في جسدها تشهد بذلك، لكنها تدرك أنه سيجلب الكثير من المتاعب. مكرم كان أشبه بالبايات التي تهدئ من ارتطام السيارة بالمطبات. مكرم قد رحل وصار ذكرى.. الآن سيقود العربة سائق شاب جامح يحمل الكثير من الغضب الداخلي.

نهضت سميرة من نومها فأزاحت الناموسية وراحت تحك شعرها:

- «ماذا يحدث؟ لماذا يتصايحون؟».

- «يبايعون سليمًا على حكم الجزيرة».

تثاءبت سميرة وفي سخرية قالت:

- «ليس حكم جبلاية القرود بأمر يستحق كل هذا التهليل».

ثم أضافت:

- «لا بد أنكِ سعيدة جدًّا.. وراء كل عظيم امرأة».

كلمات خبيثة جدًّا كالأفاعي الزاحفة، على أنها كانت تعرف بروتوكول المواجهات جيدًا.. قل كلمتك وغادر المكان قبل أن يجد

خصمك ردًا. وكانت أمينة تغلي غيظًا.. كانت تؤمن ببراءة وسذاجة ابنتها أكثر من اللازم، لكن من الواضح أن الفتاة المراهقة تعرف كل شيء. يومًا ما سيكون عليها أن تتحمله كزوج أم.

لو طلب الزواج مني فلسوف أقبل فورًا.

الأيام التالية صارت تكرارًا لنفس السيناريو الدموي..سيناريو ليلة عيد الخنازير، وفي كل مرة:

«لا بد لعمل العجة من كسر البيض، والولايات المتحدة وجدت عن طريق إبادة الهنود الحمر».

«لا بد من إشعال النار لصنع الحلوى».

... إلخ.

كان هناك الكثير من العنف في بعض القرى المجاورة. الهجوم.. سقوط جرحى.. إشعال الأكواخ.. حرائق.. دخان... الكثير من البيض والحلوى والنار.. ولا يعرفون من العبقري الذي اغتصب أول امرأة من المواطنات، لكنه أصيب بالزهري بعدها على كل حال.

هناك وحش في أعماق كل الناس، وهذا الوحش يتحرر في ظروف خاصة لندرك أنه موجود. أنت موظف أصلع نحيل هادئ الطبع، شديد التدين والرومانسية.. فجأة تجد نفسك في غمار حرب، وتجد أنك قادر على سحق خصمك.. عندها يتحرر الوحش الغافي بالداخل، ترتكب فظائع لم تتصور قط أنك قادر عليها، وتغتصب النساء في نشوة وتحرق وتنهب.. هذا الوحش يولد دومًا في ظروف الحرب، ولا يدري أحد من أين يأتي.. الأمر يحتاج لعالم نفسي ولا يحتاج إلى مؤرخ.

لقد كثرت الغزوات، وبرغم معارضة بعض العقلاء ومجلس الحكماء، فقد كان قرار الحرب مهمة مجلس الحرب الذي يتكون

من سليم وجاسم، وبصفة سليم حاكمًا فقراراته الحربية ملزمة.. سليم مستعد لحرب كل يوم.. كل ساعة.. وهو يتهم الكل حوله بالتخاذل، وكما قلنا، فالثورات تتحدد سرعتها بالأكثر اندفاعًا.

سليم يبعث برسالة للولايات المتحدة ليبلغ «جوناثان» بتطورات الأمور.

قال لـ«جوناثان» في رسالة نقلتها له مدمرة أمريكية (وهي رسالة بها أخطاء لغوية كثيرة وقد صححتها أمينة على كل حال):

«لقد تم انتخابي بعد وفاة مكرم، وقد أقر كل العرب هنا بسلطتي. أحاول أن أتبع النظام الديمقراطي الذي أنشأه، والذي يستوحي تجربة شآبيب الأولى. العقبات كثيرة والمشاكل جمة، لكن أصدقاءنا في كل مكان يساعدوننا على تحقيق الحلم.

علينا أن نرتب المزيد من الأسلحة، لأن الوضع هنا يزداد خطرًا وروح المقاومة تتنامى. يمكن القول إن سورًا من الكراهية بدأ يرتفع من حولنا. شبكة الطرق تتحسن وقد أنشأتُ مصنعًا صغيرًا أو مصنعين.. غير أننا سنظل نمارس الزراعة لفترة، خاصة أن الجزيرة خصبة فعلًا. سنقوم بالتصدير.. على أن نتقاضى الثمن من الأقمشة والمصنوعات والأدوية المختلفة».

كان يدرك أن طريقه شاق جدًّا... لا بد من عمل نظام مصرفي وطباعة عملة، كما أنه بحاجة إلى استخراج الحديد والألمنيوم، اللذين اشتهرت بهما الجزيرة للتصدير.

لا بد كذلك من إدخال شبكة اتصالات هاتفية.

تبًّا! الطريق طويل جدًّا.

استمرت الحملات على قرى القبائل المجاورة.. نفس الأحداث تقريبًا.. حرق الأكواخ.. قتل بعض الرجال بالرصاص.. فرار النساء

والأطفال.. بدء تعمير المكان وإنشاء سور خارجي للحماية مع حراسة ثم بناء بعض الوحدات السكنية، وبالطبع تربية المواشي التي تركها البدائيون في فرارهم.

كان هناك قوم من البدائيين رضخوا للقوة وانضموا للعرب، ومنهم كانوا متحمسين في صداقتهم فعلًا.. «ألجيم تير.. ونتا جارا.. كومبي كونديكا.. بالانتينا روسا.. يريما».. يمكن أن تعتبر هؤلاء من العرب، وإن كان إخوتهم يعتبرونهم عملاء وخونة.

تعرّفهم على الفور بشعورهم الرمادية المجعدة ونحولهم وأقدامهم المغبرة والشحوب الواضح في سحناتهم.

إن رقعة شآبيب تتسع.. لا شك في هذا.. والمستعمرون يزدادون قوة.

لكن الخلافات كانت في الأفق، وبدا أن إرادة الفشل موشكة على الانتصار.

مقابلة مع جاسم.
مقابلة مع مصطفى.
مقابلة مع شعبان.
مقابلة مع قيس.

هناك في الكوخ المسقوف الذي صار مركز القيادة، يجلس سليم وقد وضع مسدسه على المنضدة وجواره دورق من الماء وبقايا رغيف جاف.. تسقط أشعة الشمس عبر السقف في شرائط على المنضدة، وعلى الوجوه والأجساد، فيبدو الكل كالنمور. هناك خريطة معلقة لشآبيب والمعسكرات المحيطة مع بعض الأرقام، وهناك مجموعة من الجداول. لحيته تتدلى على صدره وقد بدأ الشيب يتسلل لها من فرط معاناة وقلق وغضب مكتوم وطموح مشبوب. دبغت بشرته بفعل الشمس فلم يعد يضحك إلا نادرًا وبصعوبة بالغة. يقابل الجميع وينصت لهم ثم يدلي بتعليماته. كان بطبعه يمقت الترف والبهرجة.. شظف العيش في مونروفيا لم يختلف كثيرًا عن حياته هنا، وهو في هذا يختلف عن القادمين من الولايات المتحدة أو كندا. وكانت هناك بعض الكتب السياسية والأدبية، فقد صمم الرجل على أن يثقف نفسه جيدًا، كان يقرأ في نهم عندما لا ينشغل بالمقابلات، كما أن لغته الإنجليزية تحسنت جدًا.

اللقاء التالي كان مع محمد عدنان.

المصري الذي أعجب به مكرم في نفس يوم اغتياله. ماذا يريد؟

كان دامع العينين، منكوش الشعر، في حالة هستيريا.. بصعوبة

طلب من سليم أن يأتي معه. نهض سليم متسائلًا عما هنالك، وفي الخارج كانت هناك سقيفة تم صنعها من البامبو طلبًا للظل. تنحى الفتى المصري ليسمح لسليم بأن يرى. بصعوبة استطاع أن يدرك أن هذه امرأة شقراء راقدة على محفة وقد أغرق الدم فخذيها وساقيها.. كدمات كثيرة حول عينيها.. كانت تلهث في إعياء محاولة التقاط أنفاسها.

جلاديس.. الزوجة الأسترالية المرحة، تبدو وكأن قطارًا قد دهمها.. لا تدري هل ما يلوث وجهها دماء لها مظهر الدموع أم دموع دامية.

- «ماذا حدث بالله عليك؟».

قال الشاب المصري وهو يرتجف:

- «لقد ضربوها.. ضربوها بكل خسة وعنف.. وتلقت ركلات في بطنها جعلتها تفقد حملها».

- «أتتحدث عن المواطنين؟».

- «بل عن المهاجرين».

تتكسر الكلمات بين شفتيها الداميتين وتتكلم بلا توقف ولا علامات ترقيم:

- «هم قالوا لي إنهم لا يريدونني هنا وإن هذه ستكون بلادًا للعرب فقط، وطلبوا مني أن أرحل في أقرب فرصة وأنا لم أفعل لهم أي شيء، فلعلهم ينتقمون من أذى ألحقه بهم الغرب، وأنا لست مسئولة عن ذلك فليس ذنبي أن يغلظ قومي معاملتهم، لكنهم هددوني فتجاهلت تهديدهم مرتين، أنا لست مسئولة عن ذلك.. أنا لست مسئولة عن ذلك.. أنا لست مسئولة عن ذلك».

وضع محمد عدنان يده على خدها لتصمت وواصل الكلام:

- «لقد انفردوا بها بينما كنت بعيدًا.. هناك قرب الغابة. كانوا ملثمين

وأوسعوها ضربًا وركلًا. كانوا يريدون بوضوح أن تفقد حملها. ثم تركوها على الأرض تنزف قرب النهر، وقالوا لها بالإنجليزية: ليست هذه آخر مرة أيتها العاهرة».

جريمة كراهية مكتملة.

ظهر طبيب من أصل أردني من مكان ما وراح يعلق زجاجة محلول على فرع بارز، وثبت الإبرة في ساعدها.. هذ كل ما لديه.

قال لسليم في خطورة:

- «لا بد أن تعود مع إحدى السفن.. تحتاج لتفريغ الرحم ولربما ينقل لها دمًا، وليست لدينا إمكانيات جراحية تسمح بهذا».

الأنذال! هذه حالة مبالغ فيها من كراهية الأجانب. الأجانب الذين تعاطفوا معك وجاءوا من بلادهم ليكونوا جوارك ولم يمسوك بأذى. طبيعي أن تتجه كراهيتك نحو من آذوك. لكن حتى بالنسبة لسليم الذي كان يرى الشر في كل مكان، لم يبد له الاعتداء على جلاديس عملًا ذا ضرورة أو معنى. مجرد حقد عبثي ينفجر في كل الاتجاهات ما عدا الاتجاه الصحيح. العاقبة وخيمة على من فعل هذا، خاصة إن هناك عددًا لا بأس به من الأجانب في المستعمرة.

قال الزوج الدامع:

- «أنا لن أرحل.. هذه هي الهجرة الثانية لي وقد أقسمت أن تكون الأخيرة. من مصر إلى أستراليا.. ومن أستراليا إلى غينيا الجديدة.. هجرتي القادمة ستكون للسماء. لكني بالتأكيد أرغب في رحيلها».

أصدر سليم تعليماته لرجاله المكلفين بالأمن:

- «يجب القبض على هؤلاء الأوغاد».

ولكن كيف؟ لا يوجد خيط يمكن أن تمسك ببدايته.. من السهل أن تتكلم.

عاد إلى الكوخ وهو شارد الذهن، فطلب من إحدى النسوة أن تعد له بعض القهوة على الموقد الصغير. وكان زحام لا بأس به قد بدأ يتزايد في الخارج.. الفضوليون جاءوا من كل صوب ليروا المشهد الساحر: امرأة تلقت علقة ساخنة.

رفع عينيه ببطء فوجد أن زوجة مكرم تدخل من الباب مع ابنتيها.

نهض لا شعوريًا مبديًا احترامه لزوجة الزعيم. وكانت هي قد حرصت على أن ترتدي إيشاربًا مع نظارة سوداء وترسم معالم النبل والخلود على وجهها، أي أنها قررت أن تتحول من أنثى إلى رمز.. البيجوم أغاخان.

نظر لها في تبجيل متسائلًا، فقالت بصوت هادئ وقور:

- «مكرم زوجي كان يحبك ويؤمن بأنك شعلة من النشاط.. لقد تكلم عنك كثيرًا».

بحرج:

- «يسرني هذا.. لقد كنت أحمل الكثير من التقدير له».

- «أعتقد أنك لن تخيب لي رجاء بسيطًا باعتباري زوجة الأب الذي رحل».

- «بالطبع».

ساد الصمت لوهلة لكنه توقع جيدًا ما ستقوله وتهيبه فآثر أن ينتظر قليلًا.. الإجابة ستكون عسيرة فعلًا.

قالت بعد برهة من السكون:

- «الرحيل.. أعرف أنك ترفض أن يرحل أحد، وهو ما بدأه زوجي يرحمه الله، لكني بالفعل أحتاج إلى العودة للولايات».

ـ «ولماذا؟ أنتِ هنا تمثلين أم المهاجرين جميعًا».

ـ «وأنا لا أصلح لهذا الدور.. لقد توفي زوجي فلم يعد ثمة شيء يربطني بهذا المكان. أنا لم أتحمس للفكرة قط إنما فعلت ما تفعله زوجة صالحة مع زوجها: تتبعه دومًا، أما اليوم فقد رحل وعاد القرار قراري.. أنا لا أريد الحياة هنا وكذلك لا تريده ابنتاي. دعك من أن أي مكان هنا يذكرني بزوجي الذي لم يستحق طعنة في صدره».

هذا قرار صعب بحق.. لو كان مكرم مكانه لرفض في قسوة حتى لا تنفرط المسبحة، لكنه ما زال يحمل واجبًا نحو أسرة مكرم.. وهو يعرف أن الأيام القادمة قاسية. لا يريد من حوله سوى المتعصبين شديدي الإيمان بالفكرة أو الخائفين من إظهار جبنهم.. أما هذه السيدة فهي عامل ضعف.. لن تكف عن الشكوى ولسوف تحطم روح الباقين المعنوية.. الخلاص منها هو الحل الأفضل.. ستعود لوطنها كما ستعود «جلاديس» الجريحة لوطنها.

قلب الأوراق أمامه ثم قال دون أن يرفع عينيه:

ـ «سوف أرتب لك العودة للولايات مع ابنتيك.. فلا تقلقي».

ابتسامة امتنان غمرت نصف وجهها الظاهر من الإيشارب والعوينات السود، وضمت كفيها كأنها في صلاة هندوسية وقالت:

ـ «أعرف أن مكرم يود أن يشكرك».

دار السرب مرة أخرى في الفضاء ثم انخفض.

طائرة المقدمة تقدمت باقي الطائرات ليتكون شكل مثلث.. ثم لم ير أحد شيئًا يهوي أو يقذف من أي طائرة. فقط اندلع ستار من اللهب فوق الغابة وتصاعد الدخان الأسود عند قاعدة جبل الكواسر، ودارت الطائرات مرة أخرى كأنها تتأكد مما حدث من دمار ثم ابتعدت.

هلل البعض سرورًا بينما تواثب آخرون كأنها لعبة أطفال. الحق أن كل هذا الدمار يثير القشعريرة ونشوة لا شك فيها في النفس.

وقف سليم يرمق الأفق في رضا.. لقد استجابت الطائرات الأمريكية للطلب الذي قدمه وقصفت ذلك الحاجز اللعين الذي استعصى على رجاله، حيث رجال القبائل يحاربون بشراسة ويذبحون من يقترب. هذه العمليات يطلقون عليها «الكي»، وهي غالبًا فعالة تضمن تنظيف المنطقة.

كان قد ألح كثيرًا على «جوناثان إيرهارت» كي يستعمل نفوذه للفوز بغارة كهذه. واقتضى الأمر ثلاثة أسابيع حتى قررت الولايات أن واجبها يقتضي حماية المهاجرين بهذه الطريقة.

قالت له أمينة:

- «أنت صرت مستعمرًا حقيقيًا يبذر الهلاك والنار.. يومًا ما ستقول إن هذا عبء الرجل الأبيض، وإن القوم هنا أنصاف شياطين وأنصاف أطفال».

«أبقِ أولادك في المنفى
ليلبوا مطالب أسراك
ليقفوا في عدة الحرب الثقيلة

«يحرسون الجموع لهائجة

التي هي أنصاف أطفال، وأنصاف شياطين».

لم يكن قد قرأ «كيبلنج» ولم يكن قد سمع عنه من قبل، لذا ـ من الغريب ـ راقت له هذه الكلمات.. أنصاف شياطين أنصاف أطفال..

هذا حق

يرقب الدخان الذي يرتفع لعنان السماء.. لقد تم التطهير والتطهر فلا شيء كالنار يفعل ذلك. لا بد من أحد يفعل هذا، وهذا القصف قد كفاه شهورًا من القتال وعددًا لا بأس به من الصرعى. على من يلومه أن يضع نفسه في موضعه.

كانت مشاكله تتفاقم بعد وفاة مكرم.

هذه المجتمعات العربية لم تتخلص بعد من مفهوم شيخ القبيلة، الذي هو الأب الحكيم الذي يعرف كل شيء. من دونه تضيع الدفة.. هذه مجتمعات لا تعمل تلقائيًا، وهو كان بحاجة إلى أن يصنع مجتمعًا ذاتي الحركة قادرًا على البقاء، وقد حدثت حالة انعدام وزن عامة بعد رحيل مكرم. هناك نوع من الاضطراب.. بل إن هناك حالات تمرد لا بأس بها. لقد جاء كثيرون هنا لأنهم يثقون بمكرم، أما وقد مات فقد بدأت الشكوك وتفشى الوهن.

قال له شاب من المغرب:

ـ «كان هناك دائمًا يُصلح أخطاءنا ويعالج خلافاتنا.. لقد عامل كثيرين منا بغلظة وقسوة، لكنها قسوة الأب الذي يبغي الخير لأولاده.. كنا جميعًا نفهم هذا».

وقال شاب من السودان:

ـ «الفكرة كانت في غياهب الظلام، ولم تخطر ببال أحد سواه.

إيجاد وطن قومي لعرب الشتات. هو وحده كان يعرف كيف ستسير الأمور.. والآن فقدنا البوصلة».

وقال شاب من فلسطين:

- «لقد غرس الرجل البذرة، لكن لم يطل به العمر كي يتعهدنا بالنمو».

الأب الذي يعرف كل شيء ويرعى الجميع.. هذه هي النقطة التي أراد سليم أن يتخلص منها بأي ثمن.

لكنه فشل في ذلك.. مثلما يصر كل ما يرتفع على أن يلبي نداء الجاذبية، فالعرب يصرون على أن يعودوا في كل مرة لعقيدة الأب الإله الذي يعرف كل شيء، ويسهر من أجل الجميع، ويرى الغد كما لا يراه أحد.

* * *

تسأله أمينة في رفق:

- «هل تحبني حقاً؟».

لثم يدها في رفق:

- «أحتاج لكِ بشدة».

- «أسأل عن الحب لا الاحتياج».

- «أريدكِ بشدة».

- «أسألك عن الحب لا الرغبة».

- «لا فارق بين الحب والاحتياج والرغبة».

قالت في شرود:

- «الحب هو ما يبقى بعد انفجار بركان الجنس وبعدما تُطفأ نيران الشهوة».

في نفاد صبر:
- «أنا لا أضيع وقتي في ألعاب الأنوثة اللفظية.. كل ما أعرفه هو أنني بعد انفجار بركان الجنس أريد أن تظلي بقربي، وأن أريح رأسي الثقيل على بطنك».
ثم أضاف بعد لحظة تفكير:
- «أنتِ واحتي».
ألقت برأسها على صدره ونظرت إلى رداء النجوم.. نجوم النصف الجنوبي من الكرة الأرضية الذي لا نراه أبدًا بهذا التنسيق والجلاء.
صدره يئز من فرط التدخين.. يسعل قليلًا.
تقول حالمة:
- «فلنتزوج».
قال وهو ينظر للسماء:
- «لا بد أن يتم هذا.. نحن بحاجة لأطفال كثيرين، لكن لا بد من إرجاء اللحظة. ليس في روحي فراغ كافٍ للعب دور الزوج».
- «أنت قلق».
- «أنا القلق يمشي على قدمين».
- «أنت طموح».
- «أنا الطموح لو تجسد في صورة بشر».
- «أنت خائف من العلاقات العاطفية».
- «جربت أن أخسر من أحب في لحظة.. لا أشتهي تكرار هذا المشهد».
ضحكت فاهتز صدرها وقالت همسًا:
- «هكذا تعترف بالحب.. لربما انتزعت منك الكلمات بالخديعة، لكنك في النهاية لفظتها».

لم يضحك.

كان ينظر إلى مُذنّب يعبر السماء بعيدًا.

لحظتها شعر بأنه ضئيل جدًّا وسخيف جدًّا. كيف افترض لحظة أن الفوز سيحالفه؟ المرء يتصرف بسذاجة أحيانًا.. لحظة من الوهن ثم أخذ شهيقًا عميقًا وقال لنفسه إنه الشخص المناسب في المكان المناسب.. سوف ينجح.. شآبيب ستكون دولة.

كان يعبث في شعرها مستشعرًا السلام الرطب الذي يبعثه وجود امرأة محبة. قال لنفسه إنه سوف يتزوجها حتمًا.. سوف يكافئها على لحظات النشوة والراحة التي منحتها له.

أما هي فكانت تدرك أنها تريح رأسها على بركان لا يختلف كثيرًا عن جبل الكواسر البادي في الأفق، فقط لم يثر جبل الكواسر من زمن، أما هذا فثورته واردة في كل لحظة. من الغريب أن هذا يجذبها له أكثر مما ينفرها منه. ثمة لذة خفية مثيرة في ملاعبة هذا الوحش الثائر الذي يهدأ ثم يثور.. وثورته ليست تجربة محببة أبدًا.

- «سميرة تعرف؟».

- «تعرف كل شيء.. كل كلامها تلميحات».

- «ورأيها فيَّ؟».

- «لا تحبك كثيرًا.. ككل زوج أُم في الواقع».

- «وهل تعرفين شيئًا عن شريف؟».

- «تلقى علقة ساخنة في الشارع.. كذا أخبرتني صديقة جاءت منذ أسبوعين. ضربه بعض المتعصبين وقالوا له لماذا لم تلحق بقومك أيها المتخلف؟».

- «وهل تعتقدين أنه آتٍ؟».

- «أرجو ألا يحدث هذا. الحياة لا تحتمل المزيد من التعقيد».
- «ولو جاء معنا غداً؟».
- «فليذهب حيث يريد.. أنا أعتبره غريباً».
ثم فكرت في أن هذا سيُحدث توترات هائلة في حياتها بلا شك.. لن يمر الأمر في سلام، ولسوف تكتشف سميرة فجأة أنها تحب أباها. من الخير لشريف أن يظل حيث هو مع أنصار «داجفين».
- «حياتي هنا منتظمة وأعتقد أنني سعيدة بها».
- «أنت واحتي».
قالها في الظلام فهمست:
- «وأنت.. أنت غدي».
قُرحتها قد نامت في سلام.

كان مسجد الفيروز الجديد يرتفع ببطء.

مساهمات المسلمين في الخارج ساهمت في بنائه بعد المسجد الصغير الأول، وكان في ذات الموضع الذي قيل إن المسجد القديم يحتله. بالواقع لم يكن هناك سوى اثنين أو ثلاثة يعرفون أنه لم يكن هناك مسجد هنا قط. بالطبع كان بروفيسور مرزوق عالم الآثار يعرف جيدًا الآن، لكنه لم يجسر على الكلام.

استمرت أمينة في التدريس، وكان تلاميذها يكبرون، كما أن الجيل الأول من الأطفال ولد في بابوا غينيا الجديدة.. هؤلاء هم المستقبل بالتأكيد.

كان سليم قد انتهى من عمل جواز سفر لشآبيب.. طبع في أستراليا لأنه لا توجد مطابع هنا. وإن كانوا بحاجة للاعتراف بهذه الدولة الوليدة أولًا وقبولها في الأمم المتحدة.

استعان سليم بأحد أساتذة العلوم السياسية والقانون الدولي ـ ألبير سعادة ـ ليسترشد به كي يعرف كيف تصير دولة معترفًا بها. طبعا لا بد أن تستتبع هذه الخطوة وجود سفارات. المهم ألا تتوسع لدرجة تهدد الجزء الإندونيسي من الجزيرة. وقد وضع له سعادة خارطة طريق من ٨ خطوات.

استعان كذلك بخبير جيولوجي ليضع خطة للتنقيب عن الألمنيوم.. لا بد أن تبدأ صناعة ألمنيوم يسمح بالتصدير هنا.

بدأت المجتمعات الزراعية تزدهر. إن الجزيرة خصبة بشكل لا يوصف.. وبدأ التصدير.

كانت أمينة تقف عند الشاطئ تراقب عملية تحميل سفينة بإنتاج

المستعمرات من الموز، وكان العمال من الأهالي يتعاونون مع العرب.. بعضهم كان يغني بالعربية التي بدأ يتعلمها.

ملحمة الأجساد القوية التي عمرها العرق.. تلمع في ضوء الشمس.

ملحمة الإرادة لقوم يشعرون أنهم يصنعون المستقبل بأيديهم.

فجأة سمعت صخبًا وضوضاء وشتائم.. كراهية تتبعثر في الجو.. ثم رأت رجالًا يتبادلون اللكمات والسباب.. رأت دمًا ونصلًا يلمع.. ثم رأت جسدين على الأرض.

لم تكن هناك شرطة في شآبيب بعد، لأن التفاهم كان تامًّا ولا أحد يملك ثروة أو نفوذًا، لهذا كانوا يعتمدون على العقلاء بينهم ليلعبوا دور الشرطة.. وقد تدخل هؤلاء العقلاء ليفصلوا بين المتعاركين، واضطروا لاستخدام العنف.

من مكان ما وسط الزحام والغبار، ظهر مصطفى المطرب قصير القامة صديق الأسرة قديمًا، وراح يضرب كفًّا بكف..

سألته عما هنالك فقال في حسرة:

ـ «العمال القادمون من أوروبا يتشاجرون مع العمال القادمين من إفريقيا.. الكل عرب، لكن هناك عربًا يعتبرون أنفسهم في مكانة أعلى.. عربًا أكثر من سواهم... حدث احتقان وشجار أدى لمقتل عربيين».

هل داء الاقتتال العربي/ العربي قد وصل إلى هذه الأرض البكر؟ سيكون ذلك تعسًا جدًّا لو حدث. تستبعد ذلك لأنه أسوأ من أن يقع.

- «بعض العرب يستعين بحلفاء من الأهالي لتحقيق النصر على الخصوم».

الأمور صارت أعقد مع الوقت.

لم يكن يمر من دون مشاجرة لأسباب دينية أو عِرقية.. ومع الوقت اضطر سليم لتكوين قوة شرطة لحفظ الأمن.. الغريب أن المشادات لم تكن تمس الأهالي، كانت تمس العرب فقط.. ومع الوقت سقط عشرون قتيلًا لأسباب متعددة.

ثم جاء اليوم الذي جاء فيه بعض الشباب إلى سليم يطالبون بتسليمهم المسجد، فهم أحق به وبإدارته من أي شخص آخر. لم يكن مستعدًّا لقبول هذا.

الكلام عن تطبيق الشريعة بدأ ينتشر بين الشباب هنا، ولم يكن يرى أن الوقت مناسب لهذا الجدل. فلتكن هناك دولة أولًا ثم نتكلم عن نوعية الحكم.

كان يرى المستقبل القريب دكتاتورية ينفرد بها وحده حتى تستقر الأمور، ثم هي ليبرالية وديمقراطية بعد ذلك.. لم يكن يعرف معنى «ثيوقراطية»، لكنه كان بفطرته ضد الدولة الدينية.

عندما يعتقد البعض أنهم يتكلمون بلسان السماء فالنقاش معهم مستحيل.. ولسوف يتحول المجتمع إلى فِرق تعتقد كل فرقة أنها وريثة الرب في الأرض.. لقد أهلك هذا مجتمعاتنا سابقًا ولسوف يوهن مجتمعنا الوليد.

كانت هناك كذلك حالات عنف ضد الأجانب بين المهاجرين.. لم تكن زوجة محمد عدنان هي الأخيرة.

* * *

جاء اليوم الذي أعلن فيه سليم عن إلقاء خطاب.

المكان المختار لإلقاء الخطابات هو دائمًا النصب المجاور لمقبرة مكرم. بالطبع لم تكن هناك وسائل إعلام تنشر الخطاب، لذا كانوا يعتمدون على النقل الشفوي للمعسكرات المجاورة. برغم هذا كان هناك من يسجل الخطاب بكاميرا فيديو. يومًا ما لربما تصير هذه لقطات تاريخية باهظة الثمن.

كان هذا وقت الغروب والشمس منهكة بعد صراع يوم طويل، فانحدرت خلف جبل الكواسر. الجو له رائحة حزينة رمادية تنذر بفاجعة قادمة. وقبل أن ينطق حرفًا من الخطاب أيقن الجميع أنه خطاب محزون كئيب. وشعرت أمينة بقلبها يرتجف.

وقف سليم ساكنًا وهو ينظر للوجوه كاسف البال، ثم ابتلع ريقه وتنفس في عمق.. قال:

- «هذه لحظة قاسية على نفسي.. لا يمكن القول إنني سعيد أو إنني كنت أتوقع أن أقف هذه الوقفة. لقد ضاعت حضارتنا العربية فيما سبق بسبب رفض الآخر وتصفية الحسابات والاقتتال العربي/ العربي.. كان العالم كله يتحرك ونحن مصممون على تصفية حساباتنا أولًا، ولم نخرج من تلك اللحظة قط.. صراع بين أتباع الأديان السماوية.. ثم صراع بين أتباع الدين الواحد.. صراع بين البيض والسُّمر.. صراع بين الأغنياء والفقراء.. صراع بين الجنوبيين والشماليين.. صراع بين مشجعي فِرق الكرة».

ثم شرب جرعة ماء من زجاجة يحملها وقال:

- «عندما جئنا هنا حسبت أننا سنبدأ صفحة جديدة من الصفر.. وتوليت القيادة بعد الزعيم لأنني لمحت دورًا أكيدًا يمكن أن ألعبه. ظننت هذه الخلافات العِرقية بعيدة عنا، وأن أمامنا هدفًا

واحدًا هو أن تكون «شآييب» دولة.. لكنكم أخرجتم مَعاوِلكم لتضربوا بعضكم بعضًا، وهذه المعاول انهالت على دولتنا الوليدة».

صاح أحد الواقفين في عصبية:

- «لم نكن مَن بدأ.. هؤلاء المتغطرسون القادمون من شمال أوروبا هم الذين...».

قاطعه سليم في حزم:

- «أنا من إفريقيا.. كنت في ليبيريا وقد قتل المتعصبون زوجتي وطفلي أمام عيني.. لهذا صممت أن أصنع دولتي الخاصة على سبيل الانتقام.. ولهذا أضع يدي في يد القادم من الشمال، وفي يد من يخالفني في الدين واللون ما دام عربيًّا مثلي».

من جديد تعالى صوت مهاجر آخر مبحوح النبرات:

- «أنا وهو عربيان مسلمان ولدنا في فرنسا ولنا نفس اللون.. لكننا مختلفان في الرأي، والنتيجة هي أنه ضربني بهراوة أمس».

- «كفى».

صاح سليم في عصبية وعيناه تتقدان نارًا:

- «كفى! القبائل تترصد بنا ويرقصون رقصات الحرب كي يفتكوا بنا انتقامًا.. وهناك جبل من التحديات، بينما أنتم تضيعون الوقت في هذا السخف».

ثم لوح بإصبعه مهددًا:

- «سيكون عقابي شديدًا لو عاد هذا الهراء ليفسد مجتمعنا».

كانت أمينة تراقب هذا كله وتفكر.. من الواضح أن الخلاف والانقسام بدآ يتسربان إلى هؤلاء المهاجرين.. مشكلة العرب الدائمة هي أنهم لا ينتظرون حتى يثبتوا أقدامهم على أرض إلا ويبدءون

الخلاف.. ومن ثغرات الخلاف يتسرب الخصوم ليقهروهم.. السيناريو الممل الذي لا يكف عن التكرار.

* * *

انتهت صلاة الفجر.

من مسجد الفيروز خرج المصلون.. كان عددهم نحو الثلاثين، وكان هواء الفجر الأزرق يتسلل إلى الصدور، ويداعب العيون التي ما زال النعاس يفعمها.

مع الوقت تزايد المصلون في مسجد الفيروز الجديد برغم أنه ما زال تحت الإنشاء. وكانت صلاة الفجر تميز النواة الصلبة المحيطة بأبي منذر السوري، لأن متوسطي التدين كانوا يفضلون النوم في هذه الساعات.. هناك تراه في الوسط.. يضع الغطرة على رأسه بلا عقال، وله لحية حمراء مشعثة ونظرات ثاقبة قوية. يلبس جلبابًا أسود معظم الوقت. برغم تأثيره الساحق كان ضئيل القامة مثل مكرم. وكأن قد اعتاد أمور الدعوة منذ كان في بريطانيا؛ لذا صار هذا هو موضعه الطبيعي وسط الناس.. حتى على هذه المسافة يمكنك أن تشم العطر القوي الذي تضمخ منه، وكان العطر ترفًا لا يمارسه المهاجرون هنا طبعًا.

لا يكف أبو منذر السوري عن المطالبة بإقامة دولة الخلافة وتجييش الجيوش.. ضد من؟ ضد العالم كله.. ثم لا يكف عن الكلام عن تطبيق الشريعة، وله قدرة إقناع هائلة مع كاريزما من التي يتمتع بها القادة الناجحون.

بالنسبة للنواة الصلبة فإن تعريف الحق هو ما أقر به أبو منذر السوري، والباطل هو كل ما نهى عنه. لم يكن هناك علماء حقيقيون من حوله وإنما دَهْماء منبهرون يعتبرون أنه مقدس. وكان يكلم الناس

ليُرضي نظرية المؤامرة في دمهم.. يعرف بالضبط ما يروق للناس ويثير اهتمامهم. هناك حالة كراهية مزمنة للعالم الخارجي ورفض له.. العالم الذي قرر أن يبيد الإسلام وينصر الصليبية واليهودية. أن يعلن المرء الحرب على العالم لهو عمل طموح.. ومن قال إن أبا منذر ليس طموحًا؟

في سوريا كان سراج صالح مهندسًا مدنيًا ثم دفعه اضطهاد الإخوان المسلمين إلى الفرار إلى بريطانيا. هناك بدأت فلسفته الرافضة للمجتمع المولعة بالقتال تتشكل.

أدرك مكرم منذ البداية أن هذا الرجل خطر، وبعدها أدرك سليم الشيء ذاته.. وقد قال مكرم مرارًا إن التطرف الديني لا يزول أبدًا متى وُلد.. إنه ينكمش ثم يظهر في مكان آخر ويتمدد. وكالعادة يطالب بكل شيء.. ليس على استعداد للتعايش مع الآخر أو قبوله، أو حتى تقسيم الحكم.

كان أبو منذر واقفًا مع رجلين في ضوء الغبشة والنهار الذي بدأ يزحف. كانوا يقفون جوار جدار من القرميد ضمن عمليات استكمال المسجد.

يقول الرجل الأول، وهو يمنيّ، إنه سمع صوت خطوات وسعلة خلف الجدار.

يقول الرجل الثاني، وهو عراقي، إنه سمع صوت الرمح وهو يخترق ضلوع أبي منذر السوري.

لم يصرخ أبو منذر أو يئن كما في السينما، وإنما سقط على الأرض والرمح بين ضلوعه ولم ينبس ببنت شفة.. وسرعان ما انتشرت بِركة دم استطاعا شم رائحتها الزفرة القوية في هواء الفجر النقي.

هرع الرجلان خلف جدار القرميد فرأيا رجلين من الوطنيين عاريَي الجذع يركضان مبتعدين نحو حزام الأشجار. حاولا اللحاق

بهما لكن أقدامهما تعثرت في فخ من فخاخ الجزيرة على شكل حبال مجدولة معقدة.

عندما جاءت النجدة كان من الصعب أن تجد القاتلين وسط كل هذا الدغل.

ركع أحدهم جوار أبي منذر وأغمض عينيه الشاخصتين:

- «نحسبه عند الله شهيدًا.. قتله الكفار».

ثم غطوا الجثة بأقمشة ممزقة، ونصح ناصح بألا يقوموا بتغسيله. لقد كفت عيناه عن إطلاق الشرر وكف فمه عن إطلاق التهديدات والتحذير من الويل. لحيته الحمراء تبعثرت، كأن الحياة كانت تبقيها منسقة. لماذا قتله الوطنيون؟ هو ليس من الوجوه البارزة في المعارك وليس من القادة. من الصعب أن يكون الوطنيون قد توصلوا إلى معرفة مراكز التأثير الفكري وسط هذا المجتمع.

- «قتلوه مثل مكرم».

- «لم يحسنوا اختيار ضحيتهم».

هنا تدخل أحد شاهدي الحادث وقال:

- «لست ميالًا إلى اتهام البدائيين بما حدث.. ما كانوا ليعرفوا من هو أو قيمته لدينا.. ما يعرفونه لا يكفي لهذه الخطوة الجريئة الانتحارية، ثم إن المدينة صارت محروسة جيدًا بنطاق من الحراس اليقظين».

- «ماذا تعنيه؟ هل تتهم...؟».

- «نعم.. لقد أرادوا الخلاص من أبي منذر، لأن في فمه قولة الحق. هناك من تَزيًّا بزي البدائيين وتوارى في الظلام قرب الفجر وتأهب لطعنة الغدر برمح وطني».

كلما أمعنوا التفكير بدا لهم هذا أقرب للمنطق.

الوطنيون لن يجنوا فائدة تذكر من قتل أبي منذر.. لكن سليم والعلمانيين الذين يمسكون بمقاليد الأمر سوف يجدون كل الفائدة في هذا.. الخلاص من مصدر معارضة مزعج، مصدر معارضة يتكلم بلغة المطلق ولا يقبل أنصاف الحلول، ويسخر من لعبة السياسة.

حتى أمينة عندما سمعت عن هذا الاغتيال راح فكرها تلقائيًا نحو سليم.. ليس من الطراز الذي يفعل هذا؟ للأسف هو فعلًا من الطراز الذي يفعل هذا، وهو مستعد لسحق أي شخص يقف عقبة في طريقه.. هو يكره الثيوقراطية والدولة الدينية التي يرى أنها ستفسد كل شيء، وهو يكره أبا منذر بشدة.

قال أحد الواقفين حول الجثة والذين تلطخت أناملهم بالدم:

- «كيف لنا أن نثبت هذه النظرية؟».

- «لا توجد طريقة.. كان علينا أن نقبض على الفاعلين، ورهاني أنهما كانا عربيين».

ساد الصمت ثم همس أحدهم:

- «لنبايعن إمامًا آخر.. ولربما يصير أميرًا آخر على أن نحميه بأرواحنا وقلوبنا».

ألا رحم الله أبا منذر السوري.

* * *

وقف سليم يرقب اللنش الصغير الذي سينقل أرملة مكرم وابنتيها إلى السفينة الأمريكية. تتقدم السيدة وقد أخفت وجهها في عوينات سود وإيشارب كعادتها، وهي تحمل حقيبة كبيرة.. كل واحدة من البنات كانت تحمل حقيبة، وهناك عند الشط استدارت له حيث وقف، وبدا الامتنان على وجهها أو ما بقي منه وسط كل هذه الأقنعة.. عندما تضع المرأة عوينات سودًا كبيرة فكل ما تملكه من عضلاتِ تعبيرٍ هو ركنا فمها.

ـ «شكرًا لك.. كنت مترددة بصدد طلبي، ولو كان مكرم مكانك لرفض».

قال بشفتين جافتين متشققتين:

ـ «هو ليس مكاني لحسن الحظ».

هواء البحر المالح يُطير الإيشارب ويوشك على أن يداعب ثوبها، فتمسكه بكفها وتقول:

ـ «أرجو لك التوفيق.. مهمتك صعبة جدًّا».

ـ «لقد بدأت الرحلة ولا يوجد ما يجعلها تتوقف».

قالت في كياسة:

ـ «أنت تحارب من أجل وهْم.. أعرف أنك تعرف هذا يقينًا. تحويل الوهم إلى واقعٍ عملية عسيرة لا تختلف عن تحويل التراب إلى تبر».

لم تكن هذه المرة الأولى.. لقد سمع هذا الكلام مرارًا وكان يرفضه في عناد.. قال لها:

ـ «ليس وهمًا.. أنا مؤمن بأننا كنا هنا.. وعلى كل حال لقد صار وجودنا حقيقة ملموسة لا يمكن الشك فيها. أرجو لك التوفيق في الولايات».

منعه الأدب من أن يقول لها: مالك بكل هذا؟ لماذا لا تهتمين بمصيرك في البلد الذي تعودين له؟ هبينا مجانين أو بُلهاء أو مضللين.. لا يهم.

ضمت الإيشارب على عنقها وقالت:

ـ «يومًا ما ستساعدني على نقل رفات مكرم ليدفن في الولايات جواري».

في حدة:

ـ «أما هذا فلا.. مكرم لا يخصك، بل هو يخص هذا المجتمع بالكامل.. أطفاله وشبابه ونساءه وشيوخه.. إن رفاته رمز يُبقينا متماسكين.. لم يعد من حقك طلب كهذا».

كانت تمسك بكيس من البلاستيك ملأته بالغبار الذي جمعته عند القبر. كأنها كانت تتوقع الرفض.

صافحته من دون كلام ثم بدأت تخطو فوق لوح الخشب الذي وضعوه لها كي لا تبتل قدماها. وسرعان ما كانت تلوح له في اللنش بينما تعالى هدير المحرك.. وأفرغ اللنش الزبد الأبيض على مياه المحيط بينما هو يبتعد.

التفت سليم نحو ضريح مكرم البادي كنقطة في الأفق خلفه وهمس:

ـ «ما زلنا هنا يا مكرم.. لن نتخلى عن حلمك».

* * *

وهناك في الكهف الذي يقع عند حدود الغابة الجنوبية.

هناك يجتمع خمسة من الشباب حول محمود راغب، وقد أشعلوا جذوة من النار في بعض الحطب فتصاعد دخان كثيف.. ثمة دخان يتصاعد إلى المدخنة الطبيعية في الكهف. النار تلقي بظلال عملاقة راقصة على الجدران.

قال لهم محمود واللهب يلتمع على قسماته الصلبة:

ـ «شآبيب حقيقة.. أنتم في الطريق الصحيح».

الصدى يجعل للكلمات رهبة.. كأنها صلوات فرعونية قديمة.

قال أحد الشباب من تحت شاربه الغليظ:

ـ «كل شيء يشي بأنها كذبة.. لم نجد أي أثر يدل على أننا كنا

هنا. حضارة كاملة لم تترك أثرًا في كتب المؤرخين ولا تحت التراب ولا على جدران الكهوف».

ـ «لأن هناك من حرص على محو كل آثارها».

قال شاب آخر:

ـ «هي أكذوبة جوبلزية عملاقة. لقد أجاد مكرم إشعال روح الشوفينية والشعبوية فينا.. تورطنا في أكذوبة عملاقة... ولم يبق سوى أن نثور ونعود للبلاد التي جئنا منها، أو نستمر في طريق زائف».

يبدو أن أبيات محمود الحماسية بدأت تفقد تأثيرها السحري.

ـ «ولماذا تثورون؟ فلترحلوا دون ضوضاء».

ـ «لأن سليمًا لن يسمح لأحد بالعودة من دون قتال».

كان هذا هو الميلاد الأول لجماعة المتشككين الذين راحوا يرتابون في الأمر كله، وبدأ عددهم يتزايد مع الوقت.. كانوا يحملون أسئلتهم ويلوذون بالصمت، فلا يتبادلون هذه الآراء إلا عندما يقابلون من هم منهم.

عامة كان الشباب هم الأكثر تشككًا.

وجاء اليوم الذي احتك فيه أحدهم بسليم.

سليم كان يصدر بعض الأوامر لفريق من البنائين، فرفض أحدهم الأمر في استخفاف.. كرر سليم الطلب فقال البنّاء المتمرد:

ـ «وما جدوى ذلك؟ أنت تعرف أنه لا جدوى منه».

ـ «ماذا تقصد؟».

ـ «البناء على وهم.. هذا ما نفعله».

لم يرد سليم.. نظر للفتى نظرة نارية حارقة، ثم ابتعد.

دنت منه أمينة فربتت على ساعده وقالت:

ـ «هم كثير.. بعد فترة بدءوا يشعرون بالخديعة.. لربما كان التاريخ خطأ.. لربما لم نوجد هنا قط».

صاح في عصبية:

ـ «هل اكتشفوا هذا كله بعد كل هذا البناء والجهد؟ بعدما صارت لنا دولة وليدة؟».

ـ «ما بُني على وهْم فهو وهْم».

ـ «وأنتِ كذلك تقولين هذا؟».

ابتلعت ريقها. لا تحب أن تستفزه فهي تحبه بحق... قالت في كياسة وهي تتحسس كل كلمة:

ـ «كان إيماني بكتاب مكرم مطلقًا.. كنت أصدق كل حرف لدرجة البكاء، لكن مع الوقت صرت أتساءل.. شأن المؤمن الذي يتسرب الإلحاد لنفسه عندما لا يجد علامة واضحة من الله. أنا كنت أبحث عن علامة واضحة على أننا كنا هنا.. لم أجد سوى بعض الآنية الخزفية لا تدل على شيء.. ليس لنا أثر فوق الأرض ولا تحتها ولا في كتب المؤرخين.. لولا إيمانك بالفكرة لقلت إننا تنكّبنا الطريق».

قال في عصبية:

ـ «أنت صدقت عندما شبهت الأمر بالكفر.. إنها لردة.. لقد فقدوا إيمانهم، لكني سأعرف كيف أعيدهم لحظيرتي كما عاد الابن الضال. سيكون انتقامي مخيفًا من المتخاذلين والمتشككين.. كل من يظهر التخاذل سوف ينال عقابي القاسي. إنهم المرتدون بشكل أو بآخر وعليَّ الخلاص منهم كأي مؤمن».

ثم أشار لها:

ـ «وأنتِ لستِ استثناء».

كان وجهه قناعًا ملتصقًا بالعظام من الغضب والقسوة.. أدركت على الفور أنها لا تستطيع الوصول إليه وسط استحواذ الفكرة عليه وخشيته من ضياعها. أليس من الحق أننا ندمر دائمًا الشيء الذي نحبه أكثر من سواه؟

كان عليها أن تصمت.

الأيام التالية كانت قاسية.. فوضى لها خليط من الأسباب بدأت تنشب في المستعمرة. لم يعد الجميع على قلب رجل واحد كما كانوا. المتشككون.. المتعصبون.. غلاة الأصوليين.. غلاة العروبيين.. اليائسون.. المجانين.

كل هذه الفِرق عليك أن تقضي عليها أو تذيبها في الكل.

كأنما شاءت الجيولوجيا أن تعبر عن كل هذا الاضطراب والارتباك والتشاحن.. عندما تتزلزل الأرض تحت الأقدام فهذا ليس مجازًا.. إنها الحقيقة. عندما يفعم الغل الصدور فإن هذا ليس مجازًا.. الدخان الأخضر يتسرب للرئات ويحرق العيون.

عندما بدأت الاهتزازات الطفيفة في الأرض تحت الأقدام، توتر الجميع.. ووقفوا يتبادلون النظرات.. عملاق غافٍ تحت الأرض يرى كوابيس مزعجة ويحك رأسه منذرًا بالنهوض.

للحظة تصلب الجميع مذعورين، وتسربت حالة من الهستيريا إلى الواقفين. بكى الأطفال وتشنجت النساء.

قال سليم بصوت عال:

ـ «هذا متوقع.. إن الزلازل أمر مألوف هنا.. نحن في حزام زلازل، بل إن الجزيرة منطقة تسونامي معروفة».

ثم جلس على الأرض وصاح بصوت مبحوح:

ـ «إن هي إلا لحظات سريعة مرعبة وينتهي كل شيء».

لا يبدو أنها ستنتهي بهذه البساطة.. الاهتزازات عنيفة جدًّا، وقد استمرت فترة أطول من اللازم.. ثمة شيء خطأ.

أما منصور أحمد؛ العالم الجيولوجي العربي، الذي كان يعمل مع هيئة يابانية مهمة قبل المجيء إلى شآبيب، فقد قال في قلق:

ـ «لا أفكر في زلزال.. لا تنسَ أن هذه جزيرة بركانية.. أنا أفكر في البركان الخامد.. جاواتامي العجوز.. يبدو أنه قرر النهوض من جديد».

ـ «هنا والآن؟ بعد غفوة قرون؟».

ـ «لا بد لكل بركان من لحظة يصحو فيها.. تمتاز البراكين عن الزلازل بأنها تعطي فترة إنذار وأن سلوكها يمكن التنبؤ به».

من جديد ساد القلق.. أن تنتظر وأنت لا تعرف ما يجب عمله.

قال سليم لنفسه إن الحظ العاثر يلاحق المهاجرين.. ليس هذا أنسب وقت ليثور البركان. ما خافه الحارث منذ قرون يتحقق اليوم.

لسنا بحاجة لمزيد من المشاكل في مجتمع مخلخل أصلًا، لم يغرس جذوره في التربة.

في الصباح كان البخار الأخضر يملأ المكان.. بصعوبة ترى قدميك والأرض.. بخار يحرق العينين ومن الواضح أنه من أول أو ثاني أكسيد الكبريت.. التنفس عسير والسعال لا يتوقف. المصابون بالربو لاقوا ألعن ساعات حياتهم.

راح القوم يتصايحون.. ماذا يحدث؟ هل هي القيامة؟ هل هذا هو الضباب الذي هو من علامات الساعة؟ هل يلي هذا شروق الشمس من المغرب؟

كانت الأرض ترتج تحت الأقدام عندما اجتمع مجلس الحكماء من جديد. كان منصور الجيولوجي هو الشخص الأبرز فيه. لقد وقف مطرقًا للحظات، ثم صاح في الجلوس المذعورين:

- «هذا هو النذير.. الغاز والبخار اللذان يسبقان انفجار البراكين.. إن البركان يمنحنا أسبوعًا».

تعالى الهمس المسموع وتعالت ضوضاء الجدل، ثم نهض سليم بدوره ليوجه له السؤال:

- «أسبوعًا لماذا؟».
- «لمغادرة الجزيرة».
- «ولو لم يحدث؟».
- «سينفجر البركان.. ستسيل الحمم لتغمر كل شيء وتغرقنا.. ستذوب قُرانا ومبانينا وأجسادنا... ستغمر الحمم أراضينا.. سنحترق إلى رماد في النار السائلة».

هنا دق الهاتف المحمول الخاص بسليم.. وهو من الهواتف النادرة في الجزيرة، ويتصل بالقمر الصناعي مباشرة.

نهض ليظفر بسماع أفضل، وغادر خيمة الاجتماعات.
هناك في الخارج وقف يصغي دون كلام.
لا شك أن هذا «جوناثان»، وهو يخبره بالتطورات كما رصدها الجيولوجيون والأقمار الصناعية.. «شآبيب» سوف تتحول إلى حمم ذائبة خلال أيام.
قال سليم في حزم:
- «لا مشكلة.. سوف نزحف إلى الجانب الآخر من الجزيرة..
الجانب الإندونيسي.. ثم ننتظر حتى يهدأ البركان بعدها نعود..
هكذا عاش هؤلاء القوم من خمسين ألف سنة».
جاء صوت «جوناثان» المفعم بالأسف:
- «الجانب الآخر يتعرض لموجات تسونامي قوية.. هناك زلزال في المحيط كرد فعل على ثورة البركان.. ما أراه هو أن مشروعكم لا يمكن أن يستمر حاليًا».
أغلق سليم الهاتف وعاد إلى الخيمة. كان وجهه ينطق بالأخبار الجديدة، وللمرة الأولى بدا عاجزًا عن الكلام وخاليًا من الانفعال. النار المجنونة في عينيه انطفأت.
نظر له الحكماء الجالسون متسائلين عما هنالك، فقال بصوت مبحوح:
- «يبدو أن هذه آخر أيام شآبيب».

* * *

كان الكل يسعل والكل محتقن العينين.
الكل مذعور تتقلص أحشاؤه.
الكل متأهب لافتراس من يعترض طريقه.

«نرحل!».
- «وما بنيناه؟ ومزارعنا وبناياتنا؟».
- «سوف نبني كل شيء من جديد».
كان الحشد يمتد للأفق، وقد أصغى الجميع لما يقال وسط السعلات.. وكان هناك أكثر من واحد ينقل الكلام للصفوف الخلفية على طريقة صلاة الجماعة.
قال سليم موجهًا الكلام لمنصور:
- «وهل تقترح شيئًا آخر؟».
قال منصور:
- «بالتأكيد سوف تصل سفن الأسطول لتجلي الجزيرة.. أقترح أن تترك للناس الخيار.. من أراد أن يبقى هنا فليبقَ، ومن أراد الرحيل فليرحل.. لا ترغم أحدًا على شيء».
اعتلى سليم ربوة مجاورة لضريح مكرم.. ترنح قليلًا وسط الضباب حتى بدا كشبح لا تتبين معالمه، وسعل عدة مرات.. ثم ضم كفيه أمام فمه كمكبر صوت وصاح في الحشود المذكورة:
- «أنا لن أرحل.. سوف أزحف إلى الجانب الآخر من الجزيرة وأقاوم الأعاصير وأظل حيًّا.. عندما يهدأ البركان سنبدأ من جديد. من ير ما أراه فليدن وليقف عن يميني».
تعالت الضوضاء والصخب.
الكل يتكلم في آن واحد.
البخار الأخضر كان يتصاعد لعنان السماء، والرائحة تخنق الصدور، بينما الهزات الأرضية تتزايد.. من البركان تصدر أصوات تذكرك بالرعود.
يوم قيامة مصغر، ولسوف تغدو الجبال كالعهن المنفوش.

الكل ذاهل عن صاحبته وبنيه.

لا مجال لأن يفرض البقاء على أحد.. لو أصر فلسوف يمزقونه. إن الثورة بادية في العيون. وحين نظر عن اليمين لم ير أحدًا هناك. بدا أن هذه البقعة الوحيدة التي صمم الزحام على أن يتجنبها. بقعة الملعونين الذين يريدون الموت.. عندها عرف أن مشروع شآبيب قد فشل.

* * *

الضباب يتسرب إلى الكوخ، وهو يشعل لفافة تبغ برغم هذا. كأنه يريد أن يمزج رائحة الضباب الكبريتي برائحة النيكوتين. جلس إلى المنضدة وصب لنفسه كوب ماء.. يتأمل مئات الخرائط والجداول التي وضعها مكرم ثم وضعها هو. في ركن الكوخ موقد بريموس يعد عليه بعض الشاي، وهناك عدة علب تبغ معظمها فارغ.

عقد أنامله تحت ذقنه وراح يفكر في عمق.

هنا انفتح الباب.. يمكنه أن يميز السلويت المميز لأمينة، وكان يعرف أنها قادمة لتقول له الكلمات التي لا بد أن تقولها:

ـ «أنا أحبك».

قولي شيئًا جديدًا يا امرأة. أنا أعرف أنكِ تهيمين بي حبًّا.. في الواقع أنا كذلك لا أقدر على الاستغناء عنك.. تُرى لماذا تنوين الرحيل وتركي؟ أنتِ لم تقوليها، لكني أعرف ذلك يقينًا.

اقتربت منه شاحبة مرهقة، وقد نسيت أن تضع الحجاب، فبدا شعرها مبعثرًا مهملًا.. لا بد أنها شاخت عشرة أعوام في هذا الأسبوع.

ربتت على كتفه ثم جذبت مقعدًا متداعيًا لتجلس عليه، وقالت بصوت مبحوح:

ـ «أعرف أنك ستحاول أن تبقى».

ـ «هذا أكيد».

ـ «ومهمتي منعك من ذلك».

ـ «مستحيل».

بالله عليك، ما الذي تحاول أن تبرهن عليه؟ لقد فشلت التجربة كما هو واضح، على الأقل للفترة القادمة.. لربما تعود للحياة بعد مائة عام، لكنها لم تُخلق لتبعث في حياتنا.. لن يستفيد أحد شيئًا من زيادة عدد الشهداء.

قالت له في صبر:

ـ «أنت تعرف جيدًا أنني من أوائل من آمنوا بهذا المكان، وصدقت كل حرف في الكتب، لكن عندما جئت هنا بدأت يومًا بعد يوم أدرك أنها خدعة قاسية.. نحن لم نوجد هنا قط. كل شيء يشي بذلك.. وكان من الممكن أن أحتفظ بتصديقي لهذا الوهم وأنوم نفسي مغناطيسيًّا وأستمر، لكن بعد هذه التغيرات الجيولوجية جاءت الكلمة العليا.. لن نستمر هنا».

كاد يتكلم، لكنها أخرسته بقُبلة على يده الخشنة وهمست:

ـ «سنعود أنا وأنت للعالم الخارجي، ولسوف نبدأ بداية جديدة».

نهض متثاقلًا واتجه إلى النافذة المطلة على الشط.. المشهد قد صار عسير الرؤية بسبب البخار.. الاهتزازات مستمرة. كأنها موسيقى تصويرية لفيلم رعب ينذر بدنو الوحش!

أطلق سحابة دخان كثيفة وقال:

ـ «هنا بدايتي الجديدة.. ولست مستعدًّا للبدء في مكان آخر. لقد

بذرت أحلامي وطموحاتي وآلامي في هذه الأرض، ولم يعد لديَّ سوى أن أنتظر الجَنْي».

ـ «أنا أحبك».

ـ «وأنا كذلك.. لكني أحببتكِ كما أنتِ هنا، ملوثة بالرمال والعرق والطموح.. أحببتكِ في جو المستعمرات والبعوض يحوم حولنا، والحلم بغدٍ جديد نبنيه معًا. لا شك أننا لو التقينا في أوسلو أو مونروفيا لما استلفت أحدنا نظر الآخر».

ثم غطى جبهته بساعده:

ـ «أعرف أنني لن أستطيع أن أحبكِ في أي بلد آخر وفي أي ظروف أخرى».

كانت تعرف معظم ما سيقوله، كما كان هو يعرف ما ستقوله، لكنها واصلت أداء دورها:

ـ «أنت تطلب مني أن أموت محترقة هنا مع ابنتي. لولا واجبي نحوها لبقيت معك، لكن ليس من حقي أن أقرر مصير شبابها الغض. لا أريد أن تلعنني يومًا».

ـ «لم أطلب منكِ أي شيء على الإطلاق.. يمكنكِ الرحيل في أي وقت، لكن لا تحاولي أن تثنيني عن عزمي. للأسف قراري لن يتغير كالقدر نفسه».

شهقتْ.. وصممت على ألا تبكي. الاختيار بين حياتك وحياة ابنتك وبين الحب الوحيد الحقيقي. في هذه الظروف ومع امرأة متزنة ناضجة مثلها، فلا بد أن يخسر الحب اللعبة.

ـ «أنت تكره ألا تكون عنيدًا صعب المراس».

ـ «لربما.. لربما أحببت دور الثور الغاضب.. إنه يليق بي».

ساد الصمت.. أنفاس ثقيلة.. هزات أرضية.. دخان.

سألها:

ـ «هل أعددتِ كل شيء؟».

ـ «نعم».

ـ «ومتى الرحيل؟».

ـ «هناك سفينة أمريكية قادمة بعد غد. لقد سجلت اسمي على متنها».

ـ «كل واحد مسئول عن قراره.. المهم ألا يندم بعدها».

عادت تكرر في لهجة متوسلة:

ـ «شآبيب أكذوبة مبهرجة.. أنت تعرف هذا كله.. أتوسل إليك أن تلحق بي».

ـ «لكنها وهْم وضع قدميه على بداية الطريق.. وهْم بِعته حياتي وغَدي».

لا تدري متى ولا كيف وجدت نفسها بين ذراعيه.. كان يلثم عنقها في حرارة، وكانت هي تقول لنفسها إنها المرة الأخيرة.. لو أستطيع التغلغل في مسامك.. لو أدخل خلاياك.. لو أسجنك بين الضلوع للأبد.

سليم......أنتَ رجُلي.

همس وهو يلهث:

ـ «الوطنيون لم يقتلوا أبا منذر السوري».

اعتراف لم يعد له من داع ولا يعنيها في شيء..

فُرحتها تصحو من جديد لتحرق جوفها بالنيران، فيما بعد سوف تقيء دمًا لعدة ساعات، لكن هذا لا يهم الآن.

* * *

البحر مليء بالسفن.. يشبه الأمر صورة يوم الغزو (اليوم ي) التي تراها في أفلام الحرب العالمية الثانية، قبل عملية الإنزال على نورماندي، لكن هنا يختلف الأمر.. لا يوجد إنزال بل «إركاب»!

من وقت لآخر يمر سرب من الطائرات في السماء، أو تُحلق طائرة هليكوبتر متبخترة حول الرءوس.. لو دقَّقت البصر لرأيت من يصوب كاميرا يصور بها المشهد المهيب.

السفن من جنسيات مختلفة، وغبار البركان يتصاعد إلى عنان السماء حتى إن الليل بدأ يحل سريعًا.. رائحة الكبريت هذه.. الأرض تزوم غضبَى تحت قدميك.

ـ «أسرعوا».

صفوف من العرب تتجه إلى صنادل سوف تنقلهم إلى السفن.. نساء.. أطفال يبكون.

على الأرجح سيتم نقلهم إلى جزر سليمان القريبة لفترةٍ إلى أن يهمد البركان.. فم الطبيعة الغاضب المتوحش الذي لا يكف عن قذف الشتائم.

المشهد درامي غاية في الضخامة.. من الصعب أن تصدق أنه حقيقي ما لم تره.

تتجه في الصف حاملة متاعها القليل على ظهرها، وممسكة بيد سميرة.. تجفف عبرة سالت من عينها.

هناك على الشط وقف.. للمرة الأولى ترى التأثر في عينيه. ملامحه توشك على التشقق من فرط ما ظلت بلا تعبير وقد دبغها هواء البحر. نظر لها ونظرت له.

ثم إنها مدت يدها في جيبها والتقطت شيئًا.. كان هذا حجرًا

ثقيلًا اصطبغ بدم جاف. حجر منحه إياها شاب مراهق عاشق اسمه «أولاف» عندما قررت أن تترك النرويج. نظرت لسليم ثم رفعت ذراعها وألقت بالحجر وسط الأمواج. ظل هو يراقبها محاولًا تخمين ما ألقته في البحر، لكن لم يعد الوقت كافيًا لتبين ذلك.

لم تُطل الكلام وساعدها بحّار على اجتياز الماء الضحل، ثم الصعود إلى القارب، وساعد الابنة بدوره. لم تنظر للخلف.. فقط عندما ابتعدت نظرت لترى البركان الهائل يرتج والدخان يزداد كثافة، وفي الضباب تدرك أن «سليم» ما زال ينظر لها.

ـ «هل أخذت رسالتي لجوناثان؟».

ـ «سوف تصله فلا تقلق».

وداعًا يا شآبيب.. لن أراكِ ثانية.

الأرض التي حبلت بالحلم ثم أجهضته.

ظل سليم لمدة ساعة جالسًا على جذع شجرة متحللة.

ينفث المزيد من دخان لفافة التبغ شاعرًا بالحسرة لأنها توشك على الانتهاء. صحيح أن الهواء شحيح، وأن امتزاج التبغ بغازات البركان وصفة كريهة، إلا أنه لا يجد مفرًا.

سوف يجد بين البحارة مَن يعيره علبة تبغ وعلبة ثقاب.

شآبيب!

وجد نفسه يخط الاسم على الرمال.. وارتجف.

عندما انتهت لفافة التبغ وضعها بين الإبهام والسبابة وقذف بها بعيدًا كالمقلاع.

نهض متثاقلًا ثم ابتعد عن الشط.. ليختفي وسط الدغل والضباب المتزايد.

من خطاب سليم لـ جوناثان إيرهارت.

(قمنا بتصحيح الجُمل لنجعلها متماسكة والأفكار واضحة، خاصة أن سليم لم يعتد الكتابة)

عزيزي جوناثان..

للأسف تفكك ذلك المجتمع الذي حاول مكرم صنعه في بابوا غينيا الجديدة، وحاولت أنا أن أستكمله.

أنا أعرف يقينًا أن العرب لم يكونوا قط في غينيا الجديدة ولا الأوقيانوسية، وليست لديهم بقايا مسجد أو أطلال. هذه قصة تم تلفيقها بالكامل، لكننا حاولنا أن نقيم بناية كاملة شامخة فوقها.

المبدأ ذاته يقوم على الاستعمار الإحلالي، كما يسميه مكرم، وكما قال مكرم في رسالته لك: «العروس جميلة لكن لها زوجًا!». تجربة أستراليا نجحت، لأن المستعمر نجح في إبادة شعب كامل.. كان يجب أن يتم محو هؤلاء السكان وتذويبهم في مجتمعنا، وقد حاولت هذا جاهدًا، ومن هذا تعلمت أن الاستعمار الإحلالي يورث القسوة والعنصرية.. إنشاء دولة على بقايا مجتمع آخر عملية جراحية لا تتطلب أي قدر من الرحمة. إننا نفقد قدرتنا على الحلم عندما نحاول جاهدين أن نحقق حلمًا كهذا. ثمة جزء من إنسانيتنا يذبل للأبد كل يوم.

معنى أن يبقى معظم سكان بابوا غينيا الجديدة، أن تحاول إقامة دولتك وسط محيط مُعادٍ، وهي محاولة لا يمكن أن يُكتب لها النجاح. من الصعب أن تستمر دولة في محيط مُعادٍ مهما طال الزمن، خاصة أنها تعتمد على وهْم لإثبات حقها..

لا يوجد سبيل للاستقرار لأي دولة سوى الاندماج والتعايش وقبول الآخر.

ربما فشلنا كذلك بسبب الخلافات العِرقية والدينية.. مشكلة العرب الدائمة هي صراعاتهم الداخلية، والوهم الذي يعتقده كل فريق.. أن بوسعه إبادة الفريق الآخر، وبعدها يحارب الأعداء. لكن الحقيقة أن القتال يستمر للأبد ولا ينتهي أبدًا، بينما يزداد الخصوم قوة.

لم أستطع حل هذه المشكلة قط، كما لم يستطع مكرم.

أما آخر العوامل فهو الأرض المعادية، وهو عامل توقعناه، لكنه برهن أن حجمه أكبر مما حسبنا بكثير. بابوا غينيا الجديدة بلد مُعادٍ جيولوجيًّا، كله براكين وزلازل وموجات تسونامي.. أما من الناحية البيولوجية فهي معقل أمراض معدية.

البركان قد دمر كل ما شيدناه في الأعوام السابقة، وعلينا البدء من جديد. والفكرة قد حطمت أعصاب كثيرين ففضلوا الرحيل بلا رجعة.. بعضهم عاد لوطنه الأصلي.. البعض فضل العودة للعالم العربي نفسه، للبلدان التي فروا منها أول مرة.

الشعور العام لدى هؤلاء أنهم سيعودون لأرضهم القديمة.. سيبدءون من هناك ويستردون ما كان لهم.. قال لي أحدهم: عندما يطردني أحدهم من بيتي فليس عليَّ أن أبني بيتًا جديدًا، بل عليَّ أن أستعيده.. وكما قلت لك؛ حتى في المريخ عليك أن تتعلم التعايش وأن تذوب في الآخر ويذوب فيك.

أعترف أنني فشلت يا مستر «إيرهارت».

ربما أمكن أن تصحو الفكرة من جديد مع واحد آخر غيري، لم يعد هناك عدد كافٍ من العرب في ماروس آيلاند، لكني

بالتأكيد باقٍ حتى اللحظة الأخيرة.. وأنا آخر الراحلين، أو لربما آخر المحترقين.

عندما تصحو الفكرة من جديد بعد عقود طويلة أو قرون، سيكون لدى مَن يُحيي الفكرة ما يعتمد عليه.. سيجد آثارنا في شآبيب وكل ما يُثبت أننا وُجِدنا هنا. لقد صنعنا تاريخًا يبقى، وهناك جيل آتٍ بعد قرون يطالب بشآبيب لأنه كان فيها يومًا، وعندها سيجد ما يعضده تاريخيًّا، ولسوف يتعلم من أخطائنا.

شكرًا لك.. وشكرًا لمكرم العظيم؛ فبفضله ستظل شآبيب فكرة خالدة للأبد.

سليم علوي


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm